

• شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

• تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الرباط. المغرب



رجب 1404 / ماي 1984

• الثمن : 5 دراهم •



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط. المملكة المغربية



أسسها:
جلالة المغفور لـه
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات:
في المملكة المغربية: 55 درهماً
في البلاد العربية: 67 درهماً
في العـــالـم: 77 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

فهرس العدد 236

بسم الله الرحمن الرحيم

الإشعاع الممتد

●● جاء في الكلمة السامية التي افتتح بها جلالة الملك الحسن الثاني الاجتماع الطارئ للجنة القدس بفاس تأكيد جديد، بعيد المعنى، قوي الدلالة، واضح القصد، على التزام المغرب بالعمل الإسلامي لما فيه خير أمة الإسلام. وذلك في قول جلالته : «...ومرة مجددة أخرى أعاهدكم الله أنني سأعمل صباح مساء لإعلاء شأن الإسلام وكلمة الإسلام، ولضمان حقوق الأمة الإسلامية».

● والحق أن كل القرائن تقوم شاهدة على سبق المغرب بقيادة عاهله إلى ساحات العمل العربي والإسلامي والدولي تعزيزا للوجود الإسلامي وتقوية للكيان العربي ودعما للمعركة الفاصلة التي تخوضها هذه الأمة منذ ثلث القرن دفاعا عن أرضها وعرضها وشرفها وحقها الطبيعي في أن تحيا حرة كريمة. ولم يقتصر جهاد المغرب الموصول الأسباب المترابط الحلقات على الميدان السياسي والديبلوماسي فحسب، وإنما هو أوضح ما يكون في المجال الفكري والثقافي على نحو يبرز الطابع المتميز لهذه البلاد كقاعدة للإشعاع الحضاري ومنطلق للتحرير الفكري وموئل للعقيدة القوية الراسخة والإيمان الثابت الضارب في أعماق الوجدان. وهي الخاصية التي تجعل المغرب في مقدمة الصفوف مؤثرا ومشعا ونافذا وداعيا إلى الحق والعدل والمحبة بالحكمة وبالعقل وبالحلم وبالشعور المتحضر الواعي بالمسؤولية التاريخية والأمانة الدينية.

افتتاحية

•• ويأتي تأكيد جلالة الملك على التمسك بهذا النهج في الوقت الذي تتعرض فيه البلاد الإسلامية إلى ضروب شتى من الغزو الكاسح الجارف الذي يستهدف المس بالعقيدة ومسخ الهوية وتزييف التاريخ والنيل من الإرادة وفرض الهيمنة بالإرهاب الفكري والاستلاب الثقافي والدجل الذي يلبس مسوح العلم والمعرفة. وكلها أساليب تعمل عملها في الكيان الإسلامي بصورة واضحة تنعكس آثارها على أوجه حياتنا العامة.

إن في كلمة جلالة الملك الحسن الثاني الحاسمة القاطعة النافذة ما يؤكد على الحقائق التالية :

• مرابطة العرش والشعب في ساحة الجهاد نصرة للإسلام ودفاعا عن قيمه وإعلاء لكلمته.

• التزام جلالته أعزه الله على مستوى العالم الإسلامي بالعمل للإسلام ربطا للحاضر بالماضي واتساقا مع طبيعة المغرب التاريخية.

• إشعار الأمة الإسلامية بمسؤوليتها الحضارية في هذه المرحلة الحاسمة والإهابة بقادتها إلى الوقوف على صعيد واحد لمواجهة الخطر المحدق بالأمة.

• تأصيل العمل الإسلامي الدولي وإضفاء الطابع الشرعي عليه والارتفاع به إلى مستوى الدعوة الإسلامية والجهاد الإسلامي الحق القائم على الصدق والإخلاص والولاء الكامل لله ولدينه ولرسوله الأمين.

وفي ذلك كله، ما فيه من إقرار للشرعية التي ينبغي أن تكون مرتكزا لأعمالنا خاصة منها ما يتصل بمصير الأمة وحاضرها ومستقبلها.

•• إن هذه المعاني والرموز والدلالات المستخلصة من كلمة جلالة الملك من شأنها أن تغني عمل العاملين في حقول الفكر والدعوة والثقافة والعلم لما فيه الخير والقوة والعزة والمنعة للأمة الإسلامية قاطبة.

• وهي جميعها، مصابيح هدي ومعالم على طريق العمل الإسلامي سواء في مناحيه العالمية دفاعا عن الأرض المحتلة وانتصارا للشعب الفلسطيني المغتصبة حقوقه، أو على مستوى الفكر الإسلامي الذي يواجه اليوم أخطر معارك التحدي التي تتضافر فيها جهود القوى العالمية المناهضة لهذا الدين والحاقدة على أهله.

•• والحق أننا بإزاء مظهر واضح القسمات للعبقرية المغربية المسلمة التي تتمثل في جلالة الملك الحسن الثاني الحريص الأمين على حقوق المسلمين وحقائق الإسلام.

(دعوة الحق)

جلالة الملك الحسن الثاني في الاجتماع الطارئ للجنة القدس:

أعاهدكم أنني سأعمل لإعلاء شأن الإسلام وكلمته ولضمان حقوق الأمة الإسلامية

●● عقدت بمدينة فاس يومي 19 - 20 أبريل لجنة القدس اجتماعا طارئا برئاسة جلالة الملك الحسن الثاني رئيس اللجنة.

وبهذه المناسبة ألقى جلالته حفظه الله كلمتين ساميتين في الجلستين الافتتاحية والختامية ننشرهما فيما يلي مع البيان الختامي الصادر في ختام الاجتماع التاسع للجنة القدس :

الكلمة الملكية السامية في الجلسة الافتتاحية

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

رفاقي أعضاء لجنة القدس :

إن برنامج أعمالنا اليوم سينقسم إلى قسمين، سينقسم إلى قسم علني وقسم مقفل. ومن جملة القسم العلني سأرحب بكم في بلدكم، ثم سأعطي الكلمة إلى شقيقي السيد ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ثم سيلقي بعد ذلك الأمين العام لمنظمتنا تقريرا قصيرا ولكن هو تقرير في آن واحد شاف وكاف، حتى يمكن لنا أن ندخل في صلب الموضوع، وحتى يتأتى لكل وفد من الوفود أن يدلي بنظريته، ويأتي بنصيبه في الموضوع الهام الذي نحن من شأنه مجتمعون، فإذا كنتم موافقين على هذه الطريقة نبتدىء بسم الله الرحمن الرحيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

رفاقي أعضاء لجنة القدس، إنني مسرور، وفي آن واحد متشرف بأن أرأس هذه اللجنة التي أبى المؤتمر الإسلامي المنعقد في الدار البيضاء الاخير، إلا أن يهيني مرة أخرى ثقته

في خادم الأمة الإسلامية مرة مجددة، ومرة مجددة أخرى واعاهدكم الله انني سأعمل صباح مساء لاعلاء شأن الإسلام وكلمة الإسلام ولضمان حقوق الأمة الإسلامية.

إن اجتماع لجنتنا هذه، لم يكن منتظرا منذ أسابيع، بل هو اجتماع طارىء وظرفي. ذلك لأن السلطات التشريعية في الولايات المتحدة، أرادت أن تنال من السلطات التنفيذية حتى تقل سفارة الولايات المتحدة من تل أبيب إلى القدس وإن عملا كهذا، وبالأخص نابع من الدولة العظمى وهي الولايات المتحدة الامريكية، من شأنه أن تكون له مضاعفات لاعلى الصعيد العربي والإسلامي فقط، بل على الصعيد العالمي. ذلك إذا ما، لا قدر الله، تنكرت دولة كالولايات المتحدة، إلى تعهداتها المتكررة في المجالات الدولية، وفيما إذا هي تنكرت للمشروعية، وفيما إذا هي قررت أن يكون قانون الغاب، وقانون اللامشروعية، هو الذي من شأنه أن يسير أمور الدول، وأمور القارات، فسيصبح ذلك من أخطر ما يمكن على المجتمع العالمي كله.

إن أمريكا تجتاز اليوم، حملة انتخابية، وهذا ما جعلني أخاطب الرئيس، صديقي شخصيا وصديق بلادي، أن أخاطب الرئيس رونالد ريغان بقولي من جملة ما قلت له في رسالتي إذا كلما وقفت أمريكا على الانتخابات الرئاسية، تنكرت أو تنكر حزب من الحزبين الحاكمين في البلاد، لتعهدات بلده، وصار يتلاعب بما كان مقرراً، ستفقد الولايات المتحدة مصداقيتها نهائيا وكليا، حيث أن مقومات أية دولة تحترم نفسها الاستمرارية في الالتزامات والتعهدات.

ومما يسر، ولهذا سميته بصديقي، أنه كان ولا يزال، في مستوى التقدير الذي أقدره شخصيا، وفي مستوى التعهدات التي تعهد بها، متبعا في ذلك الرؤساء الامريكيين الذين سبقوه، وقد أرسل إلي رسالة هو والسيد شولتز وزير خارجيته، وافيناكم بها عبر الأمين العام لمؤتمرنا، وقد وصلتني البارحة رسالة أخيرة ها هو نصها هنا بالانجليزي والفرنسي، وبمجرد ما ندخل في النقاش المقفل، سأطلب منكم أن تستمعوا إليها، لأنه تعهد آخر. تعهد رابع في يوم 18 أبريل. معنى هذا، يوما قبل اجتماع القدس.

إن علينا إخواني ورفاقي، أن نكون بجانب الشعب الامريكي حتى لا تنطلي عليه الحيلة. ذلك، أنهم يحاولون أن يخلطوا في الاذهان فيما بين المشكل العربي الاسرائيلي، والمشكل الإسلامي الشامل وهو مدينة القدس.

ثانيا : أنا شخصيا مستغرب، بل عناصر تحليلي منهارة، حينما أرى أن زعيمين لا يتكلمان إلا على القدس، وتهويد القدس، ومسخ القدس، ناسين المسؤولية العالمية التي على الولايات المتحدة، داخل بلادهم، كالبطالة كالتضخم المالي، كالتشغيل، وغافلين كذلك، عن جوانب المسؤولية العالمية للولايات المتحدة فيما يخص الحوار شمال جنوب، شرق غرب، وغير ما إلى ذلك من المشاكل.

فعلينا إذن، أن نخدم بلادنا وأمتنا الإسلامية، ومصير أبنائنا وحفدتنا، وذلك بأن نعين من يعيننا، وبأن نقف وقفة واحدة في وجه من يتحدانا، كمثل السلفادور مثلا، الذي نقل سفارته من تل أبيب إلى القدس، فعلينا أن نقف أمامه وقفة واحدة، ذلك لا لأنه بلد صغير، لا. مسألة مبدإ، كان صغيرا أم كبيرا، لا يمكن بأية من الأحوال أن تدوس بلد أو مجموعة من البلدان عقيدتنا، التي نحن كبرنا فيها، وتربينا فيها، ونريد أن يتربى فيها أبناؤنا، ولا ينسى الجميع أنه ليس من المصلحة، أن يضيع أو أن لا يكسب أي بلد من البلدان، أو قطر من الاقطار، صداقة مليار من البشر، وحينما أقول مليارا أذكر لكم أرقاما رسمية دولية، فنحن المسلمون مليار من السكان، قوى بشرية، وقوى خلاقة، وقوى مشاركة في بناء العمران، قوى كان لها، وسوف يكون لها، الحظ الأوفر، في المشاركة في بناء عالم القرن المقبل، وقوى أخيرا متكتلة بل متشبثة بما أنزل الله من كتابه، وبمن أنزل عليه، رسوله. وكما قال الله في كتابه العظيم : **﴿فبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾** صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله.



الكلمة الملكية السامية في الجلسة الختامية

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

رفاقي أعضاء لجنة القدس :

إننا ولله الحمد قد أنهينا أعمالنا في موعد محدود ولكن علي أن أقول باسمكم جميعا للرأي العالمي أولا ولأعضاء المؤتمر الإسلامي ثانيا ان هذه الايام التي قضيناها في فاس شهدت صراعا قويا طيلة أعمالنا وذلك الصراع هو الصراع بين التعقل والحكمة والاحساس والمشاعر والاندفاع.

وكان هذا الصراع قويا لأن موضوعه هو موضوع مقدس موضوعه هو قضية القدس استوجب ويستوجب كل التضحيات كيفما كان ثمنها وكيفما كان عدد ضحاياها، لذا كان الصراع جد حاد،ولكن الشعوب الممثلةفي هذه اللجنة المنبثقة عن المؤتمر الإسلامي كلها شعوب لها رصيد من الأصالة. ومن العراقة ومن الحكمة كلها شعوب تتحلى بتربية القرآن وبتعاليم السنة والجماعة، لذا تمكنا دون أن نتنكر لأي

مبدأ من مبادئنا بل تمشينا مع مقرراتنا السابقة سواء على صعيد مؤتمرات القمة أو في لجنة القدس تمشينا مع الواقعية التي تقتضي منا أن نجادل كلا بمثل ما يجادلنا به، وأن نعامل كلا بمثل ما يعاملنا به، راجين في آخر المطاف أن ينتصر الحق وأن يزهق الباطل.

نعم أقول دائما ولا أقولها وحدي أن المشاكل السياسية لابد لها في عدة أحوال من الزمان حتى تنضج لتأتي أكلها ولكن قضية احتلال القدس وقضية احتلال الأراضي الفلسطينية لا يمكنها أن تداوى بالزمن ولا تقبل بطول الزمان دواء، ذلك أنه بماذا ستنفعنا الأرض إذا هي أصبحت مهودة ؟ ماذا سنفعل بالأرض إذا هي لم تبق عربية مسلمة أصيلة ؟ ماذا سنفعل بالأرض إذا مسخ أهلها وإذا لم نجن من أبناء فلسطين البررة أولئك الذين عملوا للعروبة، للإسلام، إذا لم نجن منهم الثمار المنتظرة للمشاركة مع اخوان آخرين مسلمين في رفع كلمة الإسلام وفي بناء حضارة الإسلام فلهذا أقول وأكرر إذا كانت المشاكل السياسية الأخرى تتطلب شيئا من الزمان أو كثيرا من الزمان فإن تحرير الأرض وتحرير البشر الفلسطيني والطفل الفلسطيني الذي سيصبح الرجل الفلسطيني، والطفل الفلسطيني الذي هو في جنين أمه الآن، إذا لم نحرر هذا كله في أقرب وقت ممكن سوف نضيع في الأرض وفي البشر، فلذا يجب علينا كما اتفقنا على ذلك في الطائف في مؤتمر مكة أن نستعمل جميع قوانا وامكاناتنا البشرية والمادية والسياسية لإعلاء كلمة حقنا ولاقناع العارف والجاهل أو المتجاهل بأن يرد لنا حقنا وذلك في أقرب وقت ممكن.

واختصارا حاولت أن أجمع في بعض الكلمات عناصر ذلك الصراع الذي خامرنا وجاهدناه في هذين اليومين صراع بين الحرمان والاحساس بالحرمان والظلم والاحساس بالظلم، وصراع بين الحكمة وتغليب العقل والمسيرة الرشيدة.

يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن : **﴿ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾.**

مرة أخرى رفاقي في لجنة القدس أشكركم وأنوه بأعمالكم وبمشاركتكم البناءة المخلصة والوفية في أعمال دورتنا التاسعة، وكونوا على يقين أن إدارة رئاسة لجنة القدس سوف تبقى حريصة حذرة يقظة لتتبع الأحداث ولتحليلها كما تراها، ولكن هذا لا يعني أنكم لستم مطوقين بالأمانة أنتم كذلك، فكل منكم من رأى رأيا أو حلل تحليلا أو نظر نظرة ربما غفلت عنها إدارة لجنة القدس فأنا لا أرحب بها فقط بل أدعوكم للمشاركة الفورية كلما رأيتم أن الضرورة اقتضت ذلك.

والله سبحانه وتعالى اسأل أن يعيننا وأن يسدد خطانا وأن يجعلنا في مستوى المسؤولية التاريخية وفي مستوى الثقة التي وضعها فينا مليار من المسلمين حتى نقوم بواجبنا إما فوق الأرض وإما إن اقتضى الحال تحتها والله الموفق.

والسلام عليكم ورحمة الله.

وقبل أن ترفع الجلسة الختامية لأشغال لجنة القدس في دورتها الطارئة، ألقى جلالة الملك الحسن الثاني كلمة هذا نصها :

قبل أن أعلن اختتام دورة القدس أريد أن ألفت نظركم إلى نقطة خاصة سوف أشرحها في بعض الكلمات وأريد أن تسجل في الأمانة وهو أنه لدينا قوة وإمكانات لم نستعملها إلى حد الآن. ألا وهي الجامعات والطلبة المسلمون الذين هم موجودون في امريكا، واقترح عليكم أن يجتمع جميع سفراء الدول الإسلامية في واشنطن حتى يفتحوا بالضبط لوائح الطلبة المسلمين الموجودين في الولايات المتحدة واذاك يتدارسون حسب القوانين الداخلية للولايات المتحدة لإنشاء وخلق جمعية الطلبة المسلمين للولايات المتحدة من فلوريدا إلى كاليفورنيا ومن شمال الولايات المتحدة إلى جنوبها. وان عدد الطلبة المسلمين أكثر بكثير من عدد الطلبة الإسرائيليين ولي اليقين ان هذا الجسر البشري والديني الذي سيجمع بين الشرق العربي والمسلم أو الغرب المسلم كذلك بواسطة طلبتنا وشبابنا سوف يمكننا من التعريف بقضيتنا ويبين لنا مستقبلا اعلاميا كجهاز للعمل وجهاز للتفسير وجهاز للدفاع

عن الحق. فإذا كنتم موافقين على هذه الفكرة سأوافيكم بها كتابة أنتم أعضاء لجنة القدس أولا وسأوافي بها جميع أعضاء المؤتمر الإسلامي واني لأرجو صادقا أن تنال من اهتمامكم وأن نسير بها سيرا حثيثا في أسرع وقت ممكن.

وقبل اختتام الدورة التاسعة أريد أن أوجه شكري إلى صديقي الحميم السيد الحبيب الشطي الذي أعرفه منذ سنين والذي كعادته لا يألو جهدا للعمل بكيفية صبورة والذي يتحمل من المهام والمتاعب الشيء الكثير هو ومن يعمل معه من أعضاء الأمانة العامة كما أتوجه بالشكر كذلك إلى جماعة المترجمين باسمكم جميعا على المتاعب التي نخلقها لهم وذلك لأننا في أغلب الأحيان نرتجل ولا نكتب ما نقرأ وهذا مما يجعل عملهم شاقا ولكن هذا مما يجعلنا نعترف لهم بالجودة وبالمهارة.

وأسأل الله **سبحانه وتعالى أن نجتمع مرة أخرى وحالتنا** بالغد أحسن من **حالتنا باليوم.**

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

البيان الختامي

عقدت لجنة القدس دورتها الطارئة بمدينة فاس بالمملكة المغربية في الفترة من 18 إلى 19 رجب 1404 الموافق لـ 19 ـ 20 أبريل 1984 بدعوة من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ملك المملكة المغربية ورئيس لجنة القدس وبحضور الأخ المجاهد السيد ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية واستمعت اللجنة إلى خطاب توجيهي شامل افتتح به رئيسها جلالة الملك الحسن الثاني هذا الاجتماع. كما استمعت إلى عروض قدمها رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ورؤساء الوفود حول الأخطار التي تستهدف القدس وأماكن العبادة فيها بفعل المخططات الصهيونية الرامية لتهويد المدينة واجلاء أهلها العرب من مسلمين ومسيحيين وكيفية التصدي لهذه الأخطار والمخططات.

وقد استمعت اللجنة إلى تقرير الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي عرض خلاله ما تم انجازه بتوجيه من جلالة الملك الحسن الثاني من المقررات السابقة للجنة، وقد أكدت على ضرورة مواصلة تنفيذها.

وبحثت اللجنة التحرك الإسرائيلي الصهيوني في مواقع مختلفة من العالم وفي الولايات المتحدة الأمريكية بوجه خاص الذي يستهدف الضغط على الدول لنقل سفاراتها من تل أبيب إلى القدس تثبيتا للاحتلال الاسرائيلي لبيت المقدس والأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة سنة 1967 واعترافا ضمنيا بهذا الاحتلال.

ولاحظت اللجنة أن هذا التحرك الاسرائيلي الصهيوني يتم في فترة صعدت خلالها اسرائيل عدوانها على القدس والمقدسات الإسلامية والمسيحية فيها.

ودرست اللجنة قيام كل من دولتي كوستاريكا والسلفادور بنقل سفارتيهما إلى القدس تعديا على الحقوق العربية وخرقا للقانون الدولي.

كما درست اللجنة تحركات أمريكية تتم على صعيد السلطة التشريعية في الولايات المتحدة لاستصدار قرار ينقل السفارة الامريكية إلى القدس ويتم في نطاق الحملة الإنتخابية للرئاسة الأمريكية.

ودرست اللجنة ردود الفعل العالمي على هذا التحرك الصهيوني الاسرائيلي وبحثت في كيفية مواجهته وأوصت بما يلي :

أولا : التعبير عن تقديرها لمبادرة رئيسها جلالة الملك الحسن الثاني لمواجهة التحرك الصهيوني الاسرائيلي.

وأطلعت اللجنة على المراسلات التي تمت بين رئيسها جلالة الملك الحسن الثاني والرئيس رونالد ريغان ووزير خارجيته جورج شولتز حول هذه التحركات وسجلت تأكيدات الادارة الأمريكية تمسكها بالموقف الرسمي الأمريكي المعلن الخاص بالقدس.

وتوصي بمتابعة الاتصال بالسلطات الأمريكية والساسة الأمريكيين لشرح الحقائق الخاصة بالقدس وبالعدوان الصهيوني الاسرائيلي المتصاعد عليها وعلى المقدسات الاسلامية والمسيحية فيها وتبيين مخاطر السياسة الأمريكية والدعم الأمريكي لتمكين اسرائيل من الاستمرار في احتلال الأراضي الفلسطينية والعربية وفي ممارسة سياسة الاستعمار الاستيطاني فيها والتحذير من النتائج الخطيرة المترتبة على هذه السياسة.

ثانيا : توصي اللجنة بأن يتولى رئيسها دعوتها ان اقتضت الظروف بالسفر وفي وفد برئاسته إلى الولايات المتحدة للقيام بالاتصالات اللازمة مع السلطات الأمريكية.

كما توصي بالاتصال بالدول الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن وبمختلف المجموعات الدولية لكسب تأييدها لوجهة النظر الإسلامية واتخاذ الاجراء نفسه ان اقتضت الظروف.

ثالثا : قطع العلاقات فورا مع كل من كوستاريكا والسلفادور تنفيذا للقرارات الإسلامية التي دعت جميع الدول الأعضاء إلى قطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية وغيرها مع أية دولة تقرر نقل سفارتها إلى القدس أو تعترف بضم اسرائيل لها أو بجعلها عاصمة لها.

رابعا : كما توصي اللجنة بتكثيف الاتصالات مع حاضرة الفاتيكان وحثها على موقف صريح ومعلن حول الاجراءات الاسرائيلية بمدينة القدس.

خامسا :

أ : اتخاذ موقف إسلامي موحد يكون مضمونه افهام أية دولة بأن الدول الإسلامية سوف تنفذ قرارات القمة الإسلامية الثالثة المنعقدة في مكة المكرمة وخاصة ما ورد في القرار رقم 3/1/3 من الفقرة الثانية.

ب : تكليف الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي لدراسة سبل تنفيذ هذا القرار المتضمن دعوة الدول العربية والإسلامية لاستخدام جميع طاقاتها وامكاناتها مع جميع الدول التي تتعامل مع قرار اسرائيل بضم القدس أو تؤيده أو تشجعه أو تسهم فيه أو تساعد على تنفيذه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

سادسا : التأكيد على أن أي نوع من أنواع التمثيل الدبلوماسي في القدس وبشكل خاص بما يسمى بمكاتب الاتصال لا يختلف في حقيقته عن نقل السفارات إلى القدس.

وترى اللجنة أن انشاء مثل هذا التمثيل الدبلوماسي أو شبه الدبلوماسي يعتبر خرقا واضحا لقرار مجلس الأمن الدولي رقم 478 لعام 1980 ويجب أن يعتبر هذا العمل بمثابة نقل السفارة.

سابعا : تذكر اللجنة دول العالم بالتزاماتها طبقا للقانون الدولي بعدم التعامل مع اسرائيل بأي طريقة يمكن أن تعتبرها إسرائيل على أنها اقرار بالأمر الواقع في القدس أو اعتراف ضمني به كعاصمة لها.

ثامنا : تكليف الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي بمتابعة تنفيذ كافة القرارات المتعلقة بالقدس على أن تعمل على جمع المعلومات مسبقا حول أي خطوات قد تقوم بها جهات أجنبية أو تقوم بها إسرائيل في القدس نفسها. كما بحثت اللجنة تصاعد العدوان الصهيوني على القدس ولاحظت أنه دخل مرحلة خطيرة تهدد بشكل لم يسبق له مثيل المقدسات الإسلامية والمسيحية ببيت المقدس ووقفت أمام المحاولات المتتالية للعدوان على الكنائس والمساجد وخاصة محاولات نسف المسجد الأقصى يوم السبت 1984/1/27 بعد أيام من انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي الرابع بالدار البيضاء.

ودرست اللجنة بامعان التقارير المقدمة التي تشرح هذا العدوان ووقفت أمام ظاهرة تفشي الارهاب الصهيوني بالقدس وإقامة مراكز له في المدينة القديمة وتشكيل

تنظيمات متخصصة به تسير على برامج العنصرية تهدف لطرد سكان القدس العرب وهدم المقدسات الإسلامية والمسيحية ببيت المقدس وفلسطين ويؤديها مسؤولون إسرائيليون وفق برامج منظمة وسياسة مرسومة.

ولاحظت اللجنة أن هذه التنظيمات تجاهر بأنها تسعى لما لم يجرؤ أحد على التصريح به سابقا وهو اقامة ما تسميه بالهيكل الثالث على انقاض المسجد الأقصى المبارك.

وسجلت اللجنة أن الخطر الذي يهدد القدس دخل مرحلة حاسمة وعبرت عن اقتناعها أنه سيتصاعد ما دام الاحتلال الإسرائيلي جاثما عليها وأنه انما تفاقم بسبب السياسات المؤيدة لإسرائيل والتي عملت على تنفيذ الاحتلال الإسرائيلي.

وأكدت اللجنة أن السبيل الوحيد لازالة هذا الخطر الداهم هو انسحاب إسرائيل الفوري من القدس ومن جميع الأراضي العربية المتحدة.

وأوصت اللجنة بما يلي :

أولا : تخصيص يوم الجمعة سابع عشر شعبان 1404 الموافق 18 ماي 1984 في جميع الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي ليكون يوما للقدس تخصص خطب الجمعة فيه للتنديد بالأعمال العدوانية التي تمارسها إسرائيل ضد القدس الشريف بالتواطؤ مع مؤيديها من مراكز القوى الصهيونية الامريكية.

ثانيا : تأكيد قرار القمة الإسلامية الثالثة التي انعقدت بمكة المكرمة الذي يقضي بحشد الطاقات الإسلامية والامكانات للدفاع عن المقدسات الإسلامية في القدس ولمواجهة الارهاب الصهيوني.

ثالثا : الطلب من الدول الأعضاء اتخاذ الاجراءات القانونية طبقا لقوانينها الداخلية للسماح بقيام مصلحة أو هيئة يكون هدفها جمع التبرعات من المؤسسات والأفراد لصالح صندوق القدس.

رابعا : حث الدول الإسلامية على الوفاء بالتزاماتها تجاه صندوق القدس وقضيته بغية تنفيذ البرامج الموضوعة لانقاذ القدس وتنفيذ القرارات الخاصة بتمكين وفد مجلس إدارة صندوق القدس للقيام بزيارته المقررة لبعض الدول الإسلامية من أجل جمع التبرعات الطوعية أو تلك التي تم الاعلان عنها في السابق والتي يجري تحويلها لحساب صندوق القدس.

خامسا : عبرت اللجنة عن تقديرها لمبادرة رئيسها جلالة الملك الحسن الثاني باصدار تشريع يقضي بانشاء جهاز إداري في المملكة المغربية ينظم جمع التبرعات لفائدة صندوق القدس.

سادسا : صادقت اللجنة على التقرير المرفوع إليها من مجلس إدارة صندوق القدس في دورته السادسة المنعقدة على هامش اجتماعات الدورة الحالية للجنة.

سابعا : عبرت اللجنة عن عظيم تقديرها وامتنانها للضيافة الكريمة التي أحاطها بها رئيسها جلالة الملك الحسن الثاني وحكومته والشعب المغربي الكريم.

* * *

المؤتمر التاسع لرابطة علماء المغرب

السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية يلقي كلمة يحدد فيها

مسؤولية العلماء في بناء المجتمع

●● عقد بمدينة الرشيدية يومي السبت والأحد 31 مارس وفاتح أبريل المؤتمر التاسع لرابطة علماء المغرب.

وبهذه المناسبة ألقى السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري كلمة في الجلسة الختامية للمؤتمر، كما ألقى في هذه الجلسة الأستاذ أحمد بن سودة مستشار صاحب الجلالة كلمة مماثلة.

وكان الأستاذ عبد الله كنون الأمين العام لرابطة علماء المغرب، والذي تم تجديد انتخابه أمينا عاما، قد القى كلمة في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر.

وننشر فيما يلي الكلمات الثلاث :

كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

- السيد مستشار صاحب الجلالة.
- السيد الأمين العام لرابطة علماء المغرب.
- السيد ممثل وزارة الداخلية.
- السيد عامل صاحب الجلالة.
- أيها السادة العلماء الأفاضل.
- حضرات السادة.

تشاء عناية الله أن ينعقد مؤتمركم هذا بمهد الدولة العلوية الشريفة لتأكيد الاستمرار في المسيرة الربانية التي جمعت وما تزال بين العرش العلوي المجيد وبين أسرة العلماء.

وإذا كان هذا العرش قد سجل صفحات مشرقة في تاريخ هذه الأمة برعايته للعلماء وتنظيم مجالسهم العلمية وتمكينها من الوسائل اللازمة لأداء رسالتها وتشجيع العلماء على القيام بمهام التوجيه الديني والوعظ والإرشاد في

المساجد وخارجها، إضافة إلى العناية الكبيرة بجامعة القرويين ومعاهدها وذلك بإصدار التشريعات التنظيمية لكليات الجامعة ودار الحديث الحسنية ومدها بالدعم الضروري لنجاحها واستمرارها على اعتبار أنها الروافد الأساسية للمسجد، والمصدر الأصيل للأطر العاملة في ميدان الدعوة الإسلامية ببلادنا.

وإذا كانت جهود حكومة صاحب الجلالة متواصلة لتنفيذ تعليماته السامية الهادفة للعناية بالجانب الروحي ودعم أسرة العلماء فيما تريده من خير لهذه الأمة.

فإن مؤتمرا مثل مؤتمركم هذا لابد أنه كان مناسبة لتقييم المجهود الذي أسهمت به الرابطة في المسيرة، وتقدير الأعمال التي ما تزال منتظرة منها، والتعرف بين هذين البعدين على خصائص المنهج الذي سار عليه العلماء بإيجابياته وسلبياته منذ فجر الاستقلال إلى الآن، ووسائل تطوير هذا المنهج حتى يتلاءم مع ظروف التطور العام الذي تشهده البلاد ومع معطيات الحضارة الجديدة التي لابد أن نتعامل معها فهي مناسبة أمام رابطتكم الموقرة للنظر إلى الباطن والتأمل في داخل الذات ثم الالتفات إلى الوراء للنظر إلى مواقع خطواتكم، والوقوف للتفكير العميق والهادئ في ما كان وما هو كائن قبل الانتقال إلى ما ينبغي أن يكون.

ولقد حمد الجميع سير رابطتكم الموقرة في هذا الاتجاه في مؤتمرها الأخير بمدينة الناظور عندما دعا ذلك المؤتمر العلماء والخطباء والوعاظ أن يقوموا بواجب التوعية والإرشاد على أساس كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، متجنبين كل ما يفرق الأمة المسلمة، أو يوسع شقة الخلاف بينها وبأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة.

كما دعا ذلك المؤتمر الدعاة إلى إخلاص النية في عملهم وألا يبتغوا منه إلا وجه الله والدار الآخرة ومصلحة المسلمين، كما جاء في البند الأول من التوصية الثالثة عشرة من توصيات لجنة الدعوة والوعاظ لمؤتمركم الثامن.

وأن يلتزموا بمجانبة أهل الهوى والبعد عن النفاق والأطماع الدنيئة كما جاء في البند الثاني من نفس التوصية.

والقيام بالدعوة سرا وعلانية وتجديد أسلوبها بحيث يكون موافقا للعصر ومخاطبة الشباب المسلم باللغة التي تؤثر في معالجة ادوائه بإبراز حقائق الإسلام العلمية وقيمه الخلقية وعدم مجافاة تعاليمه لمطالب التقدم والعدالة الاجتماعية كما جاء في البند الرابع من نفس التوصية.

نعم أيها السادة العلماء الأفاضل، كان ذلك نموذجاً شريفاً من توصياتكم ومن حقكم إذا لم أقل من واجبكم أن تقفوا اليوم لتأكيد الالتزام بهذا المنهج السليم.

ولقد آتت جهودكم ثمارها في مخاطبة الشباب وظهرت حركة في صفوفه كلها اعتزاز بالإسلام واندفاع إليه وانفعال به وحماس لمبادئ العدالة الاجتماعية التي ينادي بها والقيم الخلقية التي يدعو إليها.

وحقا ان على كل مخلص لدينه أن يرحب ببشائر رجوع شبابنا إلى دينه الحنيف وهو أمر كان منتظرا ومتوقعا لأن الأمة المغربية لا يمكن أن يكون شبابها إلا مسلما مادام الفرع يتبع أصله في ذرية بعضها من بعض.

ومن هذا المنطلق نعتقد أيضا أن ما صاحب هذه الصحوة من مظاهر الحماس والاندفاع هو شيء طبيعي في غالب الأحيان ولا ينبغي أن يقلقنا كلما بقي في نطاقه الطبيعي لأن الشباب من طبعه الحماس والاندفاع، ولقد قطع الشباب المرحلة الأولى وهي مرحلة الانجذاب إلى دينه والانفعال به، ومن واجبنا أن نساعده على قطع المرحلة الثانية، وهي الانتقال من الانفعال والحماس والاندفاع إلى التفكير الهادئ الرصين، الذي يعين على التحليل الهادف والتخطيط البناء، ويساعد على فهم القواعد، لأن الإسلام ليس مجموعة من الشعارات وليس إيديولوجية، وإنما هو دين سماوي له قواعد وأحكام وأصول ومقاصد لا بد للشباب أن يقعد لاستيعابها وفهمها، ولا بد أن نبذل الجهد جميعا لبلوغ هذه الغاية.

وبهذه المناسبة نريد التحذير من صنفين من الناس يريدان عرقلة هذه الصحوة وتحقيق أهداف خسيسة هي النيل من قيم ومبادئ ومقدسات هذه الأمة والنيل من وحدة كلمتها.

الصنف الأول هم جماعة من المتشبعين بالمذاهب المادية الإلحادية الذين اصطدموا بتمسك الأمة بدينها فأرادوا أن يحتالوا عليها وأخذوا يقدمون أفكارهم الهدامة في غلاف أساسي وظهروا بمظهر المناضلين في صفوف

الإسلام، وأرادوا توجيه الشباب المسلم نحو الهدم والعنف والتطرف.

والصنف الثاني هم جماعة من المرتزقة تعلموا نتفا مما تنشره المجلات والنشرات وكتب الجماعات وحرمهم الله من نعمة التفقه في الدين فأخذوا يبتزون الأموال من جهات مختلفة من أجل العمل على نشر اتجاه معين يؤدي إلى إخراج الأمة عما أجمعت عليه منذ قرون وهو التمسك بالمذهب الأشعري في الاعتقاد والمذهب المالكي في الفقه، ولا يخفى على أحد ما أدى إليه عمل هذين الصنفين من بث الخلاف والبلبلة وما ألحقه من أضرار بصحوة شبابنا وثقة الأمة في هذه الصحوة.

ولذلك كان من واجبنا أن نأخذ بيد شبابنا ليحتاط لدينه ولنفسه من هذين الصنفين وأحسن طريقة في نظرنا هي غرس الإسلام الصحيح في نفسه بواسطة العلماء الذين هم أمناء هذا الدين، وبذلك نعطيه الحصانة والمناعة التي تحميه من كل استغلال، ونعطيه القوة والمدد للبناء ونوفر وقته للعمل المثمر بدل تركه ضحية لدعاة التطرف والعنف ودعاة الاختلاف في الدين.

وفي نفس الوقت ينبغي أن تستمر الجهود وتتضاعف لتعم الصحوة وتنجح إرادة البعث الإسلامي الذي نادى به أمير المؤمنين مولانا الحسن الثاني دام له النصر والتمكين وليكون هذا البعث عاما وشاملاً يعم بنوره وضيائه جميع طبقات الأمة وكل فئات الشعب.

ولابد أيضا من التحذير من حالة نفسية رأيناها تتسرب إلى بعض العلماء فتحرم الأمة من كفاءاتهم ونشاطهم وهي حالة لم نجد لها وصفا يشملها أو اسما يكون علما عليها ولذلك نكتفي بذكر أعراضها ذلك أننا أصبحنا نرى العالم يكتفي بموقف التفرج والصمت فإذا تكلم انتقد إخوانه وإذا طلبنا منه أن يسهم بعمل اعتذر وإذا اكتفينا منه بالرأي والمشورة تفضل بالأسف على ما آل إليه أمر الدين واشتكى من الفراغ الذي تركه العلماء وزعم أنهم تخلوا عن رسالتهم وتركوا المجال لغيرهم.

ولا شك أن هذه حالة نفسية غير سليمة ونحن نعرف أن لها أسباباً كثيرة ولكن لا وقت لنا للخوض في هذه الأسباب بل ينبغي أن نتجاوزها وأن نعيد الثقة إلى النفوس وهي الثقة بالله والثقة بشعبنا والثقة بوطننا والثقة بمستقبلنا والثقة بدور العلماء في بناء هذه الأمة وتوجيه هذه الأمة وحماية هذه الأمة والسير بهذه الأمة في السياسة والاقتصاد والاجتماع والإدارة والتعليم والعدل والعلاقات الدولية على هدي الرسالة التي هم أمناؤها وتحت ظل أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين مولانا الحسن الثاني دام له العز والنصر والتمكين.

أيها السادة العلماء الأفاضل.

إننا في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية نريد أن تجعل عملنا قائما على التخطيط والدراسة العلمية وعلى التجديد في المناهج والطرق وعلى تحريك جميع الكفاءات إقليميا ووطنيا والاستفادة من جميع الإمكانات المادية والبشرية المتوفرة في وطننا العزيز من أجل القيام بعمل لا يهتم بالظرف والمناسبة فقط وإنما يتطلع إلى المستقبل.

ولا شك أن رابطتكم ستشارك في هذا العمل لأن هدفنا واحد هو خدمة هذا الدين وإعلاء كلمة الله.

وإن لنا في خطاب جلالة الملك حفظه الله ونصره بمناسبة رئاسته للدورة الأخيرة للمجلس الأعلى للمجالس العلمية بالرباط منهجاً محكماً وبرنامجاً منظماً وتوجيهاً سامياً وإرشاداً عالياً سنتمسك به ونسير عليه في كل خطوة وفي كل وقت لنضمن لعملنا النجاح.

وأغتنم هذه الفرصة لأزف إلى العلماء بشرى من بركات ذلك الخطاب :

وهي أن الوعد الملكي الكريم الخاص بالميزانية قد تحقق بأسرع مما كنا نظن وان وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية عاكفة الآن مع الوزارة الأولى على الترتيبات التنفيذية. أبقى الله أمير المؤمنين وحفظه بما حفظ به الذكر الحكيم وأطال حياته وأدام علينا نعمة هذا العهد الذي يتمتع فيه العلم والعلماء بكل رعاية.

وأحب أخيراً أن أختم كلمتي هذه بفقرة من الخطاب الملكي السامي الذي ألقاه أمير المومنين أعزه الله في الدورة الأولى للمجلس الأعلى، والتي جاء فيها :

«أنا متفائل، ولي اليقين أن الله سبحانه وتعالى سيكتب لنا جميعا بحوارنا المستمر، وبحوارنا لوجه الله،

سيكتب لنا إن شاء الله فتوحات، واننا سنرى ثمرات ما يشغل بالنا جميعاً في أقرب مما نظن يانعة إن شاء الله، وان سنابلنا ستكون تلك السنابل المحمدية القرآنية التي توتي أكلها أضعافا».

وإنا لنرجو الله ونسأله أن يعيننا وإياكم على القيام بالأمانة الملقاة على عاتقنا وبالمسؤولية التي نتحملها، مسؤولية التبليغ والدعوة إلى الله، حتى نلتقي في المؤتمر المقبل بحول الله، وقد أرضينا ربنا، وأرضينا ضمائرنا، وأرضينا عاهلنا المفدى جلالة الحسن الثاني حفظه الله، الذي يعلق علينا أملا كبيراً في هذا الميدان.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾.

كلمة السيد مستشار صاحب الجلالة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ذي الخلق العظيم وعلى آله وصحبه أهل الكرامة والتكريم.

أخي وصديقي صاحب الفضيلة العلامة سيدي عبد الله كَنون رئيس رابطة علماء المغرب.

أخي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور السيد عبد الكبير المدغري.

سعادة عامل إقليم الرشيدية.

إخواني أصحاب الفضيلة العلماء الأجلاء.

سادتي؛

اسمحوا لي بأن أتوج كلمتي بتبليغكم تحيات أمير المومنين صاحب الجلالة الحسن الثاني مشفوعة بدعواته لكم بالتوفيق والسداد، وثقته الكاملة في أن يصدر عن جمعكم الموقر خطة عمل ناجحة لتنفيذ ما ستتخذونه من قرارات من شأنها القيام برسالتكم الخالدة رسالة الدعوة الإسلامية المستمدة من قوله تعالى : **﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.**

أيها السادة: ينعقد مؤتمركم هذا بعد أربع وعشرين ساعة من فقدان العالم الإسلامي لداعية كان من أكبر الدعاة إلى الإسلام المدافعين عنه ألا وهو فخامة الرئيس الشيخ أحمد سيكوتوري رئيس جمهورية غينيا لذلك أدعوكم للوقوف لقراءة الفاتحة على روحه المطمئنة..

أيها السادة العلماء

اسمحوا لي إن أثرت هذا الموضوع في اجتماعكم هذا لأنني أومن بأن الحاج أحمد سيكوتوري يجب أن تهتم رابطتكم به وأن تعمل على نشر تراثه الإسلامي لا كرئيس دولة ولا كرجل سياسة، ولا كصديق للمغرب بل إني أدعوكم للعناية بتراثه لما قدم للإسلام من خدمات وما يمكن أن يقدمه هذا التراث، ولا أريد أن أطيل في الثناء على ما قام به في الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه وسأكتفي بنقل فقرات من تدخلاته في مؤتمر القمة الرابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي المنعقد بالدار البيضاء أيام 16 ـ 17 ـ 18 ـ 19 يناير 1984 يقول الرئيس سيكوتوري رحمه الله :

« إن الإسلام الذي يجمعنا هو ديانة حمد الله الواحد القهار، الخالق الأحد، الذي أعطى مخلوقه كل منة تهبه

الحياة السعيدة وإن كان عليه أن يجند نفسه باستمرار وأن يتصرف في الطبيعة ومحيطه الاجتماعي والثقافي ليستحق الثناء.

والمسلمون الأولون الذين كان لهم فضل اتباع نبينا محمد ﷺ، وكانت عليهم مسؤولية التطبيق في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمقتضيات القرآن الكريم، والتعاليم الوافرة المحتواة في حديث الرسول ﷺ قد جابهوا صعابا شتى وهزموها بفضل إيمانهم وعزمهم وبمجابهة جميع معضلات حياتهم. وبفضل الله، وبفضل التضحيات الجسام، ووفاء الأجيال المتتابعة السابقة عرف الإسلام تطورا متزايدا مستمرا.

الإسلام اختيار، واختيار له نتائجه الفلسفية والإديولوجية، والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

إن تصور الإسلام حول العالم يجعل من العالم الإسلامي بانيا لحياة اجتماعية عادلة وشريفة، وتجعله في صراع مع الشيطان الذي يجسد الشر بجميع أشكاله، فالقرآن الكريم يؤكد أن التصور الإسلامي يتجاوز الأجناس فالأمة التي عرفها القرآن الكريم هي الأمة الإسلامية أي جميع الرجال والنساء من جميع القارات ومن كل الأجناس والألوان الذين اتبعوا الطريق الذي هدى إليه نبينا محمد عليه السلام.

فالإسلام هو السند الأسمى وإننا نرجو من الله أن يتوفانا اللحظة إذا كنا مضطرين إلى مخالفة هذا السند فليس هناك ما هو أنبل وأقوم وأعدل من المبادئ الإسلامية.

الإسلام إديولوجية كاملة وتامة فهو يعلمنا الماضي ويلقننا السلوك الراهن ويقينا من مكائد المستقبل، ويعطينا تصورا حول الزمان والمكان والحياة في جميع مجالاتها السياسية والاجتماعية والثقافية، لم يترك الإسلام مجالا من المجالات إلا وتطرق له، لكن أعداءه روجوا أكاذيب عنه إلى حد أن بعض المسلمين أصبحوا يخجلون من القول بأن القرآن دستور تام وخالد، وحتى من الإعلان عن إسلامهم.

أما على الصعيدين، الفلسفي والإديولوجي فنؤكد بافتخار أننا مسلمون وأننا سنحمي الإسلام ضد أعدائه في العالم كله... إننا لا نهدد أحدا ونترك التهديد للآخرين أما نحن فنعمل في الإطار الذي يفرضه علينا ضميرنا.

أما السياسة الإسلامية فهي مبنية على مبادئ الاعتراف بالحقيقة وعلى احترام تعاليم القرآن الكريم وعلى خوض المعارك في سبيل تلاحم الأمة الإسلامية.

إن الحقد لا يبني بل يهدم، واحتقار الآخرين لا يبني بل يحطم. الإسلام أخلاق وسلوك ومجموعة من قيم أخلاقية يجب على المسلم أن يتحلى بها كما أن الإسلام يفرض عددا من الواجبات تقتضيها هذه القيم : خشية الله، ومحبة الحق، والتحلي بالشجاعة للتعبير عن الحقيقة وللدفاع عنها في كل زمان ومكان. إننا نمثل هذه الشعوب المومنة التي تؤدي صلواتها كل يوم والتي تبدأ الصلاة بقراءة الفاتحة، السورة التي تبرز أن أمام الإنسان صراطين صراطا مستقيما يسير فيه الذين أنعم الله عليهم تبارك وتعالى، وصراطا غير مستقيم ليتبعه المغضوب عليهم والضالون والطريق المستقيم هو الحق والعدل وإدراك قيمة وحدة الأمة الإسلامية وإرادة تقويتها وتدعيمها.

إن حياتنا تسير حسب إرادة الله.

إننا لا نخشى إلا الله وإننا نعلم أنه سيعيننا دائما ما دمنا أوفياء للإسلام ولشعبنا لنعلم أن الإسلام يوصي بأن الإشهار يجب أن يكون للحقيقة والعدالة».

أيها السادة

أتمنى أن تكون هذه الفقرات التي قدمتها أمامكم قد أعطتكم صورة عن تفكير الرجل الإسلامي، وعسى أن تكون حافزة للباحثين في رابطة العلماء عن تقديم هذه الشخصية في دراسة تثري الخزانة الإسلامية بما خلفه هذا القائد الإسلامي العظيم من كتب وخطب ومقالات وتصريحات في التعريف بالإسلام، وتقديمه كبديل لحل المشاكل التي يتخبط فيها العالم المعاصر.

كلمة السيد الأمين العام لرابطة علماء المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين.

أصحاب المعالي، أصحاب السعادة، أصحاب الفضيلة، أيها السادة.

إنه ليوم أغر مبجل، هذا الذي نستقبلكم فيه ونسعد بلقائكم، وينتظم جميعنا مدعوين ومؤتمرين، في هذه البلدة الطيبة، عاصمة إقليم تافيلالت، عرين دولتنا الشريفة، وموطن الأسرة العلوية المنيفة، وهل يصح أن يعقد العلماء ثمانية مؤتمرات في مختلف أقاليم المملكة ويتجاوزوا هذا الإقليم، الذي هو أحق بالتقديم لما ذكرنا ولما أعطى للمغرب من أعلام أفذاذ لا يحصيهم عد.

ولقد حالت العوائق الطبيعية والمادية عن عقد المؤتمر التاسع في وقته المحدد فقبلنا تأخيره إلى وقتنا هذا، حرصا على الوفاء بالوعد الذي التزمنا به لإخواننا علماء الإقليم، ورغبة في الاتصال المباشر بسكان هذه المنطقة الذين لهم في نفوسنا أجل مقام.

والشكر لرجال السلطة العليا والمحلية الذين مهدوا لنا السبيل وذللوا الصعاب، ولكلٍّ من شرفنا بحضوره ولبى دعوتنا من الشخصيات البارزة والمسؤولين الكبار، فمؤتمر العلماء هو مؤتمر الجميع، وتأييده هو تأييد لكلمة الله ودعوة الإسلام والشريعة الغراء؛ وتجاوب مع خطة جلالة الملك الذي ينص دستور الأمة على أنه أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين أدام الله عزه ونصره.

وإننا في هذه الغمرة من الابتهاج بهذا اللقاء لا نملك إلا أن نستحضر إخوانا لنا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ومضوا إلى سبيلهم وسبيل كل حر، فلنترحم على أرواحهم الطاهرة وندعو الله أن يشملهم بعفوه وغفرانه ويبوئهم مقام صدق عنده مع عباده الصالحين، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أيها السادة؛

لعل مؤتمرنا لم يعقد في وقت أشد وطأة على الأمة الإسلامية منه اليوم، وبعدما كنا استبشرنا خيرا بحلول القرن الخامس عشر الهجري واحتفلنا به وأملنا أن يكون قرن الانبعاث للإسلام ودولته واستعادة عزته وصولته، إذا بنا ننتكس انتكاسة غطت على كل ما قبلها ورجعت بنا القهقرى إلى ما هو أسوأ من عهد الاستعمار الأجنبي الذي اكتسح بلاد الإسلام في القرن المنصرم، فقد كنا في عهد الاستعمار نقاتل العدو المتسلط علينا وأصبحنا الآن يقاتل بعضنا بعضا وتفككت عرى الأخوة الإسلامية وفتحت أبواب التدخل الأجنبي من جديد في شؤوننا بل صرنا نستدعيه ليؤمننا ويضمن السلامة لنا من إخواننا وأبناء عمومتنا لقد هانت كل مصيبة أمام الحرب التي تتأجج نارها بين المسلمين وتردي الأوضاع السياسية في جل البلاد الإسلامية واستنزاف قدراتنا المادية والمعنوية في محاولة الانتقام والقضاء على العدو الذي هو الأخ الشقيق والمولى والناصر والمعين والجار الجنب والجار اللصيق وأصبحت بلادنا ميدانا لتجريب الأسلحة الفتاكة والعتاد الحربي المدمر وسوقا لتصريف وتبديد ثرواتنا فيما فيه حتفنا وترفيه خصومنا وتشغيل معاملهم التي أرصدت لصنع أدوات السحق والمحق وتقليص ظل البطالة عندهم فيما تزخر بلادنا بالعاطلين والمتذمرين لعدم وجود الشغل الذين لا يجدون من منقذ ينقذهم من البؤس والفقر إلا الهجرة إلى الخارج التي قرنها الله بقتل النفس ولاسيما إذا كانت لأرض الكفر..

إننا ما نزلنا إلى هذا الدرك الأسفل من التشتت والتمزق إلا بإعراضنا عن دين الله ودعوة الإسلام والعمل بالكتاب والسنة، والتماسنا للهدي في غير ما هدانا الله به، واستيرادنا للمبادئ والأفكار والأنظمة المعوجة من بلاد الكفر والإلحاد، وتواصلنا فيها وتعصبنا لها إلى حد الاقتتال والتقاطع والتنافر والتدابر، فحقت علينا كلمة العذاب ولن يرفع الله عنا غضبه ومقته إلا بمراجعة سيرة سلفنا الصالح والحب في الله والبغض في الله والتعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق والتواصي بالصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتصالح والتناصح وحسم أسباب الخلاف والعداوة والوقوف صفا واحدا في وجه التحديات والمؤامرات التي تهدف إلى هدم كياننا وتحطيم وجودنا السياسي والدولي من دون بقية الأمم والشعوب.

ولقد آن لنا أن نعترف بأن داءنا منا وأن أسباب تخلفنا أكثرها داخلية وأن نكف عن تحميل المسؤولية لغيرنا وتعليق ما نعانيه من فرقة وتصدع على مشجب الاستعمار والإمبريالية شرقية أو غربية، فقد أحرزنا كياننا ورمينا بالاستعمار ودهاقنته في البحر، ولكنا لم نحسن بناء استقلالنا والاحتفاظ بحريتنا وعدنا نستنجد به من كل ما ينزل بنا غافلين عما قاله شاعرنا القديم :

المستجير بعمرو عند كربته
كالمستجير من الرمضاء بالنار

وهنا تبرز مهمة العلماء في النصح والإرشاد وإصلاح ذات البين والدلالة على معالم الطريق وإنقاذ الوضع من الانهيار والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده، فتستقيم الأمور وتصلح الأحوال ويتأهل المسلمون ليكونوا كما أراد الله لهم خير أمة أخرجت للناس، وينجز لهم ما وعدهم من النصر والتمكين في الأرض، ويتبين لمن شك في مهمة العلماء هذه أن ما حل بالمسلمين إنما كان محنة موقوتة، تزول بزوال أسبابها وهي أسباب لا يعقلها إلا العالمون.

وهذه المهمة هي سر قرآن الله عز وجل شهادة العلماء بشهادته وشهادة الملائكة في قوله تعالى : ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾.

أيها السادة؛

من الحق أن نعطي نظرة عن عملنا في المدة التي انفرطت بين المؤتمر السابق الذي هو الثامن ومؤتمرنا اللاحق هذا وهو التاسع، وما أحرى هذه النظرة أن تكون نقدا ذاتيا لولا الحرص على جبر الخواطر والاكتفاء بتأنيب الضائر، على أنه الطموح الذي نلمح فيه قول شوقي :

شباب قنع لا خير فيهم
وبورك في الشباب الطامحينا

مع الاعتذار عن لفظ شباب واستبدال وصف شيوخ منه.

وعلى كل فإني لا أقول إن عملنا في هذه المدة تجاوز ما تعودنا عليه في نشر العلم من القيام بدروس التوعية الدينية، ولاسيما في مواسم الخير حين تتشوف الأنظار إلى علمائنا في كل الأقاليم ومبلغ العلم عندي أنهم لم يخيبوا الظن فيهم قط، وقد يتضاعف عملهم على نطاق الرابطة والمجالس العلمية الناشئة فإن كثيرا منهم أعضاء في هذه المجالس، وما ننشره عن نشاطهم في بعض الأحيان أكبر دليل على ذلك.

وقد أثبتت الرابطة وجودها على كامل التراب الوطني بإنشاء فروع جديدة كان آخرها فرع إقليم كَلميم وإقليم العيون وبإنشاء مراكز خاصة بها في بعض الأقاليم كالدار البيضاء ووجدة، وفي فاس الذي يوشك فرعها أن يفتح أبواب بنايته في أحسن موقع بالمدينة الجديدة، زيادة على مركز الإفتاء الذي يوجد بالمدينة الجديدة، في حرم القرويين من زمن غير قليل وبه عالم متفرغ ملازم يستقبل الزائرين وقد أعطى فتاوى تعد بالمئات.

ولا يخفى عملنا في الميدان الإعلامي وما نواصله من إصدار جريدة الميثاق التي بلغت عامها العشرين مجلية في كل الميادين من سياسية واجتماعية وثقافية فضلا عن رسالتها الإسلامية العامة ومواكبتها للأحداث الكبرى التي تجري على الصعيد الوطني والعالمين العربي والإسلامي

بافتتاحياتها التي يشهد لها الجميع بالموضوعية والعمق وحسن التناول، وفي باب الفتوى دأبت على الإجابة عن المسائل التي تطرح عليها بنفس عالي وباستقصاء للمذاهب الفقهية مما يكاد لا يوجد في غيرها ويجعل كثيرا من المجلات ينقلون عنها، وذلك إلى جانب ركن الأخبار الذي يغطي أنحاء المحيط الإسلامي باستمرار.

وقد ثبتت قدميها على أرض الصحافة الإسلامية وأصبحت مطلوبة في كل موطن وتصلنا اشتراكات فيها من أمريكا وأوربا من المعاهد والشخصيات المعنية بالبحث في الشؤون الإسلامية، وقد عززناها كما تعلمون، بمجلة الاحياء نصف السنوية التي سدت فراغا كنا نشعر به إزاء المقالات والأبحاث المطولة التي يكتبها مساعدونا الأكفاء فتضيق عنها صفحات الميثاق، وهي اليوم قد أخذت طريقها إلى الانتشار في الداخل والخارج ودخلت في سنتها الثالثة.

وخطونا في هذا السبيل خطوة ثالثة بإصدار سلسلة الرسائل الصغيرة التي أطلقنا عليها سبيل المومنين، اقتباسا من قوله عز وجل : ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع سبيل غير المومنين نوله ما تولى**﴾ أي الآية التي هي دليل العلماء على الأصل الثالث من أصول التشريع، وهو الإجماع وتهدف هذه الرسائل إلى تنوير عموم المسلمين بقضايا الإسلام الأساسية وما علم من الدين وأجمع عليه أهل العلم من أمر العقائد وأحكام العبادات والآداب والسنن والشعائر والأخلاق بطريقة مبسطة من غير تفلسف ولا تعالم فقد طغا النظر على العمل والجدل على التطبيق وابتعد المسلمون عن المعرفة الدينية وحلت المذاهب المستوردة منهم محل العقيدة. فيراد من العلماء أن يرجعوا بهم إلى الصراط المستقيم وإلى نهج السلف الصالح والفطرة السليمة التي يولد عليها كل مولود ولا يحيد عنها إلا بالتلقين المدخول والقدوة السيئة.

وقد صدر العدد الأول من هذه السلسلة يحمل اسم أربعون حديثا في فضل القرآن وتعلمه وتعليمه وتلاوته، وفي المطبعة الآن العدد الثاني وهو في مناقب الصحابة إذ أصبح كثير من الشباب وعامة الناس لا يقدرون الصحابة قدرهم ويتكلمون في حقهم بما لا يليق، انسياقا في حبل الدارسين الجدد الذين جعلوا من دهاقنة الاستشراق والاستعمار الفكري أئمة لهم وأمثل مقلدين، ويتناول العدد الثالث موضوع الدعاء على ما ورد في السنة، والدعاء كما نعلم جميعا هو مخ العبادة وإني أتوقع لهذه الرسائل إذا سارت على هذا المنهج أن تنتشر على نطاق واسع في المشرق والمغرب لأن حاجة المسلمين إلى موضوعاتها ودعوتها السلفية فوق كل حاجة، وكأني بها يعاد طبعها في المشرق وفي مصر بالخصوص لتعميم نشرها في العالم الإسلامي، ولهذه الغاية وهي عموم النفع جعلنا لها ثمنا رمزيا هو أقل من نصف تكلفتها.

أيها السادة؛

إن مما يثار في أعقاب كل مؤتمر نعقده، وبمناسبة وغيرها السؤال التعجيزي المثبط المعروف، وهو أين التنفيذ للتوصيات التي يصدرها المؤتمر والمطالب التي تقدم للجهات المختصة المسؤولة، ونجيب دائما بأن التنفيذ ليس بيدنا، وأحيانا لا يكون بيد المسؤولين أنفسهم لعدم توفر الوسائل والأجهزة والأطر وغير ذلك. ونقول أين تنفيذ ما تصدره المؤتمرات الدولية والمنظمات الكبرى والبرلمانات والمجالس الحكومية وغيرها، فما بالنا نحن الذين ليس بيدنا سلطة ولا إمكانات نجعل مشجبا تعلق عليه كل المسؤوليات فلا تسمع إلا أين العلماء ورثة الأنبياء، وما علموا أن الأنبياء أنفسهم كثيرا ما لم تقبل أقوالهم وتستجب دعوتهم ويكذبوا ويُحارَبوا حتى ينتقم الله لهم من أقوامهم بالعذاب الأليم.. ونحمد الله على أن الشارع جعل لنا مندوحة من مسؤولية التنفيذ لعلمه أنه ليس في طوقنا، فلم يكلفنا إلا بالبلاغ، وهذا هو ما نقوم به في هذه المؤتمرات حين نصدر التوصيات ونقدم المطالب، وننفصى من مسؤوليتنا فتبقى حينئذ مسؤولية الحكومات والمجالس النيابية وبقية الأجهزة التي تنوب عنها في التنفيذ.

إن مؤتمراتنا منابر لإعلان أفكارنا وما نتخذه من مواقف إزاء الأوضاع القائمة التي تحتاج إلى تقويم والتحركات التي تفتقر إلى توجيه، وذلك من منظور إسلامي كثيرا ما يقع التغافل عنه فتقع علينا تبعة التنبيه

إليه والتنصيص عليه، وفي اعتقادي أن هذا أكثر صدع بما أمر به العلماء من البيان والتبليغ لأنه يقع على رؤوس الأشهاد ويتحدث به الناس في كل ناد وينشر ويوزع على أوسع نطاق ويُقدم بوفد معين من أعضاء المؤتمر إلى الجهات المعنية في الدولة وكفى بذلك اعذارا.

وحسبنا أن يرى مبصر ويسمع واع كما قال البحتري، ليُسأل كل عن عمله، ويُنظر فيما يصدر من قبله وقد أسفرت توصيات التعليم عن بعض التفهم، علما بأن دار الحديث قد استقر الوضع فيها أو كاد بالنسبة إلى السلك الثالث، وأن شعبة للدراسات الإسلامية أحدثت في بعض الكليات غير القروية ولكنا نريد أن تعمم في جميع الكليات الجامعية لاعطاء التعليم العام صبغة إسلامية لا يجمل بالخريج كيفما كان أن يعرى منها؛ لأن ديننا هو الإسلام وإن لم ينص عليه الدستور فكيف مع النص ؟ لاسيما وهذه الشعبة إن أريد بها إنشاء تعليم إسلامي عال، فإنها غير كافية أصلا، وهي إنما تضايق التعليم الإسلامي الذي يوجد في كليات القرويين ولا يوازيه أو يغني عنه ما يعطى في هذه الشعبة، فالحق والصواب والمنهج القويم هو أن تعمم هذه الشعبة كما قلنا، في الكليات الأدبية والعلمية وتعد إجراء لتنوير طلبتنا بالتعليم الإسلامي الذي لا يصح أن يتخرجوا وهم غير ملمين بما يجب عليهم معرفته منه.

ويمكن أن يقال عن توصيات التضامن الإسلامي إنها كذلك قد لقيت صدى واهتماما من المسؤولين ظهر جليا في مقررات القمة الإسلامية، وإن لم تكن كلها في المستوى المطلوب، ولكن جميع المسلمين على اختلاف اتجاهاتهم وتصرفاتهم، على صعيد واحد، بغية التقريب والإصلاح والانطلاقة المنشودة لرد الاعتبار وحفظ الكرامة، هو وحده كاف في الظرف الذي نعيشه ونتدمر منه جميعا، وقد كانت عودة مصر إلى حظيرة المؤتمر الإسلامي من أعظم النتائج التي أسفرت عنها هذه القمة، والكريم إذا بدأ تمم.

أيها السادة؛

ونحن في مؤتمرنا التاسع بهذا الإقليم الصحراوي العزيز لا ننسى ما تتعرض له صحراؤنا المسترجعة من هجومات مجهزة من جيران لنا لم نفتأ نعذر إليهم ونتحاشى الاصطدام معهم ولكنهم لا يتراجعون عن مواجهتنا في الميدان ببيادق عملائهم من الخارجين على الإجماع الوطني والمرتزقة الملمومين من كل فج عميق الذين تتصدى لهم قواتنا المسلحة الملكية الظافرة وتكيل لهم الصاع صاعين وتكبدهم من الخسائر في العتاد والأرواح ما تجعلهم يكمنون الشهور العديدة لتضميد جروحهم واستعادة أنفاسهم ليبوأوا مرة أخرى بالخسران المبين والاندحار المهين كما يواجهوننا على الصعيد الدولي بالمؤامرات الدنيئة والمناورات المكشوفة في مواقف مخزية يجزون بها مواقف التضامن معهم أثناء حرب التحرير وما لقوه من مساندة مادية ومعنوية كثيرا ما كانت تؤدي بالمغرب إلى التورط في مشاكل دولية مع السلطات الاستعمارية وانتقامها منه. وهي الآن تدس لنا مع دول افريقية وتغريهم بالمال ليعارضوا معها تحرير أراضينا الصحراوية التي كافحنا من أجلها ونازلنا المستعمر لها في معارك حربية ومعارك سياسية على النطاق الأعلى حتى ألقى باليد وخرج منها على مرأى ومسمع من العالم أجمع وسجل تسليمه وتسلمنا لأراضينا دوليا في الأمم المتحدة وما يوم حليمة والمسيرة الخضراء بسر.

لهذا فإنا نستنكر باسم مؤتمر العلماء هذه السيرة الشنعاء لساسة الجزائر ونصرح بأن اخوة الإسلام وحقوق الجوار والأخلاقية الدولية تتنافى مع هذا المسلك الوبيل الذي تتخذه السياسة الجزائرية وإن عاقبته الوخيمة ستكون عليها وإن المغرب المخلص لتعهداته والعامل على تحرير كل شبر من أراضيه سواء في الصحراء الغربية أو الشرقية أو سبتة أو مليلية أو الجزر الجعفرية سينصره الله ويخذل خصومه طال الزمن أم قصر ولله العزة ولرسوله والمومنين.

أيها السادة؛

إن إخواننا المجاهدين في فلسطين وارتيريا وافغانستان والفلبين الذين تسلط عليهم عدو شرس من الصهيونيين والصليبيين والشيوعيين بحاجة إلى المعونة والمدد والتضامن معهم وانا في كل مؤتمراتنا لم نزل نكرر الدعوة إلى اصراخهم وتلبية نداءاتهم المتوالية إلى إخوانهم المسلمين في جميع الأنحاء حكومات وشعوبا بما يجب

عليهم من الوقوف بجانبهم وتعزيز صفوفهم في القتال. فإن الجهاد إذا نزل العدو بأرض الإسلام يصبح فرض عين على كل المسلمين فإن لم يمكن فتجهيزهم بكل ما يلزم من عتاد ومال ومؤونة فإن من جهز غازيا كمن غزا على ما جاء في الحديث الشريف وشد أزرهم ونصرتهم في المحافل الدولية حين تطرح قضاياهم وتثار من قبلنا أو من قبل الغير ولا يصح السكوت عنها بحال ولا قبول القرارات السلبية التي لا يكون لها مفعول في تحقيق مطالبهم العليا ورفع اليد العادية عنهم وإنهاء عهد التسلط عليهم والتدخل في شؤونهم الذي ينافي حريتهم واستقلالهم واتخاذ الاتجاه الإسلامي في سياسة الحكم الذي يختارونه لبلادهم.

وإننا من هذا المنبر نعلن عن تضامننا مع كل من يرفع راية الحرية والاستقلال من الشعوب المضطهدة والمغلوبة على أمرها في افريقيا وآسيا وسائر القارات وبالخصوص في البلاد الإسلامية ولاسيما هذه التي تعاني من ويلات الإرهاب وتسلط العدو المغير عليها ما جعل المواطنين فيها يتشردون في ديارهم ومساكنهم ويعيشون في الخيام ويقاسون أهوال التقتيل والموت جوعا وضياعا كالفلسطينيين والاريتيريين والأفغانيين رد الله غربتهم وجبر كسرهم ورد كيد أعدائهم في نحورهم ومكر بهم مكرا لا يبور.

كما نوجه من هذا المنبر نداء أخويا إسلاميا حارا إلى الإخوان المقتتلين في إيران والعراق ليحقنوا الدماء المهدرة بجنون وحقد لصالح أعداء الإسلام من صهيونيين وصليبيين وشيوعيين وتجار الأسلحة وأعتدة التقتيل والتدمير، والتي جعلتنا مثلا مضروبا في تفكك العرى وتمزق الأواصر الدينية وانعدام التمييز والحصافة السياسية، ونهيب بالخصوص بجنود الفريقين أن يلقوا السلاح ويمتنعوا عن القتال الذي ييتم أطفالهم ويرمل نساءهم وليس لهم فيه عند الله أجر ولا مثوبة، والله لا يصلح عمل المفسدين.

أيها السادة؛

في هذا الجو المعتم المتأثر بالانفعالات والمآسي التي تجري على أرضنا الإسلامية تلمح بصيصا من النور يوحي لنا بالتفاؤل ويبشرنا بالمستقبل المضيء الذي لابد أن يتحقق فيه وعد الله لنا بالنصرة والتمكين والاستخلاف في الأرض الذي جعله الله لعباده المومنين، وعلى هذا الدرب يسير رائد حملة الانبعاث وحامل شعلة الصحوة جلالة الملك الحسن الثاني رئيس القمة الإسلامية الرابعة والقمة العربية الثانية عشرة ورئيس لجنة القدس الذي يبذل مجهودات عظيمة في سبيل استرجاع الكرامة وحماية الكيان وتحقيق الوحدة لتكون الأمة الإسلامية كما أراد الله لها خير أمة أخرجت للناس، وتتبوأ المقام اللائق بها في طليعة الأمم والشعوب المناصر للحق فعلا لا قولاً والعاملة لخير الإنسانية جمعاء لا فرق بين ضعيفها وقويها وأبيضها وأسودها على نحو ما أمر الله عز وجل وجاءت به شريعة سيدنا محمد ﷺ. فالله المسؤول أن يوفقه ويعينه ويسدد خطاه ويأخذ بيده في كل المواقف ويؤيده بفواتيح السور الغر وآيتي الكرسي والحرص وسورتي الفتح والنصر ويبقيه حصنا حصينا وملاذا أمينا للعروبة والإسلام والخاص والعام ويقر عينه ويشد عضده بولي عهده الهمام وسائر أنجاله الكرام وشعبه الناهض المقدام واخوته ملوك المسلمين ورؤسائهم وأمرائهم الأنجاد الأمجاد الأعلام، إن ربي على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، والسلام عليكم ورحمة الله.

العرش المغربي أقدم العروش

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

(3)

انخذت الحضارة المغربية في هذه الفترة مظهرا جديدا تبلورت فيه الازدواجية العربية التركية في الجيش ومراسم الملك وأبهة العرش والتراتيب الدينية كالاحتفال بالمولد النبوي وبموسم الشموع غداة العيد وسرد صحيح البخاري في رمضان وجمع المسمعين من حواضر المغرب لإنشاد أشعار الصوفية وقصائد المديح السلطاني في (قصر البديع) المنمّ بنمارق الذهب وحائطيات الديباج وتوافر الوصفان والعلوج الرافلين في الأقبية المخوصة والمناطق المرصعة والحزم المذهبة وسط مباخر العود والعنبر وصحائف الفضة والذهب الأندلسية والتركية والهندية.

ولكن هذا الجهاز الضخم مالبث أن انهار بعد أن تطاحن أبناء المنصور لاعتلاء أريكة العرش وتجدد انقسام الدولة إلى مملكتي فاس ومراكش وانبرى أمراء الطوائف لتجزئة المغرب إلى إقطاعيات فظهر أبو محلي في سجلماسة ودرعة وهزم جيوش زيدان واحتل مراكش فاستنجد الأمير بأبي زكرياء يحي الحاحي الفقيه الشاعر وهو شيخ زاوية بالأطلس الكبير فالتحم الطرفان في كيليز (1022 هـ) ومات أبو محلي فاسحا الميدان لعودة زيدان إلى العاصمة وكان الأسطول الأسباني قد أضاف إلى العرائش المعمورة (المهدية) في نفس الفترة (1023 هـ) (2).

وهنا انبرى العياشي ففر من أزمور حيث كادت تحيط به عصابة زيدان بعد إثخانه ضد الجديدة ثم حارب أسبان المعمورة فدس زيدان من يقتله من أشياخ الأندلس وتوالت الدسائس فانتفض أندلسيو سلا على زيدان وقتلوا قائده عجيبا وأدلهم الجو في خضم من الفوضى والنهب.

وتدخل الدلائيون : وهم من برابرة (مجاط) الصنهاجيين أسس جدهم أبو بكر تلميذ أبي عمرو القسطلي زاوية بالدلاء شرقي الخنيفرة بآيت إسحاق فأصبحت مركز إشعاع علمي وملجأ يأوي إليه الأعلام وخلفه نجله العالم محمد الذي التف حوله برابرة الأطلس الأوسط، وعند وفاته (1046 هـ) أصبح ولده محمد الحاج زعيما سياسيا مالبث أن زحف نحو الغرب فاحتل مكناسة (1050 هـ) ثم فاسا بعد مقتل العياشي وانضمام سهول الملوية وقد عجز محمد الشيخ عن إيقاف هذا التيار الجارف فسالم الدلائيين لمواجهة خطر جديد انبثق هذه المرة

---

1) راجع (النفحة المسكية في السفارة التركية) للتامجروتي.
2) حسب (زهرة الشماريخ) و(نشر المثاني).

من صحراء سجلماسة، حيث انبرى أبو الحسن أو أبو حسون بودميعة (علي بن محمد بن محمد نجل الصوفي أحمد بن موسى السملالي) وامتد نفوذه بعد موت زيدان إلى درعة وسجلماسة حيث استمر حكمه إلى قيام العلويين.

وبينما كان الزيدانيون في الاحتضار محاطين بإمارات طرقية مستقلة أقرت وجودها بتزعم حركة الجهاد كانت أفواج المهاجرين تتوارد بعد أن طردت اسبانيا نصف مليون من المسلمين واليهود وكان فوج مرسية هو آخر من شملته قرارات النفي العام أواخر أيام المولى زيدان (1609 ـ 1614 م) وكان التعلق بالإسلام ولغة القرآن والثقافة العربية السمة البارزة عند رجال المهاجر الذين استقروا بتطوان والشاون ومصب أبي رقراق فاصبحوا حربا على قوات الصليب وقراصنة البحار وأقاموا دواوين كانت لها سياستها الخارجية المستقلة ضمن كيان المغرب المنهار وقد استوطن قصبة الودايا أول الأمر أندلسيون انحدروا تلقائيا من مدينة (هورناشو) الواقعة قرب (ماردة) ثم التحقت بهم بعد سنة فلول من مدن الأندلس السفلى فاستقروا برباط الفتح أو سلا الحديثة داخل سور يقطع السور الموحدي عموديا من الجنوب إلى الوادي بأبراجه وأبوابه (شالة ـ البويبة ـ التبن) وأشرفت القصبة على المجموع في جهاز يدير دفته رئيس ديوان ومقدمان.

وكان للفوضى والاختلال الناتجين عن تسرب البرتغال إلى السواحل المغربية أثر في تضعضع الاقتصاد وانهيار الفلاحة غير أن انتصار المغرب في معركة (وادي المخازن) وفتح السودان مالبثا أن جلبا لصندوق الدولة مبالغ ذهبية وافرة عززت موارد المحتكرات الصناعية ومزارع قصب السكر وأصبح للدينار نفاق في السوق العالمية رغم انخفاض وزنه الذهبي إلى 3،548 غرام وقد تهافت المضاربون من الأنجليز على هذه العملة القوية فروجوا منتجاتهم كبديل للذهب الخالص والسكر والجلود وملح البارود والزيتون وكذلك الهولنديون الذين كانوا يقتنون من المغرب الأصباغ والنحاس علاوة على السكر والجلود وبلغ ثراء المنصور الذهبي مبلغا حذاه إلى أن يقترح على هولندا قرضا قدره مليون ونصف مليون دينار (3) (هو 18 مليون فرنك بصرف ذلك العصر) وقد وجه المولى زيدان إلى أوربا عملاء داعين لمنتجات المغرب وسوائمه ومعادنه (النحاس والرصاص والقصدير والحديد والكبريت) حاميا في نفس الوقت الصناعة الوطنية من المزاحمة الأجنبية حيث حظر توريد بعض المنسوجات الأنجليزية وازدهرت كذلك المبادلات الداخلية بين الشمال الذي كان ينتج الكتان والزيوت والخزف ومواد الخياطة والحبوب الذي غمر السوق بمواده الخام وقد شوهدت قوافل الجمال (مابين 1000 و1500 جمل) تعبر يوميا وادي أبي رقراق تحمل قموح الغرب إلى الجنوب (4) وقد وصف الحسن بن محمد الوزان مظاهر الاقتصاد المغربي في هذا العصر (5)، فأكد أن الصناعة ازدهرت في خمس مناطق (فاس والريف والهبط وهسكورة وتادلا والسوس والصحراء) حيث توافر الصوف والحرائر والأسلحة والسكاكين والسيوف ومنتجات الخشب والخزف والصابون والقنب والكتان والقطن والجلود والأحذية والأواني النحاسية والتوابل.

وكانت فاس المركز الأول للصناعة التقليدية المغربية الأندلسية (520 معملا للنسيج و360 مطحنة الخ).

وقد فرض السعديون علاوة على الأعشار والزكوات جزية جماعية حيث كان يهود فاس مثلا يؤدون أربعمائة دوكا شهريا (الدوكا كانت تساوي بصرف القرن الماضي سبعة فرنكات ونيفا) كما وظفوا ضرائب على الفنادق والمساجين والكانون والخراج البدوي وهو الزويجة وكانت عبارة عن مساحة من الأرض يمكن قلبها بزوج من البقر مدة يوم واحد أي معدل ثمانية هكتارات أما المدن فكانت تؤدي ضرائب غير مباشرة تعرف بالمستفاد وقد جدد المنصور بيع الكبريت والفولاذ والتبغ الذي دخل إلى المغرب عام الفيل (1007 هـ) فرض تعاريف جمركية على السكر والفضة والذهب كما احتكر معدل المداخيل السنوية وهو 300.000 دوكة (6).

واقتبس السعديون من العثمانيين نظامهم العسكري وأزياءهم وكثيرا من مصطلحاتهم وأسند المنصور إلى ضباط

---

3) وثائق دوكاستر ج 1 ص 528 كما أسلف (الدون انطونيو) المرشح لعرش البرتغال 400.000 جنيه مقابل استرهان نجله (كريستوف).

4) كايي Caillé في تاريخ الرباط ص 54.

5) المغرب في السنوات الأولى للقرن السادس عشر ـ طبعة 1906.

6) راجع كتاب «مظاهر الحضارة المغربية ج 1 ص 78».

أتراك تدريب العلوج والأندلسيين والعبيد الذين ضخم بهم جيشه بعد احتلال السودان وأسندت قيادة قبائل الجيش (الكَيش) إلى باشوات وقد بلغ عدد جنود فاس في عهد المنصور 22.000 من بينهم 4.000 مخازنية (كلهم بأكسية الملف والحرير والكتان) وفرسان مراكش اثني عشر ألفا (7) والسلطان مولاي عبد الله هو الذي أدرج الأندلسيين في ديوان الجيش في حين أدخل المعتصم أهل فاس.

وأثرت الدولة بما دره عليها احتلال السودان وافتكاك الأسرى البرتغاليين فاتجهت نحو بناء مؤسسات معمارية كقصر البديع للحصول على مأثرة وشفوف على المرابطين والموحدين وقد استغرق العمل فيه ما بين 986 هـ و1002 هـ وجلب السلطان الصناع الإفرنج والرخام من بلاد الروم فكان يشتريه منهم بالسكر وزنا بوزن وكان هذا القصر عبارة عن دار مربعة الشكل في كل جهة منها قبة رائعة تحف بها مصانع وقصور ودور فيها الرخام المجزع والمرمر الأبيض والأسود والزليج المتنوع التلوين مع بديع النقش وقد هدم المولى إسماعيل ـ على ما قيل ـ هذا القصر عام 1119 هـ «ولم يبق بلد ـ كما يقول اليفرني ـ من بلاد المغرب إلا ودخله شيء من أنقاض البديع».

وهكذا تجلى العهد السعدي كفترة عابرة عرف المغرب أثناءها وتحت راية المنصور نوعا من الازدهار والاستقرار ولكنه مالبث أن عاودته الفوضى العارمة التي هزت كيانه في عهد الوطاسيين وانضمت إلى الأعراب عناصر جديدة كالأتراك والزنوج أصبحت عامل تشغيب علاوة على رجال المهاجر من الأندلسيين الذين كونوا أسطولا قرصنيا وأقاموا جمهوريات حرة مضاعفين مظاهر الخلل والانحلال التي هب الصوفية لاستئصالها فأحالوا المغرب إلى إمارات أشبه بما عرفته الأندلس تحت حكم ملوك الطوائف ولكن المغرب استطاع أن يعيش رغم هذه الأزمات على أنقاض ماضيه المجيد وأن يضمن سيادته وكيانه في بحبوحة الفوضى.

ثم جاء الملوك العلويون وهم من أصل حسني انحدروا إلى المغرب من ينبع النخل بالحجاز، وأول من دخل منهم إلى المغرب هو حسن بن قاسم أواخر القرن السابع. وأول قائد سياسي من حفدة حسن بن قاسم هو مولاي علي الشريف الذي أقام بفاس وجاهد في السودان والأندلس وترك في هذه ذكرا طيبا حذا الكثير من الغرناطيين إلى الرغبة في مبايعته والمولى الشريف بن علي هو الذي دعا أبا حسون السملالي إلى إمارة سجلماسة عام 1041 هـ بالإضافة إلى درعة والسوس وقد توفي المولى علي الشريف سنة 1069 هـ فأعاد ولده محمد الكرة على شمال المغرب وكانت هذه الحركات العلوية التحريرية غير منظمة فانبرى مولاي الرشيد على إثر انحيازه عن أخيه يوطد دعائم الدولة الجديدة وكانت الظروف مواتية لأن سلطة الأمراء الإقليميين أذنت بالأفول وأصبح المغرب في حاجة إلى انتفاضة يتزعمها قائد حربي وهكذا انهار السعديون في مراكش فخلفهم (كروم الحاج) الذي مد شبكته من الأطلس الكبير إلى أم الربيع وكان باقي المغرب موزعا بين نجل أبي حسون بسوس والأطلس الصغير والدلائيين بقلب البلاد وغيلان بالهبط والغرب والشيخ عبد الله أعراس بالريف وتمخض هذا التقسيم عن خلل في الاقتصاد وتفكك في السياسة وانحلال في الحقل الاجتماعي فكان الشعب عن بكرة أبيه مستعدا للانضواء تحت راية زعيم مقدام يوحد الاتجاه ويستأصل الفوضى وهكذا لم تكد تمضي سنوات معدودات على ظهور المولى الرشيد على المسرح السياسي حتى أصبح سيد البلاد غير منازع ووحد الأقاليم التي فرقت بينها إمارات جهوية جعلت من المغرب صورة لعصر ملوك الطوائف بالأندلس، وقد كان عامل الوحدة في كل من (الفردوس المفقود) والمغرب في القرنين الخامس والحادي عشر الهجريين أمير مغربي جريء وفي السنة التي توفي فيها المولى الرشيد (1082 هـ) كان يواصل نشاطه لاستكمال وحدة البلاد وتحريرها. وكانت سنوات ملك هذا الشاب ـ رغم قلتها ـ حافلة بالمبرات فهو إلى جانب نظمه لما انتثر من عقد الدولة ركز مظاهر العمران وآثار الأمن والرخاء رغم بعض الانتفاضات الدورية كما شجع العلم والعلماء وكابد الأمرين من دسائس الفرنسيين والأنجليز بالشمال وكان البريطانيون قد استقروا بطنجة بعد أن زوج (اخوان السادس) أخته لكاركوس الثاني ملك الأنجليز وجهز إليه العروس بمفاتيح طنجة مما حذا فرنسا آنذاك إلى التفكير في احتلال بعض المراكز المغربية في ساحل الريف ولكنها لم تفعل حيث اقتصر بعض تجارها على طلب تأسيس شركة في الحسيمة فرفض الأمير هذا المقترح رغم وعود (رولان فريجوس (R. Fréjus)

7) تاريخ الدولة السعدية (ص 38 ـ 48 ـ 53 ـ 74).

بإمداده بالعتاد الحربي كما رفض التفاوض مع الهولنديين لأنه كان يهدف لإقصاء الأجانب مهما كلف ذلك من ثمن، وكانت اتفاقات بعض الملوك السعديين مع الدول المسيحية قد خلفت ذكريات مؤلمة لم تزل عالقة بنفوس الشعب وهذا ما حذا المولى الرشيد إلى عدم استئصال أساطيل القرصنة بمصب أبي رقراق لأنها كانت تشكل حاجزا دفاعيا ضد المغير الأوربي الذي بدأ يتعلل بأبسط الأسباب للتدخل في المغرب، وكان هذا الأسطول يقض مضاجع الغربيين الذين انبثوا على الساحل : الأنجليز في طنجة، والبرتغاليون في البريجة (الجديدة)، والأسبان في المعمورة (مهدية) وأصيلا والعرائش بينما طفق الفرنسيون يمخرون بسفنهم الحربية على طول المراسي بين الريف ومصب الملوية عباب البحر الأبيض المتوسط حيث حصن الرشيد مرسى الحسيمة أو المزمة وحجرة نكور (مركز أول دولة عربية بالمغرب في القرن الأول للهجرة) وصارع الأنجليز الذين كانوا يعملون من وراء الخضر غيلان واضعا بذلك اللبنات الأولى لتحرير الوطن بكامله من ربقة الاستعمار الغربي الناشيء.

وعندما توفي المولى الرشيد كان مولاي إسماعيل خليفة في مكناس حيث بايعه سكانها مع قبائل الغرب ولم يكن عمر الأمير الشاب ينيف بكثير عن ربع قرن (26 سنة). ومرت ستة أعوام (1083 ـ 1089 هـ) كابد الأمير خلالها ضروبا من الأزمات وألوانا من المحن من جراء الانتفاضات المختلفة التي كادت تطيح بالمملكة الجديدة ولم تحل تهدئة هذه التمردات العارضة دون مواصلة توطيد دعائم الدولة بتعزيز الجيش الوطني وتركيز المقومات العمومية وضمان تحرير المناطق المغربية التي يحتلها الأجانب.

وقد أقام المولى إسماعيل بالنقط الاستراتيجية معاقل (قصابي)ترابط فيها حاميات يتراوح أفرادها بين 4000 و3000 وتمتد من تازة إلى وجدة ومن مكناس إلى فاس ومن هذين إلى مراكش وتافيلالت ثم تارودانت وتمدها القبائل بالمؤن وقد أحصي من هذه الحصون 76 في غربي البلاد وشمالي الأطلسي على الخصوص. وآلى المولى إسماعيل على نفسه أن يحرر من ربقة البرتغاليين والأسبان جميع المراكز التي كانوا يرابطون فيها بالسواحل المغربية مع مواصلة الضرب على أيدي الثوار والوالغين في الماء العكر؛ وهكذا حرر المهدية التي استمر الأسبان في احتلالها نحوا من سبعين سنة (1092 هـ) وأسر كثيرا من رجالها وأنزل بها حامية من أهل سوس وفتح في أسوار القلعة البرتغالية بابا من جهة البر مع مسجد وقصر لوالي الحامية.

وبعد ذلك بثلاث سنوات (1095 هـ) توجه الجيش إلى الشمال لفتح طنجة فحاصرها واضطر الأنجليز إلى الجلاء عنها بعد أن هدموا جانبا من أسوارها وأبراجها، وبعد خمسة أعوام (1101 هـ) حوصرت العرائش طوال بضعة أشهر فاستسلم الأسبان تحت تأثير الألغام المغربية التي أحدثت ثغرات في الأسوار وعددهم نيف وثلاثة آلاف نقل معظمهم إلى مكناس حيث شاركوا في بناء (قصر الرياض) وبعدما استقرت الحامية الريفية في العرائش حاصر المجاهدون أصيلا سنة كاملة فلم ير حماتها بدا من الجلاء عنها بحرا، وكان التحرير مرفقا بالتعمير حيث تقام المساجد والمدارس والحمامات والمرافق الحيوية الأخرى.

وقد ظل البرتغاليون مرابطين في (الجديدة) بينما استمر احتلال الأسبان لسبتة رغم محاصرة السلطان لها بجيش عتيد عدة سنوات وكذلك مليلية والحسيمة وبادس (8) لأن معظم الجيوش كانت منهمكة في توطيد دعائم الدولة وتأمين البلاد، وقد قضى المولى إسماعيل نحوا من ربع قرن في هذه الحملات أصبح المغرب بعدها موحدا وامتدت رقعته إلى مجاهل الصحراء وأخصب مناطق السودان حيث لم يسبق للمنصور السعدي نفسه أن وصل واعترف الشعب عن بكرة أبيه بأن له ملكا واحدا ـ كما يقول أندري جوليان ـ وهكذا استغرق المولى إسماعيل أزيد من ربع قرن (1083 ـ 1111 هـ) في النضال الدائب لجمع شتات الأقاليم الموزعة بين الأدعياء وتحرير بعض المراكز المحتلة من طرف الغربيين ولولا ازدواج الجبهتين الداخلية والخارجية لاستطاع أن يحرر ما بقي من مدن ساحلية في قبضة الأجانب.

---

8) في (المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر اسماعيل بن الشريف) للمرحوم ابن زيدان ضمن الباب السابع أن الجيش الإسماعيلي فتح بادس وهدم حصنها سنة 1113 هـ.

وكانت مكناس كرسي الوزارة في عهد المرينيين فاختارها المولى إسماعيل حاضرة لملكه نظرا لطيب التربة وعذوبة الماء وصحة الهواء وسلامة المختزن من التعفين (9) وكانت المدينة زاهرة بالمساجد والمدارس والزوايا فأضاف إليها الأمير الجديد بجنوب المدينة قصورا جلب لتخطيطها صناع المملكة والأسرى الأوربيين.

وكان الأمير في تخطيطاته المعمارية رائعا منطقي التوزيع عرف كيف يصمم مواقع الجيش ومرابض الشعب واجنحة الوزراء في بحبوحة متناسقة الأجزاء مستمدا العناصر الفنية من الهيكل الأندلسي المغربي وإن كانت قد أفرغت في قالب يقل روعة عن كثير من منجزات العهود السالفة.

وقد عاش الأمير سبعا وخمسين سنة حقق خلالها المعجزات فلم شتات المغرب ومحق الأدعياء ودعم حركة التحرير ونشر الأمن والطمأنينة، غير أنه لم يستأصل جذور الداء فتعرض المغرب بعد وفاته (28 رجب 1139 هـ) إلى طفرات ثورية تمخضت عن سلسلة من القلاقل بسبب تدخل العبيد في قضايا العرش، وكان المولى إسماعيل قد اختار أخف الضررين بعدم تأكيد تعيين ولي للعهد، ولكنه فتح بذلك باب الفوضى على مصراعيه.

استمرت القلاقل بتوالي ثلة من الأمراء على العرش الذي اعتلاه المولى عبد الله ست مرات فعاد العبيد مرارا إلى التشغيب مواصلين إثارة الفتن بدوافع مادية فما عجز سلطان عن إشباع نهمهم إلا عمدوا إلى خلعه، وكان الشعب يعيش في سلك جهنمي بين أطماع هؤلاء الدخلاء من الزنوج (10) وبين أدعياء الملك الذين ينساقون وراء المشاغبين لاعتلاء أريكة العرش ولاشك أن هذه الفوضى تتمخض عن خلل اقتصادي بسبب قلة المحاصيل وشيوع الاحتكار وارتفاع أسعار المواد الحيوية وكانت تنضاف أحيانا إلى عوامل الفتن عناصر الطبيعة كالجفاف فيشتد الكرب وتنهال النكبات وقد تغزر المحاصيل والأقوات في أقاليم أخرى ولكن عسر المواصلات واضطراب الأمن الناتج عن القلاقل كانا يسفران غالبا عن أزمات جهوية قاتلة.

تلك هي الحوافز الجوهرية التي فتحت المجال لتعاقب الأدعياء أمثال محمد بن عربية، والمستضيء، وزين العابدين علاوة على مولاي عبد الله الذي كان يتأرجح بين النصر والهزيمة.

وفي عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1171 هـ - 1204 هـ) عرف المغرب شيئا غير قليل من الاستقرار وما يستتبعه من ازدهار فقد تمكنت البلاد من تركيز وحدتها وتحرير عدد من المراكز الأجنبية في ربوعها، وقامت جيوشها وأساطيلها حاجزا منيعا في وجه الغزو الأجنبي، على أن أوربا كانت خلال الفترة التي تقرب من ثلاثة أرباع قرن في فورة من النزاعات والحروب بين دولها زادها اشتداد انبثاق عهد الاستعمار الجديد حيث اتجهت أنظار الغربيين إلى آسيا وخيراتها فبدأ الصراع العنيف والتسابق نحو احتلال جزر الشرق الأقصى وتعزيز الصناعة الأوربية بموادها الأولية وكانت الأمبراطورية العثمانية آنذاك في طريق الأفول فتقلصت بذلك المعارك الدامية بين الإسلام والنصرانية التي استقرت منذ العهود الصليبية وخلفتها قرصنة الجمهوريات القائمة على سواحل البحر المتوسط في الأقطار الإسلامية والنصرانية مما حدا مؤتمرات الحلف المقدس إلى التضافر ضد الأساطيل القرصنية والتركية.

وهكذا استطاع المغرب بفضل الدعة والهدوء، استكمال صرح الدولة وتعزيز المرافق الاجتماعية والاقتصادية الوطنية وعقد الأوفاق التجارية ومعاهدات الصداقة مع أوربا والأقطار الإسلامية فلم يعد هنالك احتكاك حدودي بين المغرب وأتراك الجزائر حيث توطدت الروابط الودية وانتظمت سياسة جديدة في الداخل والخارج كللت أحيانا بكثير من التوفيق.

وقد عمد السلطان محمد بن عبد الله إلى تنمية موارد الدولة بتعزيز الجبايات الموظفة على الأسواق بعد أن استفتى الفقهاء في شرعية هذه المكوس التي كانت مضروبة على الموازين والسلع والغلات وقد عرف المغرب في هذه الفترة عهد رفاهية وسلام إذ بلغ دخل المكوس بفاس وحدها على ما

---

9) الاستقصا (ج 4 ص 23).

10) لاحظ صاحب الاستقصاء أن النكبات التي نزلت بالمغرب في هذه الفترة هي بسبب «استيلاء العبيد على الدولة وشؤم افتتانهم عليها وتحكمهم فيها» (3 ص 68).

قيل 500 ألف مثقال أي مليونين ونصف مليون فرنك بصرف ذلك الوقت (11) ونشط السلطان الحركة الاقتصادية في كل من الجديدة والصويرة حيث جلب تجار المسيحيين وأسقط عنهم الجبايات مؤقتا ريثا تركزت فيها المبادلات بين الداخل والخارج.

وفي سنة 1173 هـ حاول السلطان إعادة تنظيم الجيش وتعزيزه بعناصر جديدة سجلت في (ديوان الجيش) بمكناس فأضاف إلى العبيد (الحراطين) المستقدمين من الصحراء. وقد عزز الثغور بحاميات قوامها 16.500 جندي وزع عليهم عام 1200 هـ ثلاثة ملايين مثقال كراتب مسبق لخمس عشرة سنة وأقام الأبراج في المراسي وكون أسطولا جدد به العهد السالف ولكنه اصطدم بمصاعب في تجهيزه وإن كان قد استطاع جلب بعض المواد من أنجلترا والسويد وتركيا (12) فعزز حماية المياه الإقليمية علاوة على المراكب القرصانية بخمسين سفينة منها ثلاثون فركطة تحتوي على 60 قائدا وخمسة آلاف بحار وألفين من الرماة (الطبجية) و15.000 من العبيد و7.000 من الرجالة الأحرار ومثلها من الغرب و8.000 من الحوز.

وكان الأسطول القرصني يمخر عباب المحيط ويغير على الثغور الأوربية ويقتنص المراكب الأجنبية التي لم تكن تتردد هي الأخرى في السلب والسبي والأسر في عرض البحار وكان السلطان محمد بن عبد الله ميالا إلى المهادنة إلا أن دسائس بعض دول أوربا اللاتينية حدته إلى التحالف مع أمم بروتستانتية انجلترا والسويد والدنمارك التي عقد معها معاهدات تجارة وصداقة كما عقد معاهدة تجارة وملاحة لمدة خمسين سنة مع الولايات المتحدة (16 يوليوز 1786 جددت عام 1836) وقد شعر الأمير باستراتيجية مرافىء الأطلنطيق فعزز تحصينها وبنى الأبراج ونقل إليها المدافع والمهاريس من المدن الداخلية توطيدا لسياسته التحريرية، ولم يال جهدا في إقامة سياسته الخارجية على عنصرين اثنين : تحرير البلاد وتعزيز الروابط الودية مع العالم الإسلامي ولذلك توالت سفاراته إلى الأستانة تبودلت أثناءها النفائس مع الباب العالي، كما عمد إلى تقوية علاقاته الودية مع دول أوربا (13) مثل الدنمارك التي إلتزمت بدفع إتاوة (14) للمغرب قدرها خمسة وعشرون مدفعا و6.500 ريال والسويد التي تعهدت بتقديم 20.000 ريال سنويا وقد تمت تصفية الشركة التجارية الدنماركية.

وعرف السلطان كيف يركز سياسته الخارجية على متناقضات قوامها الجهاد لتحرير الثغور والأسرى وتطوير الاقتصاد وتنمية الموارد الوطنية بالاهتمام بالمبادلات التجارية مع أوربا التي عقد معها اتفاقات ومعاهدات مختلفة وقد اشاد المؤرخ والقانوني الفرنسي (جاك كايي) (J. Caillé) بالروح الدولية التي كانت تذكي السلطان لما كان يبديه أحيانا من آراء سبق بها ماعرفته أوربا في العصر الحاضر إذ لم ينس السلطان في اتفاقاته البنود المتعلقة بالسلم والحرب والحصانات الدبلوماسية واعترف للأجانب بحق ممارسة الديانة المسيحية وحرية التجول والملاحة في المياه المغربية بشروط دقيقة برهنت عن إدراكه العميق لمقومات القانون الدولي وعن مدى إسهام المغرب في دعم التشريعات التي تعتبر أساسا للعلائق الدولية في القرن العشرين.

وقد تبلورت هذه العلائق إما في مجرد اتفاقات وإما في معاهدات واقتراحات وتصريحات ملكية ومواثيق عقود إلحاقية تنضم بموجبها دولة أجنبية إلى معاهدة مبرمة بين المغرب ودولة ما ومرسوم ملكي (يخول بعض الدول صلاحيات خاصة) وأمر السلطان (كالأمر المتعلق بالتجارة الخارجية في ميناء طنجة) ورسائل ملكية (كالرسالة التي منحت هولندا حق احتكار التجارة في مرسى العرائش).

وهكذا نهج السلطان في الداخل والخارج سياسة موفقة تألف بها القلوب ووطد دعائم الدولة ولم يفته دعم النشاط الثقافي بتشجيع العلماء وبناء نحو 30 مدرسة بالحواضر والبوادي وجلب المؤلفات من الشرق والإسهام شخصيا في حركة التأليف والتكوين العلمي فحفظ أشعار العرب مع صحاح الحديث وأمهات الكتب تركيزا للملكة العلمية بدلا من الانكباب على المختصرات التي تحجر الفكر.

11) سوردون Surdon في كتاب (افريقيا الشمالية ص 241).

12) بعث السلطان سفيرين إلى الأستانة لدى السلطان مصطفى العثماني كما وجه عام 1177 هـ التهامي المدور سفيرا إلى السويد لجلب مواد صنع المراكب والبارود وأوفد إلى انجلترا سفيره محمد المستري لإصلاح السفن وشراء المواد البحرية ومدافع نحاسية (الاستقصا ج 4 ص 98).

13) نشر المؤرخ كايي Caillé كتابا ضمنه مجموعة المعاهدات والوثائق التي أبرمها سيدي محمد بن عبد الله مع دول أوربا.

14) اضطرت كثير من الدول أو الحواضر إلى خطب ود المغرب والتعاقد معه أو أداء جزية سنوية له مثل هامبورغ وبريم بألمانيا علاوة على الدنمارك والسويد.

وكان من دعاة السلفية التي تستمد من الكتاب والسنة تلك الإشراقة اللامعة التي تطبع الروح الإسلامية ببساطتها ونصاعتها وصفائها.

أما المولى سليمان فقد استغرق على أريكة العرش نيفا وثلاثين سنة لم يثر خلالها أي مشكل خارجي مع أوربا وقد عزز علاقاته الودية مع الأتراك ومع صاحب تونس (حمود باشا علي) الذي أوفد شيخ الإسلام سيدي إبراهيم الرياحي مبعوثا إلى السلطان يطلب إمداد الإيالة التونسية بالأغذية نظرا للمجاعة الطارئة فأسعفه بذلك.

وقد عقد الأمير مع الأسبان مهادنة كانت أكثر تسامحا من الاتفاقية المبرمة بين اسبانيا وسيدي محمد بن عبد الله ولكن رغم هذه الروح الطيبة تحالفت الدول الأوربية ضد السلطان بدعوى محاربة القرصنة المغربية وقضت على القرصان في تونس وطرابلس بينما انهزمت بالجزائر (1231 هـ) وتعهد المولى سليمان للويز الثامن عشر باستئصال القرصنة وقد ضغط عليه نابليون للانضمام إلى ما كان يسمى إذ ذاك بكتلة الحصار البري (Bloc Continental) وهي الحركة التي هدف بها الأمبراطور الفرنسي عام 1806 م إلى إقفال جميع الموانيء في وجه (انجلترا) وقد هدد نابليون ملك المغرب في رسائل شديدة اللهجة باكتساح إفريقيا بمائتي ألف جندي ولكن المولى سليمان قابل ذلك بالرفض والبرود غير أن المؤامرات الأوربية استفحلت وتمخضت في نهاية الأمر عن إجبار السلطان على التجرد من أسطوله الذي كان يحتوي إذ ذاك على 47 قطعة مجهزة بمدافع وبستة آلاف من البحارة المهرة (15) كما اضطر السلطان إلى السماح بتصدير الحبوب إلى أوربا بعد أن حارب على ذلك قبائل الريف (1227 هـ).

وعمد السلطان إلى تركيز نظام الدولة على دعائم شرعية فأسقط مكوس الأبواب والأسواق (16) واكتفى بالزكوات وأعشار المراسي المتخلصة من التجار الغربيين واليهود ويظهر أن التخفيف من الجبايات الاقتصادية ساعد على نمو النشاط الفلاحي فقوي الإنتاج وتضخمت الماشية إذا اعتبرنا المظهر المادي لهذه النهضة الاقتصادية وهو النصاب الجبائي الموظف على المنتجين برسم الزكاة الشرعية الذي تزايد بثلاثة أضعافه.

وكانت له عناية زائدة بالعلم والعلماء حتى تنافس الشعب في طلب العلم لما كان يحظى به أهله من نوال فياض وكان يضرب المثل الصالح بمعارفه الواسعة وبسياسة التقشف بمرتبه البسيط وأجور كتابه الزهيدة وقد استطاع بمرونته ودعته أن يحقق توازنا موصولا بين العناصر المتنافرة في المجتمع المغربي وأن يحتفظ بعلائقه الطيبة مع الخارج رغم تحرشات الغربيين والواقع أن قيمة بعض ملوكنا لا يمكن أن تقاس بمقياسها الحقيقي إلا إذا قورنت بسيرة ملوك معاصرين في أقطار أخرى (17).

وكان إيفاد ولده إبراهيم إلى الشرق فرصة جدد فيها روابط المغرب الوثيقة بالحجاز ومصر والشام والعراق حيث وزعت أموال طائلة برسم المساعدة الاجتماعية وقد صاحب الأمير وفد من علماء المغرب ناظروا بعض زملائهم الوهابيين بالحرمين وكتب المولى سليمان رسالة نحا فيها منحى السلفية الصحيحة بالتحذير من الحياد عن المذهب السني وعدم التغالي في المراسم الصوفية.

وقد ازدانت حركته المعمارية ببناء مساجد ومدارس وقناطر وأسوار ومد الطرق وتعزيز القلاع وتجديد القصور مما أضفى على الفن رونقه التقليدي الأندلسي المغربي.

وهنا استقرت فرنسا في عاصمة الجزائر آخر محرم 1246 هـ (5 يوليوز 1830) فبدأ انهيار الحكم التركي ولم تتجاوز الفيالق الفرنسية أول الأمر السواحل فأجمع أهل تلمسان على مبايعة المولى عبد الرحمن ووجهوا له وفدا بذلك فتردد ونصحه معظم علماء فاس بعدم القبول لارتباط الجزائر بالخلافة العثمانية ولكن التلمسانيين ألحوا فقبل السلطان بيعتهم ويظهر أن الجند الملكي توغل في الجزائر إذ وصل إلى مليانة والمدية مما حذا الدوق دو رڤيكو Le Duc de Rovigo خليفة المريشال (كلوزيل) الفرنسي إلى الاحتجاج لدى السلطان وكان الفرنسيون قد حاولوا السيطرة على الإيالة الجزائرية بعد تنحية الأتراك وذلك بواسطة صنائع من

15) كودار ص 156.

16) كانت هذه الجبايات مضروبة على السلع والغلل والجلود والتبغ أي عشبة الدخان وكانت تدر نحو نصف مليون مثقال أي ما يكفي لتسديد نفقات الجيش واللائحة المدنية السلطانية (الإستقصا ج 4 ص 16).

17) وقد لاحظ الزياني في البستان هذه الحقيقة.

الدايات في المدية وقسطنطينة ووهران ثم مد الفرنسيون شبكة نفوذهم في السواحل بعنابة وبجاية ومستغانم فانبرى قادة وطنيون ضد المغير مثل الباي أحمد في قسنطينة وعبد القادر بن محي الدين في ناحية معسكر وقد زحف هذا الأخير على وهران فأوقع بالفرنسيين معززا ببني عامر الذين التفوا حوله وتناقل نبأ انتصاره إلى أهل تلمسان فانضموا إليه وأظهر الأمير انقياده للسلطان المولى عبد الرحمن خاطبا به على المنابر فأمده هذا بالخيل والعتاد ودارت معارك طاحنة بين الأمير الجزائري والجيش الفرنسي كان الانتصار سجالا حول تلمسان وواصل المغيرون زحفهم فاحتلوا إقليم قسطنطينة ووطدوا الجيش الإفريقي على يد الوالي العام بوجو Bugeaud الذي شكل فرقا متنقلة أنهكت القبائل بغاراتها ولم تكد تبزغ سنة 1275 هـ حتى تم استيلاء فرنسا على مجموع الإيالة فصار الأمير يتنقل في أطراف الصحراء إلى أن اضطر إلى الانحياز للتراب المغربي بوجدة والريف وقد وجد استجابة من الشعب المغربي وملكه للمشاركة الفعالة في الجهاد ضد المغير وتعللت فرنسا بهذه الإمدادات فشنت غارات متوالية على عمالة وجدة وعاثت في الحدود فهاجم الجيش السلطاني كتيبة استطلاعية فرنسية ولكن (بوجو) حاول التفاوض مع قائد وجدة رعيا لأنجلترا مقتصرا على المطالبة بطرد الأمير عبد القادر وضبط الحدود المغربية الجزائرية في (تفنة) فقابل السلطان ذلك بالرفض وبادر (بوجو) بالدخول إلى وجدة فانبرت كتيبة بإمرة ابن عم السلطان المولى المامون وأجلت الفرنسيين فارتدوا نحو (مغنية) واستنفر السلطان جيشا بقيادة ولده المولى محمد وكان الأسطول الفرنسي قد نقل الرعايا الفرنسيين المرابطين بالثغور وطفق يقنبل طنجة والصويرة ثم تقدم بوجو فاصطدم بالجيش قرب (وادي إيسلي) صباح منتصف شعبان عام 1260 هـ (13 غشت 1844) فالتحم الفريقان (18) وكان السلطان قد غير سحنته في المعمعة فحسب الجند أنه هلك وماج الناس وعمد بعضهم إلى خيل السلطان فانتهبوه وتناحروا على الأسلاب وفر الكثير فاستشعر السلطان بالهول بعد أن تشتت الجيش الذي مني بهزيمة منكرة بعد بضع ساعات بسبب سوء القيادة ورداءة التنظيم وقلة الضباط والجنود المحترفين وأنانية الانتهازيين فتراجع السلطان إلى تازة وعمد إلى جمع شتاته لأن انهزامه في معركة لم يفل من عزمه ويظهر أن انجلترا ضغطت على فرنسا فلم تستغل انتصارها لاقتطاع جزء من المغرب ولكن السلطان اضطر إلى إمضاء معاهدة طنجة في نفس السنة (1260 هـ) أو 10 شتنبر 1844) نفذت بمقتضى معاهدة لالة مغنية (18 شتنبر 1845) فالتزم السلطان بإجلاء الأمير عبد القادر وتقررت الحدود المغربية الجزائرية (19) في خط يمتد من البحر إلى (ثنية ساسي) إلى الأطلس الصحراوي. ومرت ثلاث عشرة سنة استغرقها السلطان في تهدئة البلاد ودعم الثغور وتوفي بمكناسة في 29 محرم 1276 هـ.

وقد ملك هذا الأمير المغرب في فترة عصيبة من تاريخه عرف بحزمه وحكمته كيف ينقذ خلالها الوطن المهدد من كوارث خطيرة كما استطاع بورعه وحلمه أن يكفل استمرار الهدوء النسبي ووحدة البلاد رغم تضافر عناصر الفوضى وتسرب الدخلاء.

وقد تقلص الخلل الاقتصادي بفتح ديوانات في المراسي أغنت عن احتكار التجارة الخارجية وأقدم أمناء لمراقبة المداخيل الجمركية وأصبح المغرب يصدر إلى أوربا فائض منتجاته حيث وجه عام 1260 هـ عن طريق ميناء الصويرة وحدها خمسة وسبعين ألف طن من القموح والقطاني وبلغت قيمة رواج هذا المرفأ التجاري عام 1267 هـ ستة ملايين فرنك.

وفي أواخر عهد المولى عبد الرحمن ازدهرت الصناعة التقليدية وكانت سلا والرباط تحتلان الصف الأول بعد فاس ومراكش من حيث ضخامة الإنتاج (20) وقد توفر المغرب حسب الإحصائيات الصادرة في السنة التي توفي فيها

18) ما بين 30.000 و40.000 من المغاربة وأحد عشر ألفا من الفرنسيين مجهزين بالعتاد ومعززين بحرا بالأسطول.

19) كانت الحدود في عهد الأتراك مغايرة كما يتبين ذلك من خريطة وضعت عام 1256 هـ بأمر من مصطفى ابن إسماعيل الجزائري الذي تزعم قبائل الزمالة والدوائر ووالى الفرنسيين وملكهم البلاد.

20) انتجت مصانع العدوتين في عام واحد 840 زربية صدر ثلثها إلى الخارج و63.000 حايك و460.800 منديل وآلاف الميتار من المنسوجات وكان في مصب أبي رقراق 150 معملا للأحذية و40 دارا للدباغة وعشرة مراكز للصياغة وثلاث دور لضرب السكة تقوم بتذويب تسعة قناطر من المادة الأولية يوميا (مظاهر الحضارة للكاتب ج 2 ص 30).

المولى عبد الرحمن على ثمانية وأربعين مليون رأس من الغنم وستة ملايين من البقر (21) وهذه ثروة اقتصادية لا بأس بها إذا اعتبرنا أن المغرب اجتاز في هذا العصر فترة سياسية عصيبة.

وقد عين السلطان سيدي عبد الرحمن بن هاشم ولده المولى محمدا وليا للعهد، فكان هدوء نسبي يسود المغرب وتضخمت المبادلات التجارية مع أوربا أسفرت عن ارتفاع ثمن العيش وانخفاض قيمة العملة (22) التي عجزت عن منافسة العملة الأوربية حيث غمرت المراكز التجارية بالثغور وراجت المضاربات النقدية بين المغرب وأوربا.

وقد شعرت الأمة بالخطر الذي يهدد الكيان الاقتصادي القومي من جراء حرية التجارة الخارجية وانطلاق التنافس بدون مراقبة ولا حماية للمقومات الوطنية فنشأ عن هذا الخلل تبرم عام ضد الأجنبي لا سيما وأن الأسبان بدأوا آنذاك يبذرون نواة لتوسيع شبكة نفوذهم في الشمال فاحتلوا الجزر الجعفرية وأقاموا الأبنية في الحدود بين سبتة والأنجرة بدل الأكواخ الخشبية فهدمها الجمهور الذي واصل غاراته على سبتة وأهان الراية الأسبانية.

وقد اضطر السلطان إلى طبع سياسة الدولة الخارجية بطابع جديد استجابة للوازم العصر فاتخذ من طنجة عاصمة دبلوماسية استقر بها مندوبو الدول الأوربية وكان المشرف على الدبلوماسية المغربية هو (وزير البحر) الذي كان باشا طنجة يقوم بصلة الوصل بينه وبين السفراء الأوربيين عدا القضايا الهامة التي كانت تقتضي انتقال البعثة الدبلوماسية الأجنبية إلى فاس وقد بدأ المغرب يشعر بضغط أنجلترا التي كانت تقف أحيانا في صف البلاط فتشجعه على الصمود في مواقفه اللهم إلا إذا تواطأت النيابات الأوربية بطنجة.

وقد ظل الفكر العام مع ذلك حذرا من تطور هذه العلائق مع أوربا لأن اعتداءات اسبانيا على التراب المغربي وقبلها فرنسا في قضية الجزائر أذكت حماس الجماهير ضد الوجود الأجنبي بالمغرب لاسيما وأن نمو المبادلات التجارية أدى إلى تضخم الأسعار وإلى أزمة مالية (23).

وقد اهتم سيدي محمد بن عبد الرحمن منذ كان خليفة لوالده بمراكش بالإصلاح الفلاحي فحقق منجزات في الري وأصبحت أراضي الرحامنة في الجنوب حدائق مخضرة وجنانا مزهرة وقد استدعى الأمير الشاب قبل وفاة والده بسبع سنين خبيرا فرنسيا (24) إلى مراكش وكلفه بجلب آلات فلاحية وأدوات علمية، وقد ارتأى قبل معركة (إيسلي) ضرورة محاربة فرنسا بسلاحها واستخدام أحدث الطرق في المناورات العسكرية والعتاد الحربي فأسس فيلقين من ثلاثة آلاف جندي نظامي بقيادة ضباط حاربوا مع عبد القادر في حرب الجزائر وقد اتصل بعلماء بلجيكيين وأسس مراصد فلكية بمراكش وفاس وكانت حاشية الملك منكبة على دراسة العلوم الرياضية وقد أضفى اهتمام الأمير بالفلاحة والعلوم على البلاد طابعا علميا أكثر منه حربيا رغم الظروف القاسية التي عاشها المغرب إذ ذاك على أن الأسبقية أعطيت للإصلاح الزراعي بتجديد حفر القنوات ونقب الآبار على الطريقة العصرية والتفكير في تأسيس مصانع وقد اهتم الأمير كذلك بزراعة قصب السكر وحاول استقدام اختصاصيين مصريين لتصفية هذه المادة في مصنع أكدال بمراكش (25). ولو لم تستعر الحروب مع فرنسا واسبانيا لانبثق عن عهد محمد الرابع ازدهار كان من شأنه أن يغير اتجاه المغرب الحضاري ومكانته الدولية، ولما توفي محمد الرابع خلفه ولي عهده الحسن الأول الذي

---

21) كتاب «قضية المغرب» للسيد (لامارتينيير) الصادر في نفس السنة أي عام 1859 م وقد أكد المؤرخ كودار (ص 188) أن هذه الثروة بلغت حينذاك 40 مليون رأس غنم وما بين 10 و12 مليون معز و6 ملايين رأس بقر و5 ملايين من الجمال والأفراس والحمير والبغال.

22) ظهرت هذه المبادرة منذ سنة 1261 هـ حسب صاحب الإستقصا (ج 4 ص 198) الذي أكد ارتفاع الأسعار على إثر انعقاد الصلح مع فرنسا وإلغاء الجزيات التي كانت تؤديها دول أوربية للمغرب وتهافت السلع على المراسي بسبب تنازل الدولة عن احتكار التجارة الخارجية.

23) هذه الأزمة المالية توازت مع إدخال تعديل جديد على قيمة العملة المغربية عام 1285 هـ واتخاذ مقياس للمعاملات هو المثقال وثمنه عشرة دراهم بالوزن الشرعي لهذا النقد على أساس ما كان تقرر عام 1180 هـ أول الدولة العلوية (الاستقصا ج 4 ص 231).

24) هو القنصل لوكونط دوسكواط الذي حدثنا عن دقة دراية الأمير وحصافة فكره وإلمامه بمعطيات السياسة الأوربية وقيامه بتعريب بعض الكتب العلمية مثل كتب (نيوتن) في علم الفلك على يد ترجمان انجليزي من مالطة اعتنق الإسلام وقد أكد ذلك عام 1871 م وزير فرنسا بطنجة م. طيسو.

وحتى بعد أن اعتلى الأمير أريكة العرش ظل منكبا على دراسة العلوم لا سيما ما يتصل منها بالفنون العسكرية حتى قال كل من (فرانسوا شارل رو) وكذلك (كايي) بأن هذا الملك اخترع مدفعا.

25) الإتحاف لابن زيدان (ج 3 ص 556).

برهن عن شهامة وفضل واتزان وقد عمد الحسن الأول - صونا لحوزة البلاد ووحدتها - إلى تجهيز القبائل بالعتاد العسكري وتكديس الأسلحة المختلفة بفاس وقد سبق لوالده محمد الرابع أن أسس معملا للبارود بمراكش وأقام بأشقار قرب طنجة (برج المنار) لتوجيه السفن المغربية والأجنبية في الأطلنطيك وقد سلك المولى الحسن نهجا مرنا في مدافعة الدول بعضها ببعض وضمان توازن يهدف إلى الحيلولة بينها وبين أي تدخل في شؤون البلاد.

وقد احتفظت انجلترا بامتيازات اقتصادية فنمت مبادلاتها التجارية مع المغرب لاسيما وأنها كانت توالي دفاعها عن كيان المغرب منذ معركة (إيسلي) التي عقبتها احتكاكات مع فرنسا في حدود الجزائر وقد انبثقت أطماع دول أوربية أخرى مثل اسبانيا التي صارت تحلم باحتلال مقاطعات مغربية واستعرت (عام 1310 هـ) معركة عنيفة بين أهل الريف والأسبان من مليلية نظرا لتطاول هؤلاء على مساحات وراء الحدود، وقد عمل البلجيكيون أيضا على إحداث مؤسسات اقتصادية ومولت ألمانيا بعض الرحلات العلمية وكان السلطان ينهج سياسة التدافع بين هذه الدول فيوجه سفراءه إلى فرنسا وأنجلترا وإيطاليا وبلجيكا في مهمة سلمية وقد ورد على السلطان عام 1293 هـ / 1876 م سفراء فرنسا واسبانيا والبرتغال وبدأت فرنسا منذ ذلك العهد تقترح إدخال إصلاحات كالتلغراف والقطار الحديدي وواجهت المملكة المغربية مشكلة عويصة هي مشكلة الحمايات التي كان بعض المغاربة يتوقون إليها للتخلص من نفوذ الولاة وحاول السلطان التخفيف من حدة هذه الحمايات غير أن تضافر الدول الأوربية أضطره إلى الخضوع بمقتضى اتفاقية مدريد (1880 م) وملحق طنجة (1881) إلى إرادة أوربا التي خولت ألمانيا والنمسا وبلجيكا والدنمارك واسبانيا والولايات المتحدة وفرنسا وانجلترا وإيطاليا وهولندا والبرتغال والسويد والنرويج الامتيازات التي لم تكن تتمتع بها سوى فرنسا وانجلترا.

وهكذا بدأت القضية المغربية تتسم بطابع دولي من جراء الصراع الذي تولد عن أطماع الدول الأوربية وقد قاوم الحسن الأول كل التدخلات ودافع بين الدول وتوفي (3 ذي الحجة عام 1311 هـ) وهو في غمرة هذه المعركة التي ضاعفت خطورتها تمردات جهوية كانت تفت في أعضاد الوحدة المغربية.

وبموت الحسن الأول انفتحت ثغرة خطيرة في الكيان المغربي فتحكم الحاجب (أبا حماد بن موسى) في اختيار الأمير الجديد المولى عبد العزيز الذي لم يكن عمره يزيد على ثلاث عشرة سنة (26) وكان لصغر سنه ميالا إلا المرح مما شجع أبا حماد على فرض وصايته على العرش وفصل الأمير الشاب عن الاستعداد لاستلام مقاليد الحكم ولم يتردد أبا حماد في الانتصاب كوزير فاستجاش بذلك المولى محمدا وعم السلطان المولى عمر وآل الجامعي الذين أبعدوا عن الوزارة وصودرت أموالهم وبتنصيب أخويه على الحجابة ووزارة الحرب اكتملت مقومات حكم ضمن ذلك للمغرب السلامة المالية والاستقرار خلال ست سنوات وكان قوام الاستحصاب السياسي هو مفاوضة القبائل ومدافعة الدول الأوربية.

وكان للسلطان ولوع بالإصلاح غير أن صغر سنه جعله ينساق مع التيار الغربي وينهمك في اللعب المجلوبة من أوربا فأحاط نفسه بشرذمة من المغامرين والسماسرة، وقد تمخض تهافت المسيحيين على البلاط عن سريان موجة من الاستياء في نفوس الشعب المحافظ ما فتئت أن استحالت إلى تمرد عارم لاسيما بعد تقرير استغلال الزكوات والأعشار الشرعية باسم الترتيب وتخير الأمناء والعدول لجبايتها وكان القواد في طليعة المتذمرين نظرا للرفد الفادح الذي كانوا يستدرونه من الضرائب بتحديد أجورهم وكذلك بعض القبائل والأشراف الذين لم يعد يشملهم الإعفاء فنتجت عن ذلك فوضى واختلال في عصب الدولة زاده تأزما قيام الجيلالي بن إدريس الزرهوني المعروف ببوحمارة الذي انتحل السحر

26) ويظهر أن الحسن الأول كان قد نحى عن ولاية العرش نجله المولى محمدا وجعل مكانه المولى عبد العزيز.

وتطوف على القبائل بالجزائر وتونس وادعى الشرف وزعم عند أهل غياثة أنه المولى محمد أخو السلطان وأجج الثورة في جبالة وآيت يوسي وكروان وزمور الشلح واتخذ تازة حاضرة لإمارته فاحتل وجدة وضعف المخزن عن قمعه وتحللت دعائم الدولة لاسيما وأن أوربا أصبحت تجني ما زرعه دعاتها من قلاقل فتأزم الوضع الدولي وانفتح ملف القضية المغربية واندس الفرنسيون لتحقيق أحلامهم ببسط نفوذ فرنسا عن طريق التدخل المسالم تعزيزا للسيطرة على إفريقيا الشمالية ونادى جوريس jaures على منصة البرلمان بحماية فرنسا الاقتصادية على المغرب، وهكذا انفتحت أمام المغرب جبهتان أذكى كلتيهما الاستعمار خضدا لشوكة المملكة فاحتلت فرنسا بدعوى ضمان أمنها في التخوم المغربية الجزائرية مراكز بشار وفرطاسة وبركنت وأصبحت في ظرف سنتين (1904 ـ 1906) مالكة لزمام الهضاب العليا إلى ملوية وتزايدت الفوضى وانضم زعير وزمور إلى الثوار وعاث الريسوني في الشمال وانقطعت المواصلات بين الأقاليم التي تخللتها جيوش بوحمارة الرابضة في تازة وتكونت بفرنسا «لجنة المغرب» داعية إلى التدخل المسلح لبسط وصاية على المملكة بتعاون مع الأسبان وبدأت سلسلة الاتفاقات السرية تبرز للعيان بتواطؤ الدول الأوربية التي تقاسمت النفوذ في مصر وليبيا والمغرب وبذلك اعترف الأنجليز (8 أبريل 1904) ـ (22 محرم 1322 هـ) لفرنسا بنوع من الحماية على المغرب في مقابل اندراج مصر في منطقة النفوذ البريطاني ونالت اسبانيا حظها من هذا الاقتطاع شمالي المغرب (3 أكتوبر 1904) وبدأت فرنسا تعزز تسربها السياسي بقروض مالية 68.500.000 فرنك أعقبتها بمراقبة الجمارك وتنظيم مصالح البريد والبرق وإشراف ضباط فرنسيين على تدريب طوابير مغربية غير أن ألمانيا أثارت عام 1905 أزمة دبلوماسية بأوربا مالبثت أن شجعت السلطان على الانتقاض والاحتجاج ضد اتفاقات 1904 بواسطة سفارة إلى برلين يرأسها الصدر محمد المقري وفي 31 مارس 1905 (24 محرم 1323 هـ) نزل (غليوم الثاني) عاهل ألمانيا بطنجة مؤكدا أنه يزور سلطان المغرب كملك مستقل وأنه يامل أن يتفتح المغرب الحر تحت سيادة السلطان العليا للتنافس المسالم بين جميع الدول دون أي امتياز ولا احتكار مقترحا باتفاق مع المغرب عقد مؤتمر دولي لإنهاء هذا الوضع الشاذ فأبرمت اتفاقيتان بين فرنسا وألمانيا (6 و 8 جمادى الثانية 1323 هـ / 8 و 10 يوليوز 1905م) لتخطيط جدول أعمال المؤتمر بضمان سيادة واستقلال وكيان المغرب وحريته الاقتصادية فكانت نكسة لفرنسا رغم الاعتراف لها بالوضع الخاص غير أن الحالة الدبلوماسية والعسكرية قد تغيرت في أوربا بعد انتهاء الحرب الروسية اليابانية وتعزيز فرنسا لجهازها الدفاعي فتوثقت العرى من جديد بين أنجلترا والدول اللاتينية الثلاث واضطرت ألمانيا إلى التنازل حيث لم تقف في صفها سوى النمسا بينما تكتل الباقون حول فرنسا فلم يؤيد عقد الجزيرة (12 صفر 1324 ـ 7 أبريل 1906) الذي لم يزد على المناداة باستقلال السلطان وصون كيان مملكته والمساواة الاقتصادية بين الدول مع تدويل حركة الإصلاح بإسناد الشرطة إلى ضباط بلجيكيين وفرنسيين وأسبان وتأسيس بنك مخزني أممي وجمعية دولية لاستغلال التبغ ولعل الوضع الجديد قد قلص من غلواء الأطماع الفرنسية غير أن بنود العقد ظلت عمليا حبرا على ورق نظرا لانفراد فرنسا في الميدان ولاستمرار العمل السري بالاتفاقات السابقة وكانت فرنسا تعمل في الخفاء لتنفيذ ما بيتته مع زميلتها اسبانيا تمهيدا لعقد معاهدة مع السلطان (14 ذو القعدة 1328 هـ ـ 17 نونبر 1909) ابتزت بمقتضاها فوائد جديدة في الحسيمة وسبتة مع تعويضات حربية ثم بدأت منذ العام التالي تحتل القسم الأطلنطيقي من المنطقة الشمالية فاقتحمت العرائش والقصر الكبير ثم حاولت فرنسا تعقيم سير التهجمات الألمانية بمشروع مشترك لاستغلال الكونغو وشعر الناس بأن عقد الجزيرة أمسى حبرا على ورق، وأن العمل الدولي بالمغرب مجرد تضليل وكانت ألمانيا هي أيضا، تود الحصول على حظها من الغنيمة بتعويضات في إفريقيا الإستوائية فأبرمت اتفاقية بين الطرفين (4 نونبر 1911) وانهار كل حاجز أمام بسط الحماية الفرنسية التي أمضيت معاهدتها في 11 ربيع الثاني 1330 هـ ـ 30 مارس 1912.

(يتبع)

نظرات في تاريخ المذهب المالكي : (8)

شروح الموطأ

للدكتور عمر الجيدي

ليس كتاب الموطأ كتاب فقه فحسب كما زعمه «بروكلمان» (1)، وإنما هو كتاب حديث وفقه معا، وما ذهب إليه أحمد أمين من أن الموطأ كتاب فقه وإن ملئ حديثا (2) بعيد عن الصواب، فهو يعتقد أن مالكا لم يكن من غرضه أن يجمع فيه الأحاديث المعروفة في عهده، والتي صحت عنده، وإنما غرضه الإتيان بالتشريع مستدلا عليه بالحديث، ولعل ما دفع أحمد أمين لأن يذهب هذا المذهب، هو ما تضمنه كتاب الموطأ من فتاوي مالك الشخصية وآرائه في بعض المسائل، وهذا لا ينهض دليلا لرأيه، ولا يقوم حجة على صحة دعواه...

وقد كان الموطأ في بدايته ـ يضم بين دفتيه قدرا هائلا من الأحاديث، إلا أن الإمام ظل يختصره حتى أصبح لا يتجاوز ألفا وتسعمائة وخمسا وخمسين حديثا على رواية يحي الليثي، وألفا وثمانية على رواية محمد بن الحسن الشيباني وقد اشتهر كتاب الموطأ شهرة صاحبه، حتى غطى جميع ديار الإسلام، إذ لم يكد يمر زمن قصير على تأليفه، حتى شاع في الناس وفشا، ووقع الإقبال عليه من طرف الجميع، وعليه بنى فقهاء الأمصار مذاهبهم، ولم يزل العلماء يخرجون حديثه، ويذكرون متابعاته وشواهده، ويشرحون غريبه، ويضبطون مشكله، ويبحثون عن رجاله.

ويعد كتاب الموطأ أول مؤلف في تاريخ الإسلام تناقلته الأجيال منذ تأليفه إلى الآن، ثبتت نسبته إلى صاحبه، إذ كان الناس قديما يعتمدون على الحفظ والسماع، لا على المؤلفات، وهذا لا يعني أن الإمام مالكا سبق غيره إلى التأليف، فقد كانت هناك مؤلفات صنفت قبله، إلا أنها لم تصلنا، أو وصلت ولكن نسبتها إلى أصحابها مشكوك فيها، وتشير الروايات التاريخية إلى أن التدوين بمعناه الضيق، قد بدأ في القرن الأول، ونما شيئا فشيئا في أوائل القرن الثاني، ومعظم هذه التآليف تتعلق بالحديث، أو بأجزاء يسيرة من أبواب فقه العبادات...

يقول الحافظ ابن حجر : «إن آثار النبي ﷺ لم تكن في عصر الصحابة وكبار تابعيهم مدونة في الجوامع، ولا مرتبة لأمرين :

أ ـ أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نهوا عن ذلك، كما ثبت في صحيح مسلم خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم.

---

1) تاريخ الأدب العربي 275/3

2) فجر الإسلام ص 249

ب ـ سعة حفظهم وسيلان أذهانهم، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة، ثم حدث في آخر عصر التابعين تدوين الآثار، وتبويب الأخبار، لما انتشر العلماء في الأمصار، ولما كثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكري الأقدار، فأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح، وسعيد بن أبي عروبة وغيرهما، وكانوا يصنفون كل باب على حدة، إلى أن قام كبار أهل الطبقة الثالثة، فدونوا الأحكام، فصنف الإمام مالك الموطأ، وتوخى فيه القوي من حديث أهل الحجاز، ومزجه بأقوال الصحابة، وفتاوي التابعين ومن بعدهم» (3).

سبب تسمية الكتاب بالموطأ

اختلف العلماء في سبب تسميته بالموطأ، فيروى في سبب تسميته، ما ذكره أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الأصفهاني قال : قلت لأبي حاتم الرازي موطأ مالك لم سمي الموطأ ؟ فقال : شيء صنعه ووطأه للناس حتى قيل موطأ مالك وقيل إن سبب التسمية آت من قول مالك نفسه عندما قال : عرضت كتابي هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة، فكلهم واطأني عليه فسميته الموطأ (4)، ويقال إن أبا جعفر المنصور قال لمالك : ضم هذا العلم ياأبا عبد الله، ودونه كتبا وتجنب فيه تشديدات عبد الله بن عمر، ورخص ابن عباس، وشواذ ابن مسعود واقصد أوسط الأمور، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة (5)، وفي بعض الروايات «ألف للناس كتابا ووطئه لهم توطئة» (6) وقد لبث الإمام مالك في تأليفه أربعين سنة يهذبه وينقحه كما يستفاد من قول صفوان بن عمر بن عبد الواحد ـ صاحب الأوزاعي ـ : عرضنا على مالك كتاب الموطأ في أربعين يوما فقال : كتاب ألفته في أربعين سنة، أخذتموه في أربعين يوما، ما أقل ما تفهمون فيه ! (7).

ويقال إن لفظة الموطأ هي من ابتكار مالك، إذ من ألف قبله، كان يسمي كتبه بالمصنف، أو المؤلف، أو الجامع، أو المجموع، وقيل إن أول من سمى بالموطأ قبل مالك، عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون، ألفه كلاما بغير حديث، فلما رآه مالك قال : ما أحسن ما عمل ! ولو كنت أنا لبدأت بالآثار، ثم شددت ذلك بالكلام (8)، ثم عزم على تصنيف الموطأ، فصنفه وتبعه آخرون في تصنيفهم الموطآت (9)، وقد هم «المنصور» أن يختار الموطأ نظاما قضائيا للدولة العباسية، إلا أن مالكا، رضي الله عنه ـ لم يرض بذلك قائلا : إن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في الأمصار وكل منهم مصيب» (10).

عدد أحاديث الموطأ

وقد كان الموطأ يضم بين دفتيه في بداية الأمر، قدرا مهما من الأحاديث لم يتفق الرواة عليه، ففي رواية عتيق الزبيري عشرة آلاف حديث (11) وفي رواية الغافقي ستمائة وستة وستون حديثا (12)، وفي رواية الأبهري ألف وسبعمائة وعشرون حديثا (13)، وفي رواية رابعة، أربعة آلاف حديث، وقد نقل الزرقاني عن أبي بكر الأبهري، جملة ما في الموطأ من الآثار عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين : ألف وسبعمائة وعشرون حديثا، المسند منها ستمائة حديث، والمرسل مائتان واثنان وعشرون حديثا، والموقوف ستمائة وثلاثة عشر ومن قول التابعين مائتان وخمس وثمانون (14)، إلا أن الإمام ظل يهذبه وينقحه ويسقط منه حتى قال ابن القطان : كان علم الناس في زيادة وعلم مالك في نقصان، ولو عاش مالك لأسقط علمه كله من كثرة التحري (15).

منهجية مالك في تأليف الموطأ

لقد تولى الإمام مالك توضيح منهجه في تأليف كتابه الموطأ، وبيان ما اشتمل عليه من الأحاديث والآثار قائلا : «فيه حديث رسول الله ﷺ، وقول الصحابة والتابعين ورأي، وقد تكلمت برأي وعلى الاجتهاد، وعلى ما ادركت عليه أهل العلم ببلدنا ولم أخرج من جلتهم إلى غيره» (16).

3) مقدمة فتح الباري ص 6 ط : الرياض
4) تنوير الحوالك : 7/1 ط : الحلبي
5) المدارك 73/2 ط : المغرب
6) المدارك 73/2
7) التمهيد : 78/1 والمدارك : 75/2
8) المدارك 75/2
9) التمهيد : 86/1 والمدارك : 72/2
10) المدارك 72/2
11) المدارك 72/2
12) مقدمة شرح الزرقاني للموطأ 7/1
13) المصدر نفسه
14) المصدر نفسه
15) المدارك 73/2
16) المصدر نفسه

وسئل مالك عن تعابيره في الموطأ من مثل : «الأمر المجتمع عليه»، والأمر عندنا أو ببلدنا، أو أدركت أهل العلم، أو سمعت بعض أهل العلم، فأجاب : أما أكثر ما في الكتب فرأي، فلعمري ما هو برأي، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المقتدى بهم الذين أخذت عنهم، وهم الذين كانوا يتقون الله، فكثر علي فقلت : «رأي»، وذلك «رأي» إذ كان رأيهم مثل رأي الصحابة أدركوهم عليه، وأدركتهم أنا على ذلك، فهذا وراثة توارثوها قرنا عن قرن إلى زماننا، وما كان رأي فهو رأي جماعة ممن تقدم من الأئمة، وما كان فيه الأمر المجتمع عليه، فهو ما اجتمع عليه من قول أهل الفقه والعلم لم يختلفوا فيه، وما قلت الأمر عندنا فهو ما عمل الناس به عندنا وجرت به الأحكام، وعرفه الجاهل والعالم، وكذلك ما قلت فيه ببلدنا، وما قلت فيه بعض أهل العلم، فهو شيء استحسنته من قول العلماء، وأما ما لم أسمع منه، فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته حتى وقع ذلك موقع الحق أو قريبا منه، حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم، وإن لم أسمع ذلك بعينه، فنسبت الرأي إلي بعد الاجتهاد مع السنة، وما مضى عليه أهل العلم المقتدى بهم، والأمر المعمول به عندنا من لدن رسول الله ﷺ، والأئمة الراشدين مع من لقيت، فذلك رأيهم ما خرجت إلى غيرهم» (17).

وقد اعتمد مالك في بناء مذهبه على الروايات المرفوعة إلى النبي ﷺ موصولة أو مرسلة وعلى قضايا عمر بن الخطاب، وفتاوي عبد الله بن عمر، ثم على أقوال الفقهاء السبعة (18) وفقهاء المدينة، جاعلا أحاديث زيد بن أسلم أواخر الأبواب (19)، ولما سئل عن حكمة ذلك قال : إنها كالسراج تضيء لما قبلها (20)، وقد بوبه على أبواب بحسب ما يحتاج إليه المسلمون في عباداتهم ومعاملاتهم وآدابهم، من معرفة العمل فيها الذي يكون جاريا بهم على السنن المرضي شرعا (21)، وجعل بابا جامعا في آخره، ذكر فيه ما لا يدخل في باب خاص من الأبواب المخصصة بفقه بعض الأعمال...

قال الحافظ ابن عبد البر في آخر كتابه «الكافي» عند ذكر أسانيده : «ومالك رحمه الله، هو أول من عنون كتابا من كتب مصنفاته بكتاب الجامع» (22).

وقد بين القاضي أبو بكر ابن العربي أن مالكا بوب الموطأ بحسب ما يراه من الحكم، فإذا كان الجواز قال : ما جاء في جواز كذا، وإذا كان ممنوعا قال : تحريم كذا، وإذا أراد إخراج ما روي في الباب مع احتمال الأمرين، أرسل القول كقوله : باب الاستمطار في النجوم.

وقد احتوى الموطأ على أقسام :

1) أحاديث متصلة
2) أحاديث مرسلة
3) أحاديث منقطعة
4) أحاديث موقوفة
5) بلاغات
6) أقوال الصحابة والتابعين
7) ما استنبطه من الأحكام من الفقه المستند إلى العمل أو إلى القياس، أو إلى قواعد الشريعة.

ولم يختلف أئمة الأثر ونقد الرجال، أن ما يحتويه الموطأ من القسم الأول كله مقبول لا شك فيه، وانما اختلفوا فيما يحتويه من القسم الثاني، وهي الأحاديث المرسلة، التي يرسلها التابعون عن النبي ﷺ (23)، وقد نص ابن عبد البر، أن مرسل الثقة تجب به الحجة، ويلزم به العمل، كما تجب بالمسند سواء، وقال سفيان : إذا قال مالك بلغني فهو إسناد قوي، وذكر الزرقاني أن بلاغات مالك ليس من الضعيف، لأنه تتبع كله فوجد مسندا من غير طريقه، وقد صنف ابن عبد

17) المدارك 74/2 والمعيار 360/6

18) هم : سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وأبو بكر بن عبد الرحمن وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسليمان بن يسار وهم جميعا من فقهاء التابعين، أنظر الشرازي ص : 24

19) التمهيد 242/3 وعلق على هذا الرأي الشيخ ابن عاشور قائلا : «وأحسب أن ماذكره عياض أمرا غالبا وإلا فانه قدم حديث زيد بن أسلم مرسلا في باب النهي عن الصلاة بالهاجرة وذكر بعده حديثي عبد الله بن زيد وأبي الزناد مسندين عن أبي هريرة فلعله إنما أخرهما عن حديث زيد إذ كان حديث زيد مرسلا ـ كشف المغطى ص : 13

20) المدارك 79/2

21) أنظر كشف المغطى لابن عاشور ص : 16

22) الكافي لابن عبد البر مخطوط بخزانة القرويين رقم 464

23) أنظر كشف المغطى ص 18 وما بعدها

البر في وصل ما في الموطأ من المرسل والمنقطع والمعضل، وأثبت أن جميع ما في الموطأ من قول مالك «بلغني» ومن قوله عن الثقة عندي مما لم يسنده، أحد وستون حديثا كلها مسندة من غير طريق مالك ما عدا أربعة قيل إنها لا تعرف، وهي التي اعتنى بإسنادها ابن الصلاح (24) وابن مرزوق، وقد قال يحيى بن سعيد : مرسلات مالك أحب إلي (25).

روايات الموطأ

ذكر القاضي عياض أن الذي اشتهر من نسخ الموطأ مما رواه أو وقف عليه أو كان في رواية شيوخه، نحو عشرين نسخة، وذكر غيره أنها ثلاثون (26) وذكر الدهلوي المتوفي عام 1139 هـ في كتابه «بستان المحدثين» أن نسخ الموطأ التي كانت رائجة في عصره ست عشرة نسخة كل نسخة عن راو خاص (27) ونقل عن أبي القاسم محمد بن حسين الشافعي قوله : الموطآت المعروفة عن مالك أحد عشر، معناها متقارب، والمستعمل منها أربعة، موطأ يحيى بن يحيى الليثي، وموطأ ابن بكير، وموطأ أبو مصعب، وموطأ ابن وهب، ثم ضعف الاستعمال في الأخيرين (28)، وقد اشتهر من هذه الروايات رواية يحيى بن يحيى الليثي، ورواية محمد بن الحسن الشيباني، فالرواية الأولى اشتهرت كثيرا حتى إن كتاب الموطأ إذا إطلق، فانما إلى هذه الرواية ينصرف، وقد أخذ يحيى (234 هـ) رواية الموطأ أولا عن زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون، ثم ارتحل إلى مالك وسمع منه الموطأ ماخلا ثلاثة أبواب فيرويها بواسطة زياد (29)، ومن مميزات هذه الرواية أنها آخر ما نقل عن الإمام مالك، وبذلك تكون راجحة على ما سواها، لأنها شملت آخر ما استقر عليه رأي مالك، وان كان البعض يرى أن فيها بعض الأوهام (30) وأما الرواية الثانية وهي رواية محمد بن الحسن (189 هـ) ففيها أحاديث يسيرة زيادة على سائر الموطآت منها حديث إنما الأعمال بالنيات، ولا توجد بها بعض الأحاديث التي رويت في الروايات الأخرى، ويقال إن بها آثارا ضعيفة من غير طريق مالك، وقد أحصى اللكنوي ما فيها من أحاديث عن مالك فوجد بها ألفا وخمسة حديث بما في ذلك المسند والآثار والبلاغات، وفيها من طريق غير مالك خمسة وسبعون ومائة حديث، وقد عقد بعض الباحثين المعاصرين مقارنة بين رواية يحيى ورواية محمد فتبين له ما يلي :

1) يحيى سمع الموطأ من مالك ما عدا قدرا منه، بخلاف محمد بن الحسن فانه سمعه كله.

2) إن محمد بن الحسن يذكر في كل ترجمة رواية مرفوعة أو موقوفة، بخلاف يحيى، فان بعض تراجم أبوابه قد تخلو من الروايات المرفوعة أو الموقوفة.

3) يوجد بموطأ محمد كثير من الأخبار المروية عن غير مالك، بخلاف يحيى فليس في موطئه إلا المروي من طريق مالك فحسب.

4) يوجد في موطأ محمد اجتهادات كثيرة خالف فيها مالكا وأبا حنيفة وأصحابه، كما أن فيها اجتهادات كثير من علماء العراق والحجاز، أما موطأ يحيى فقد خلا مما ذكر (31) أما أكثر الروايات فهي رواية أبي مصعب، فقد ذكر ابن حزم أن في رواية أبي مصعب زيادة على سائر الموطآت نحو مائة حديث (32).

وأما أثبت الناس في رواية الموطأ فقد ذكر يحيى ابن معين أن أثبت الناس في الموطأ عبد الله بن مسلمة القعنبي وعبد الله التنيسي بعده، وتبعه في ذلك المديني والنسائي، بينا يرى أبو حاتم أن أثبت أصحاب مالك وأوثقهم معن بن عيسى (33) وصرح ابن فرحون في الديباج أن ابن القاسم أثبت من سائر الرواة (34) في حين يرى محمد بن عبد الحكم أن أثبت الناس في ذلك ابن وهب (35)، هذا وقد ظهرت

24) ما كتبه ابن الصلاح قام بتحقيقه أخيرا المحدث عبد الله بن الصديق الغماري وأنكر أن يكون ابن الصلاح قد أسندها، والمكتوب في ورقات طبعت بتطوان.

25) أنظر الإرشاد للحافظ أبي يعلى القزويني ص 29 مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

26) المدارك 89/2

27) مقدمة كتاب موطأ محمد، ومفتاح السنة ص 25

28) المصدر

29) طبقات الفقهاء والمحدثين ورقة 30

30) المدارك 380/3

31) مقدمة موطأ محمد

32) شرح الزرقاني 6/1

33) المصدر، وتنوير الحوالك 11/1

34) الديباج ص 147

35) شرح الزرقاني 6/1

أخيرا رواية القعنبي وجزء يسير من رواية علي بن زياد التونسي...

منزلة الموطأ بين كتب الحديث

يرى جمهور المحدثين أن الموطأ دون رتبة الصحيحين (36)، ونقل الحافظ ابن حجر أن كتاب مالك صحيح عنده وعند من يقلده على ما اقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل والمنقطع وغيرهما، وقد تعقب الحافظ السيوطي كلام الحافظ هذا بقوله «ما فيه من المراسل فإنها مع كونها حجة عنده بلا شرط، وعند من وافقه من الأئمة على الاحتجاج بالمرسل فهي أيضا حجة عندنا، لأن المرسل عندنا حجة إذا اعتضد، وما من مرسل في الموطأ إلا وله عاضد أو عواضد، فالصواب إطلاق أن الموطأ صحيح لا يستثنى منه شيء (37) وبما أن المحدثين لا يعتدون بالمرسل والمنقطع لذلك جعلوا رتبة الموطأ دون رتبة الصحيحين، وبعد أن حكم ابن حزم على الموطأ بأن فيه أحاديث ضعيفة رتبه في الطبقة الأخيرة من كتب الحديث، إلا أن الحافظ الذهبي رد عليه قائلا : «ما أنصف ابن حزم، بل رتبة الموطأ أن يذكر تلو الصحيحين» (38).

ويرى الحافظ ابن العربي وجمهور علماء المغرب أن الموطأ مقدم على الصحيحين، قال ابن العربي في «العارضة» : «الموطأ هو الأصل الأول واللباب، والبخاري الأصل الثاني في هذا الباب، وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذي» (39)، وقال في القبس : «الموطأ هو أول كتاب ألف في شرائع الإسلام، وهو آخره، لأنه لم يؤلف مثله، إذ بناه مالك (ض) على تمهيد الأصول للفروع، ونبه فيه على معظم أصول الفقه التي ترجع إليها مسائله» (40)، ورأي الدهلوي أن كتاب الموطأ ينبغي أن يوضع في الرتبة الأولى مع الصحيحين (41).

واختلاف المحدثين في هذا مبني على اختلاف الاعتبارات، فمن نظر إلى اختلاط الأحاديث بالفروع جعله مؤخرا، ومن نظر إلى صحة أسانيد الروايات في الكتاب جعله مقدما (42).

أقوال الناس في الموطأ

وصف الإمام الشافعي الموطأ فقال : «ما كتاب أكثر صوابا بعد كتاب الله من كتاب مالك» وقال : «ما في الأرض بعد كتاب الله أكثر صوابا من موطأ مالك بن أنس» وقال : «ما كتاب بعد كتاب الله عز وجل أنفع من موطأ مالك بن أنس» (43). وقال أحمد بن حنبل : «ما أحسن الموطأ لمن تدين به» (44)، وقال ابن مهدي : «لا أعلم من علم الناس بعد القرآن أصح من موطأ مالك» (45)، وقال ابن وهب : «من كتب الموطأ فلا عليه ألا يكتب من الحلال والحرام شيئا».. وقال ابن عبد البر : «كتاب الموطأ لا مثيل له ولا كتاب فوقه بعد كتاب الله عز وجل» وقال : «ما كتب بعد كتاب الله أنفع للناس من الموطأ» (46)، وقال ابن العربي : «الموطأ هو أول كتاب ألف في شرائع الإسلام، وهو آخره لأنه لم يؤلف مثله، إذ بناه مالك رضي الله عنه على تمهيد الأصول للفروع..» (47) وكان يسميه بكتاب الإسلام (48) وقال الشيخ ولي الله الدهلوي : «من تتبع المذاهب ورزق الإنصاف، علم لا محالة أن الموطأ عدة مذهب مالك وأساسه، وعمدة مذهب الشافعي وأحمد ورأسه، ومصباح مذهب أبي حنيفة وصاحبيه ونبراسه وهذه المذاهب بالنسبة للموطأ كالشروح للمتون، وعلم أيضا أن الكتب في السنن كصحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي وما يتعلق بالفقه من صحيح البخاري وجامع الترمذي ومستخرجات على الموطأ تحوم حومه، وتروم رومه، مطمع نظرهم فيها وصل ما أرسله، ورفع ما أوقفه، واستدراك ما فاته، وذكر المتابعات والشواهد لما أسنده... ومن اليقين أنه ليس بيد أحد اليوم كتاب من كتب الفقه أقوى من الموطأ، لأن فضل الكتاب إما أن يكون باعتبار المؤلف أو من جهة التزام الصحة، أو باعتبار الشهرة،

---

36) مفتاح السعادة 129/2

37) تنوير الحوالك 8/1

38) مقدمة الموطأ رواية محمد تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ص 15

39) العارضة 5/1

40) القبس ص 2 مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1916 ك

41) أوجز المسالك 32

42) التعليق الممجد على موطأ الإمام محمد للكنوي ص 12

43) التمهيد 76/1 والمدارك 70/2

44) المدارك 70/2

45) التمهيد 78/1

46) أنظر التمهيد ابتداء من ص : 75 من الجزء الأول وقد أورد الكثير مما قيل في فضل الموطأ

47) القبس ص 4 مخطوط

48) العواصم من القواصم 467/2 تحقيق : د : طالبي

أو من جهة القبول، أو باعتبار حسن الترتيب، واستيعاب المقاصد، ونحو ذلك يوجد في الموطأ».

الموطأ في المغرب

يذكر الرواة أن أول من أدخل كتاب الموطأ إلى المغرب الأقصى هو القاضي عامر بن محمد القيسي، وكان قد سمع من مالك والثوري، وقد تم ذلك في عهد ادريس، وأن هذا الأخير حمل الناس على تعلمه وتعليمه، وبذلك يكون الموطأ أول كتاب حديثي دخل المغرب، وبسبب انتقال الموطأ إلى المغرب، تم تحول المغاربة من المذهب الحنفي إلى المذهب المالكي، إذ لم يكد القرن الرابع الهجري يطل، حتى كان المذهب المالكي قد بدأ ينتشر في المغرب وتتجذر أصوله وفروعه في سائر مرافق الحياة (49) أما أول من أدخله إلى القيروان فهو علي بن زياد التونسي (50) صاحب الرواية المشهورة وهو أول من فسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه (51)، واختلف في أول من أدخله إلى الأندلس، ذهب ابن القوطية وتبعه السيوطي في البغية إلى أنه الغازي بن قيس، وذلك في خلافة عبد الرحمن الداخل (52)، بينما يرى الجمهور أن أول من أدخله هو عبد الرحمن اللخمي الملقب بشبطون (53)، والجمع بين الرأيين ممكن، باعتبار أن الغازي بن قيس أول من أدخله، إلا أنه لم يشتهر ويتداول على نطاق واسع إلا بعدما أدخله زياد الذي تصدى لإقرائه وإسماعه الناس، أما أول من أدخله إلى مصر فهو عبد الرحمن ابن القاسم، كما روى الحافظ أبو يعلى القزويني (54)...

عناية الناس بالموطأ

ذكر عياض أنه لم يعتن بكتاب من كتب الفقه والحديث اعتناء الناس بالموطأ، فإن الموافق والمخالف أجمع على تقديمه وتفضيله وروايته، وتقديم حديثه وتصحيحه، ومن الذين اعتنوا بالموطأ وشرحوه أو تكلموا عن رجاله، أو شرحوا غريبه، أو تحدثوا عنه في أغراض مختلفة :

1 ـ أحمد بن عمران بن سلامة الأخفش من القرن الثالث الهجري له تفسير غريب الموطأ (55).

2 ـ أحمد بن نصر الداودي (402 هـ) له كتاب النامي في شرح الموطأ (56).

3 ـ أحمد بن الحاج المكي السدراتي (1253 هـ) له شرح على الموطأ يوجد مخطوطا بالمكتبة العامة بالرباط.

4 ـ أحمد علي بن الخطيب البغدادي (463 هـ) له كتاب في أسماء الرواة للإمام مالك بن أنس (57).

5 ـ أحمد بن محمد بن علي الأنصاري الجياني أبو جعفر المبلوط له شرح الموطأ (58).

6 ـ أحمد بن طاهر بن علي بن عيسى ابن عبادة (532 هـ) له كتاب الإيماء إلى أطراف أحاديث مالك (59).

7 ـ أحمد بن سعيد بن فوضخ الإخميمي له كتاب مسند الموطأ (60).

8 ـ أحمد بن فهزاد الفارسي (61).

9 ـ أحمد بن ابراهيم بن جامع السكوي (62).

10 ـ أفلح بن أحمد له غريب حديث مالك (63).

11 ـ أبو القاسم العثماني المصري له كتاب في شرح غريب الموطأ (64).

---

49) الأزهار العاطرة للكتاني ص 130 ط.ح
50) رياض النفوس ص : 158
51) ترتيب المدارك 82/3 والديباج : 192
52) تاريخ افتتاح الأندلس ص 35
53) المدارك 117/3 ونفح الطيب 46/2
54) الإرشاد ص : 21 مخطوط خ. ع بالرباط.
55) تاريخ التراث العربي 125/2
56) تاريخ التراث العربي 125/2
57) المصدر
58) الديباج 56
59) المدارك 82/2
60) المدارك 82/2
61) المدارك 82/2
62) تاريخ التراث 130/2
63) المدارك 83/2
64) مفتاح السنة ص 27

12 - أبو عمران الزناتي المراكشي له شرح الموطأ (65)
13 - أبو عبد الله بن محمد المرني بن علي الفاسي (1302 هـ) (66)
14 - أبو عبد الله بن مفرج (67)
15 - أبو عمر الطلمنكي أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى المعافري (340 هـ) (68)
16 - إسماعيل القاضي له شواهد الموطأ (69)
17 - إدريس القابسي له المسالك على موطأ مالك (70)
18 - ابراهيم حسين بري زادة (1096 هـ) (71)
19 - أبو القاسم الجوهري له شواهد الموطأ، وله مسند حديث مالك خارج الموطأ (72)
20 - أبو ذر الهروي له شواهد الموطأ (73)
21 - أبو بكر القباب له كتاب في حديث مالك (74)
22 - ابن مفرج القاضي له كتاب في رجال الموطأ (75)
23 - ابن الأعرابي (76)
24 - ابن نافع الزبيري (77)
25 - أبو عبد الرحمن النسائي له مسند حديث مالك (78)
26 - أبو محمد بن عدي الجرجاني (79)
27 - أبو عبد الله السراج النيسابوري (80)
28 - أبو عبد الملك البوني له كتاب في شرح الموطأ (81)
29 - أبو بكر بن زياد النيسابوري (82)
30 - أبو العرب التميمي (83)
31 - أبو حفص بن شاهين (84)
32 - أبو القاسم الحافظ الأندلسي (85)
33 - أبو الفضل ابن أبي عمران الهروي (86)
34 - أبو الحسن الدارقطني له كتاب في اختلاف الموطآت (87)
35 - ابن الجارود (88)
36 - ابراهيم بن نصر السرقسطي (89)
37 - أسامة بن علي بن سعيد المصري (90)
38 - أبو نُعَيْم الحلبي القلانسي (91)
39 - أبو بكر ابن السليم القاضي له كتاب التوصيل مما ليس في الموطأ (92)
40 - أبو الحسن بن أبي طالب الصابر له كتاب أطراف الموطأ (93)
41 - أبو محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن وهب (197 هـ) له شرح الموطأ (94)
42 - البرقي له كتاب في رجال الموطا و له شرح في غريبه (95)
43 - أبو محمد عبد الكبير له شرح الموطأ (96)
44 - أبو مروان القنازيعي له شرح الموطأ (97)
45 - أبو عبد الملك له شرح الموطأ (98)

65) جذوة الاقتباس 150/1
66) تاريخ التراث العربي 129/2
67) المصدر
68) تاريخ التراث 129/2
69) المصدر
70) المصدر
71) تاريخ التراث 129/2
72) المدارك 82/2
73) المصدر
74) المصدر
75) المصدر
76) المصدر
77) المصدر
78) المصدر
79) المصدر
80) المصدر
81) التكملة لابن الأبار ص 754 ط : مدريد
82) المدارك 81/2
83) المصدر
84) المصدر 82/2
85) المصدر
86) المصدر
87) المصدر
88) المصدر
89) المصدر
90) المصدر
91) المصدر
92) المصدر 83/2
93) المصدر
94) المصدر
95) المصدر
96) المصدر
97) المصدر
98) المصدر

46 - ابن حوط الله له جمع الموطأ من رواية ابن وهب وابن القاسم (99)

47 - أبو الوليد الصفار القاضي له كتاب الموعب في شرح الموطأ لم يكمله (100)

48 - أبو بكر بن سابق الصقلي له كتاب المسالك في شرح الموطأ (101)

49 - أبو عبد الله ابن الحاج القاضي له شرح كبير على الموطأ (102)

50 - ابن حزم الظاهري له شرح الموطأ (103)

51 - أبو الوليد ابن العواد له كتاب جمع فيه بين الاستذكار والتمهيد (104)

52 - أبو عبد الله ابن عيشون الطليطلي له كتاب توجيه الموطأ (105)

53 - أبو القاسم ابن الجد له اختصار التمهيد (106)

54 - أبو الحسن الإشبيلي له تفسير الموطأ (107)

55 - أبو محمد بن يربوع المحدث له كتاب في أسانيد الموطأ سماه تاج الحلية (108)

56 - أبو محمد عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحي الأنصاري المالقي (611 هـ) له تلخيص أسانيد الموطأ (109)

57 - أبو بكر ابن موهب العنبري له شرح الملخص قال عنه عياض إنه في أسفار كثيرة (110)

58 - بدر الدين القرافي له شرح الموطأ (111)

59 - أبو علي ابن الزهراء العثماني (من علماء القرن 8 هـ) له الممهد الكبير في واحد وخمسين مجلدا توجد منه أجزاء في الخزانة الملكية (الحسنية) وأجزاء في المكتبة العامة بالرباط(112)

60 - حامد البياتي له تلخيص أحاديث الموطأ (113)

61 - الحسن بن رشيق القيرواني (463 هـ) له شرح الموطأ (114)

62 - أبو عبد الله الجيزي (115)

63 - أبو عمر ابن خضر الطليطلي له مسند الموطأ رواية القعنبي (116)

64 - التهامي بن المدني بن علي كنون له تعليق على الموطأ سماه أقرب المسالك (117)

65 - حازم بن محمد بن حازم له كتاب المسهر عن أثر الموطأ في أربعين جزءا (118)

66 - حسن بن عبد الله بن حسن المعروف بابن الأشيري له مجموع في غريب الموطأ (119)

67 - حرملة بن يحي (120)

68 - خلف بن الفرج بن عثمان الكلاعي (371 هـ) (121)

69 - محمد بن خلف بن موسى الأنصاري الألبيري (537 هـ) له الدرة الوسطى في مشكل الموطأ (122)

70 - محمد ابن العربي أبو بكر الحافظ له كتاب القبس على موطأ مالك بن أنس يوجد مخطوطا بالمكتبة العامة بالرباط رقم 1916 ك يقوم بتحقيقه الزميل الأستاذ علي أيت علي، وله كتاب آخر سماه

---

99) المصدر 84/2
100) المصدر
101) المصدر
102) المدارك 84/2
103) المدارك 84/2
104) المصدر
105) المصدر
106) المصدر
107) المصدر 85/2
108) المصدر
109) التكملة 506 ط : مدريد
110) المدارك 85/2
111) الفكر السامي 107/4
112) يستحسن الرجوع إلى ما كتبه أستاذنا الجليل سعيد أعراب عن هذا الشرح في جريدة الميثاق التي تصدرها رابطة علماء المغرب...
113) تاريخ التراث العربي 131/2
114) الاعلام للزركلي 204/2
115) المدارك 81/2
116) المصدر 82/2
117) الاعلام للتعارجي 96/3
118) المدارك 85/2
119) التكملة ص 26 ط : مدريد
120) المدارك 83/2
121) تاريخ التراث العربي 125/2
122) التكملة 173 ط : مدريد

ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك (حقق أخيرا بالجزائر).

71 ـ محمد سعيد بن أحمد بن زرقون (586 هـ) له كتاب الأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار (123)

72 ـ محمد بن عبد الحق بن سليمان اليعفري الندرومي التلمساني (625 هـ) له كتاب المختار الجامع بين المنتقى والاستذكار، وكتاب في غريب الموطأ (124)

73 ـ محمد جيب الله الجكني الشنقيطي له دليل السالك إلى موطا مالك (مطبوع)

74 ـ محمد بن عبد الباقي الزرقاني (1122 هـ) له شرح في مجلدات أربع مطبوع متداول

75 ـ محمد بن يحيى بن أحمد القرطبي المعروف بابن الحذاء (416 هـ) له كتاب التعريف بمن ذكر في موطأ مالك بن أنس من الرجال والنساء، وله: الاستنباط لمعاني السنن والأحكام من أحاديث الموطأ في ثمانين جزءا (125)

76 ـ محمد ابن اسماعيل بن محمد خلفون الأزدي (555 هـ) له اسماء شيوخ مالك (126)

77 ـ محمد بن اسحاق بن منذر أبو بكر ابن السليم له كتاب الوصل لماليس في الموطأ (127)

78 ـ محمد بن المصلى له لوامع الأنوار في نظم غريب الموطأ ومسلم (128)

79 ـ محمد بن شروس الصنعاني له مسند حديث مالك ورأيه (129)

80 ـ محمد بن عيشون الطليطلي (130)

81 ـ محمد بن عيسى الحضرمي (131)

82 ـ محمد بن أبي المظفر الحافظ له كتاب فيا وصله مالك مما ليس في الموطأ (132)

83 ـ محمد بن عبد الله بن زيد له كتاب مسند حديث مالك (133)

84 ـ محمد بن يحي بن خلف بن صاف المعروف بابن المواق له شرح الموطأ (134)

85 ـ محمد بن سحنون (135)

86 ـ محمد بن يحي المصري الشهير بالقرافي له شرح الموطأ (136)

87 ـ محمد بن سليمان خليفة له كتاب المحلى في شرح الموطأ (137)

88 ـ محمد بن الطاهر بن عاشور له كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ طبع بتونس

89 ـ المهلب بن أحمد بن أسيد بن أبي صفرة أبو القاسم التيمي له كلام في شرح الموطأ (138)

90 ـ موسى بن هارون الحمال (139)

91 ـ موسى الزناتي المراكشي شيخ ابن البناء له شرح الموطأ (140)

92 ـ مجهول..؟ له المنتقى من الموطأ (141)

93 ـ مجهول..؟ له خلاصة الدلائل في تنقيح المسائل (142)

94 ـ محمد بن أبي زمنين له شرح سماه بالمغرب (143)

95 ـ مروان بن محمد الأسدي البوني له كتاب كبير في شرح الموطأ (144)

---

(123) تاريخ التراث العربي 127/2
(124) المصدر السابق والتكملة 752
(125) تاريخ التراث العربي 130/2 والديباج 273
(126) تاريخ التراث 130/2
(127) المدارك 281/6
(128) تاريخ التراث 130/2
(129) المدارك 81/2
(130) المدارك 81/2
(131) المدارك 82/2
(132) المصدر
(133) المصدر 83/2
(134) مظاهر النهضة الحديثية 53/2
(135) المدارك 83/2
(136) الفكر السامي 273/2
(137) المدارك 187/8 والصلة 565
(138) جذوة المقتبس 352
(139) المدارك 82/2
(140) الأعلام للمراكشي 204/2
(141) تاريخ التراث العربي 131/2
(142) المصدر
(143) المدارك 82/2
(144) جذوة المقتبس 342

96 ـ عبد الصمد بن أحمد بن سعيد الجياني له كتاب المستوعب في أحاديث الموطأ (145)

97 ـ عبد الله بن عبد العظيم بن عبد الملك الزهري المالقي (623 هـ) له كتاب في رجال الموطأ (146)

98 ـ عبد الرحمن السيوطي له تنوير الحوالك مطبوع وله اسعاف المبطا مطبوع كذلك وله شرح ثالث كبير لم يطبع.

99 ـ عمر بن محمد حمد له كشف الغطاء عن معاني ألفاظ الموطأ (147)

100 ـ علي بن أحمد الحريشي له شرح الموطأ (148)

101 ـ علي القاري له شرح الموطأ (149)

102 ـ عبد الله بن ابراهيم الأصيلي له كتاب شرح فيه الموطأ سماه بالدلائل (156)

103 ـ عقيل بن عطية القضاعي له شرح الموطأ (151)

104 ـ عثمان بن يعقوب بن حسين الكماخي له المهيأ في كشف الموطأ (152)

105 ـ عبد الحي اللكنوي له التعليق المجد طبع بالهند وحقق أيضا في مصر

106 ـ محمد زكرياء الكاندهلوي له شرح سماه أوجز المسالك إلى موطأ مالك (مطبوع)

107 ـ علي بن أحمد بن يوسف بن مروان الوادياشي له نهج المسالك في التفقه في مذهب مالك في عشرة أسفار (153)

108 ـ علي بن محمد خلف القابسي (403 هـ) له الملخص لما في الموطأ من الحديث المسند وهو موجود في الخزانة العامة بالرباط (مخطوط)

109 ـ علي بن أحمد التجيبي المعروف بالحرالي له شرح الموطأ (154)

110 ـ علي بن حبيب السجلماسي (155)

111 ـ علي بن الحسن بن عساكر (571 هـ) له كشف المغطى في فضل الموطأ (156)

112 ـ علي بن محمد بن محمد الخزرجي الفاسي له كتاب المدارك وصل به مقطوع حديث مالك في الموطأ (157)

113 ـ عبد الرحمن بن يحيى القرشي من القرن 10 هـ له تجريد أحاديث الموطأ (158)

114 ـ عبد الرحمن الغافقي الجوهري له مسند الموطأ ومسند ما ليس في الموطأ (159)

115 ـ عبد الرحمن بن أحمد الأزدي الغرناطي يعرف بابن القصير له اختصار الموطأ (160)

116 ـ عبد الله بن محمد النحوي البطليوسي له كتاب المقتبس (161)

117 ـ عبد الله بن محمد بن أبي القاسم المدني له كتاب كشف المغطى في شرح مختصر الموطأ (162)

118 ـ علي بن خلف السجلماسي له مسند الموطأ (163)

119 ـ عبد الغني بن سعيد (164)

120 ـ عمران بن عبد ربه المعافري الأندلسي المعروف بالدباغ (165)

121 ـ عياض بن موسى اليحصبي له مشارق الأنوار في تفسير غريب الموطأ والصحيحين (مطبوع)

122 ـ عاصم النحوي له كتاب في شرح الموطأ لم يكمل (166)

---

(145) التكملة 646
(146) التكملة 515
(147) تاريخ التراث 129/2
(148) شجرة النور ص 336
(149) تاريخ التراث 129/2
(150) الديباج 139
(151) الديباج 210
(152) تاريخ التراث 129/2
(153) الديباج 211
(154) الأعلام للمراكشي 108/9
(155) تنوير الحوالك 12/1
(156) تاريخ التراث 130/2
(157) جذوة الاقتباس 470/2
(158) المدارك 83/2
(159) الديباج 148
(160) شجرة النور 154
(161) المدارك 84/2
(162) الديباج 145
(163) المدارك 82/2
(164) المصدر
(165) المدارك 84/2
(166) المصدر 85/2

123 ـ عيسى بن دينار له شرح الموطأ (167)

124 ـ عبد الله بن نافع الصايغ (168)

125 ـ قاسم بن أصبغ له شواهد الموطأ (169)

126 ـ سلام الله بن شيخ الإسلام الدهلوي له المحلى على أسرار الموطأ (170)

127 ـ أبو الربيع سليمان العلوي (سلطان المغرب) له حاشية على الموطأ (171)

128 ـ سليمان الباجي أبو الوليد له ثلاثة شروح على الموطأ : الإيماء، والاستيفاء لم يتم والمنتقى مطبوع وله أيضا اختلاف الموطآت.

129 ـ هشام بن أحمد بن هشام الوقاشي (172)

130 ـ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي له على الموطأ شرحان أحدهما بالفارسية والآخر بالعربية وكلاهما مطبوع

131 ـ يوسف بن عبد البر (463 هـ) له التمهيد (طبعت بعض أجزائه 12) وله كتاب الاستذكار طبع بعضه وكتاب تجريد التمهيد (طبع)

132 ـ يحي بن مزين له تفسير الموطأ ورجال الموطأ (173)

133 ـ يوسف بن أصبغ بن خضر الأنصاري الطليطلي له جمع مسند موطأ مالك رواية القعني (174)

134 ـ يحي بن شراحيل البلنسي له كتاب في توجيه حديث الموطأ (175)

135 ـ يونس بن مغيث له الموعب في تفسير الموطأ (176)

136 ـ محمد بن عبد الله بن أحمد القيسي له اتراف السالك برواة الموطأ عن الإمام مالك (177)

د : عمر الجيدي

---

167) المصدر 82/2

168) المصدر 83/2

169) المصدر 82/2

170) تاريخ التراث 131/2

171) شجرة النور 381

172) تاريخ التراث 127/2

173) المصدر 125/2

174) جذوة المقتبس 373 والصلة 676

175) المدارك 40/7

176) شجرة النور 113 .

177) تاريخ التراث العربي 122/2

الغارُ

للشاعر الأستاذ محمد الحلوي

سجا ليل الجزيرة واستنامت ... روابيها وعانقها المساء
ونور في حواشيها قمير ... بطيء السير أجهده الفضاء
أحال رمالها الصفراء بيضاً ... ووشحها بما نسج الضياء
وعطر رحبها ريا عرار ... وأسكر من خزاماها الشذاء
وهبت في مفاوزها الحوالي ... صبا نجد نسائمها رخاء
وأطرق كل شيء في سكون ... مهيب لا يكدره حداء
فلا قطر القوافل ماخرات ... عباب الرمل يسبقها الرغاء
ولا القطعان تثغو في هجير ... فيزجيها إلى الماء الرعاء
ولا شدو الصبايا حول نبع ... ولا وتر يحركه غناء
سكون تسبح الأحلام فيه ... وليل في جلالته رواء
سرى فيه محمد وهو يصغي ... إلى همس تردده السماء
سرى في دربه هيان يحدو ... براحلتيه في المسرى سناء
وغادر بيته والقوم طوق ... يحيط به إلى دمه ظماء
رأتهم عينه وهم عيون ... مفتحة يجللها غطاء
صحوا من نومهم فإذا قواهم ... وما نسجته من مكر هباء
وسار بجنبه الصديق ظلا ... وسيفاً في مضاربه مضاء
يؤنسه الرفيق ويفتديه ... بأغلى ما يكون به الفداء

رأى نور النبوة وهو ومض   فعانقه وفي الدنيا عماء

يغذان الخطى في جوف ليل   بطيء النجم ليس له انتهاء

وحيدان استجارا بالفيافي   طريدان استفزهما العداء

لقد أرخت أعنتها قريش   وراء محمد وبدا الجفاء

وساد الذعر مكة فهي تغلي   واجزل في المطاردة العطاء

وهب سراقة في كل وادٍ   به للنوق والذهب اشتهاء

تلوحه الهواجر والسوافي   وتغرقه الرمال كما تشاء

وولت خيل مكة وهي خزيني   عليها من مهانتها لواء !

حمى الله النبي وطوقته   عنايته فحم له النجاء

وكان الله ثالث من أقاما   بغار من سناه يستضاء

تضمخ منها عطراً ففاحت   نسائمه وطاب به الثواء

وأفسح صدره نزلا رحيباً   وقصرا ليس ينقصه بهاء

تحف به الملائك في جلال   لها من حول هالته دعاء

ترفرف فوقه في يوم عرس   بثور قد أقيم له خباء

فواسعداً لغارٍ كان فيه   لطه من أعاديه احتماء !

فكم في الأرض من كهف وغارٍ   تعج به الصحاري والخلاء !

تقيم به الأوابد والأفاعي   وتسكن في مكانسه الظباء

وكم تهنا بساكنها ديار   وكم ينتابها منهم شقاء !

وأيدي العنكبوت متى تعالى   بما نسجت مصانعها بناء !

تلاحمُ نسجها بالغار باباً   سميكاً ليس يخرقه هواء

وعششت الحمائم في الحنايا   وحامت حوله إبل وشاء

ظلال لا تشف ولا ترى ما   وراها أعين فيها غشاء

ومن للمستجير بغير أهلٍ   ولا ولد إذا نفد الغذاء ؟

سوى ذات النطاق تدب ليلاً   على أكتافها تمر وماء

فلم يك في الرجال لها شبيه   ولم تنجب مثيلتها النساء !

•••

ويا أفراح يثرب والصبايا   مواويل وأعراس وضاء

تشيع الفرحة البيضاء فيها   ويغمرها بوافدها انتشاء

أحبوه وكان الحب فيضاً   ونبعا لا تكدره الدلاء

بإيثار عزيز أن يداني ... وأن يرق لقمته سخاء
وبوركت السواعد وهي تبني ... مصلاها محاولها قضاء
دوي صلاتهم في الليل نحل ... خلاياه يعج بها قباء
وجاء الفتح يحفل بالأماني ... وحم النصر وانكشف البلاء
تمنت أرض يثرب وهي تحيا ... ربيع العمر، لو دام اللقاء !
وما أحرى بطيبة يوم قامت ... تودع أن يساق لها الرثاء !

• • •

أبا الحسنين سقت إليك شعري ... وبين جوانحي داء عياء
وجرح لا يجف له نزيف ... مع الأيام ليس له شفاء
وأنت لكل ما نشكو طبيب ... وأنت لجرحنا الدامي الدواء
أبا الحسنين هذا الموج طام ... وأمتك التي ظلت غثاء
يمزقها التزلف للأعادي ... وتغرقها إلى القمم الدماء !
شعوب لا يوحدها جوار ... ولا قربى وأفئدة هواء
أضاعوا قدسهم وهم جميع ... وراموا رده وهم خواء!
فلا الأمم الحليفة أنجدتنا ... ولا خطب المجامع والهراء
تقاسم ودنا شرق وغرب ... وهم في بغض ملتنا سواء !
رضى هذي يهيج سخط أخرى ... فلا بغض أفاد ولا ولاء !
ولا البترول أغنانا فعشنا - ... بلا صدقاتهم وفشا الرخاء
وما يجدي ثراء المال شعبا ... فقير الروح ليس بها ثراء !
فيا دنيا المآتم ضاع صبري ... وأرهقني التجلد والعزاء
متى ينجاب هذا الليل عنا ... وتسطع فوق عالمنا ذكاء ؟
متى تبني سواعدنا صروحا ... من الأمجاد ضيعها البكاء ؟
متى نملي على الدنيا فتصغي ... ويجمع شمل أمتنا الإخاء ؟
أبا الحسنين هذا نحن فامدد ... يديك فأنت للغرقى الرجاء
وما للمسلمين سواك طوق ... ولا غوث إذا ارتفع النداء
وما ترضاه يرضى الله عنه ... وأقرب من دعاه الأنبياء
وهل تدعو فلا يعطيك سؤلاً ... وهل يلغى لمحبوب دعاء ؟
أسوق إليك - معتذرا - قريضي ... وما لي غير أن ترضى جزاء
وما للنسر أن يطأ الثريا ... بأجنحة وان ظهر ارتقاء
عليك سلام ربك والتحايا ... تخص علاك منه والثناء

حقوق الإنسان في الإسلام
ودور المغرب في تطبيقها والدفاع عنها.

للدكتور يوسف الكتاني

يعتبر الإسلام أكثر الأديان كلها رعاية للإنسان، وأعظمها عناية به وتقديرا له. باعتباره خليفة الله في الأرض، وأعظم مخلوقاته في هذا الكون، وهو الذي أعطاه قيمته الحقيقية، واعترف بإنسانيته، وجعله مناط تطور الكون وتقدمه، وتحقيق إرادة الله فيه، ولذلك حمله أمانة الحياة ومسؤوليتها، وأحاطه بكل معاني التكريم، حتى اعتبر الرسول الكريم حرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة المشرفة نفسها.

لذلك يعتبر الإسلام في حقيقته وهدفه وتوجيهه للناس، إعلاما وإعلانا إلاهيا لحقوق الناس وواجباتهم، وما ينبغي، أن يكونوا عليه منذ خمسة عشر قرنا، من قبل أن تعرف الإنسانية كلها هذه المواثيق البشرية والمعاهدات الدولية، التي تدعو إلى رعاية هذه الحقوق، والتي لم تلق حتى الآن حظها من التطبيق السليم، والرعاية الواجبة، رغم التطور الذي عرفته البشرية، والحضارة التي بلغها الإنسان في عصرنا الحالي، ولا شك أن هذا الإعلان الإلهي يعلو ويسمو، على كل المواثيق الوضعية والعهود البشرية، لكونه يقوم على الإيمان بالله، وابتغاء مرضاته ورغبته في ثوابه وخوفا من عقابه.

كما يقوم على الضمير الديني الموجه لتصرفات الناس، في السر والعلن وفي كل أحوالهم، وعلى مختلف مستوياتهم، وعلى أن ما يفوت ويمضي في الدنيا، لن يفوت في الآخرة، وعند من لا تخفى عليه خافية في الأرض وفي السماء.

وأمر آخر يمتاز به الإعلام الألهي عن سائر المواثيق الوضعية، هو أنه يرتفع بحقوق الإنسان، فيجعل رعايتها واجبا على المجتمع كله، على قادته وحكامه وقضاته، كما هي واجب على صاحبها، يدافع عنها ولا يتهاون في الحصول عليها، ومن أجل ذلك اعتبرت الشريعة الإسلامية، أداء الواجب قبل تقرير منح الحق والحرية، اعتبارا على أن النهوض بالواجبات ضمان لصاحب الحقوق والحريات، لأن ضمانها منشؤه التشريع بما فرض من تكاليف وواجبات، ومن ثم كان الانطلاق في الحقوق والحريات العامة لا يستقيم مع التكليف، لأن التكليف لا ينفصل معناه عن مفهوم الحريات العامة في الإسلام، إذ أن ثمة تلازما بينهما، فالواجب يقابله حق ولذلك قيل لا واجب بلا حق لأن التكاليف حقوق للغير.

لذلك كان تقرير حقوق الإنسان وحرياته العامة، منشأها التكاليف وهذه مصدرها الأحكام التي هي مصادر الحريات، لا ذات الإنسان كما هي عند الآخرين (1).

وقد نظم الإسلام الحريات العامة، على اعتبار أن الحرية منشأها التكليف والمسؤولية، لا حرية الإنطلاق والفوضى والإنسانية والهوى، والخضوع لهيمنة الأعراف السائدة والتقاليد الموروثة، وكانت العقيدة الإسلامية أكبر ضمان للحريات العامة لتقييد سلطة الحكم، لكون ذلك مقيدا بالعدل، حيث نظمت الشريعة كيفية ممارستها على نحو معروف، امتثالا لله وطاعة في التكليف، ووفاء بالأمانة التي حملها الإنسان، ولذلك قامت الحقوق على حقائق عقائدية، قبل أن تكون تصرفا سياسيا أو مجرد نظام دستوري.

فكل حرية عامة في الإسلام، ظهر للعقيدة والتقوى، قبل أن تكون أمرا آخر، ومن تم كانت ممارستها عبادة وخلقا، أداء للتكليف المبني على المسؤولية، وذلك ما ميزها وخصصها في الإسلام عن غيرها وهذا ما جعل الحرية في الإسلام حقا وواجبا معا، يؤكد ذلك أن حق الحياة مصون للإنسان شرعا، غير أنه في نفس الوقت واجب وتكليف تنهض المسؤولية عن أدائه والتصرف فيه، ولنضرب لذلك مثلا بحق الحياة نفسه، فإذا كان من حق الإنسان أن يحيا، فإن من واجبه أيضا أن يحيا، أداء أمانة التكليف، وعمارة الدنيا، في ظل العبودية لله وتنفيذ شرعه، فليست حياته حقا خالصا له يتصرف فيه كيف يشاء، وإنما خلق ليؤدي واجبا لنفسه ولغيره، ولا يتأتى هذا إلا إذا كان واجبا عليه أن يحيا، لأنه لم يخلق عبثا ولا سدى **﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾** (2).

ومن أجل ذلك، حرم الإسلام الانتحار واعتبره جريمة عظمى في حق الإنسان، بدليل خطورة العقاب الأخروي وباعتبار أن روحه ليست ملكا له لأنها ليست من صنعه، وإنما هي ملك لبارئها وخالقها، ومن تم كان الاعتداء عليها اعتداء على حق الله فيها، وقضاء على أداء مهمتها التي خلقت من أجلها، وفي ذلك يقول الإمام الشاطبي «ونفس المكلف داخلة تحت هذا الحق ـ أي حق الله تعالى ـ إذ لا يجوز له أن يعتدي على نفسه بالاتلاف» (3).

وإذا لم يكن جائزا للإنسان أن يعتدى على نفسه، لم يجز له بالأحرى الاعتداء على غيره لأن العدوان فيه أظهر وهو مصداق قول الله تعالى : **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** (4).

فهذا المثل يوضح بجلاء وظيفة حقوق الإنسان في الإسلام، لاتحاد عنصر الواجب والحق وتلازمهما، وهو معنى جديد لم تعرفه الإنسانية قبل الإسلام، سواء في المواثيق السالفة عليه أو حتى المواثيق المعاصرة.

لذا يكون الاعتقاد بثبوت هذه الحقوق شرعا بالتكليف والمسؤولية، هو منطلق ممارستها في المجتمع الإسلامي، تبعا لمفهومها المنوط بالطابع الاجتماعي الإنساني.

هذا ولا نعلم تشريعا غير الإسلام، يؤصل من الأحكام العملية والضمانات الحقيقية، ما يجعل اندماج حياة الفرد في حياة الأمة أمرا واقعا، بحيث تصبح قواما موحدا، كما تندمج الإرادات الفردية، بحيث تصبح إرادة معنوية عامة للمجتمع، يتقرر على ضوئها مصيرهم جميعا في حياتهم الدنيوية (5).

ومن أجل ذلك أبادر إلى القول، بأن ما ادعته وتدعيه الدول المعاصرة، من كونها كانت السباقة إلى الدعوة إلى حقوق الإنسان وتقريرها، وأن لها فضل الريادة في تطبيقها ورعايتها غير صحيح، وها هو التاريخ الحضاري والإنساني خير دليل وشاهد، فليس صحيحا أن الإنجليز والفرنسيين كان لهم فضل الريادة والسبق في المطالبة بها، والدعوة إليها في ثوراتهم ومواثيقهم. فقد تصور الناس نتيجة تأخر المسلمين، وتخلفهم عن السير بمقتضى أوامر دينهم، أن حقوق الإنسان مرتبطة بالعهد الأعظم الإنكليزي «ماجنا كارتا» الصادر سنة 1215 م أو ميثاق توم سنة 1737 م. أو إعلان الثورة الفرنسية سنة 1789 م، أو الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر سنة 1948 م.

1) حقوق الإنسان في التشريع الإسلامي ـ للدكتور فتحى الدريني ـ مجلة نهج الإسلام ص 32 ع 6 ذو الحجة 1401 ـ أكتوبر 1981.
2) سورة القيامة الآية 36.
3) المرافقات للشاطبي.
4) سورة البقرة الآية 195.
5) حقوق الإنسان في التشريع الإسلامي ص 39.

ولكن الذي علمته الإنسانية منذ خمسة عشر قرنا، والذي ينبغي أن يعلمه الناس اليوم، أن الإسلام أعلن هذه المبادئ وقررها منذ ظهوره، وكان السباق إلى الدعوة إليها وتقريرها ورعايتها، في أوسع نطاق وأكمل صورة، وأن الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، وقادة المسلمين وعلمائهم، كانوا أسبق إلى تقريرها وتطبيقها على نحو رائع، وبشكل ما تزال الأمم المعاصرة لم تبلغه، وإن مجرد مقارنة بسيطة بين الشريعات السابقة على الإسلام، وكذا المذاهب اللاحقة عليه، بما في ذلك المعاصرة، تظهر ريادة الإسلام وأسبقيته في هذا الباب.

إن الإسلام دون حقوق الإنسان التي قررها القران، دستور المسلمين وكتابهم العظيم، كما أكدتها السنة الكريمة، وعمل الخلفاء والعلماء وتاريخ المسلمين، ولقد امتلأ سمع الدنيا كلها بصوت الرسول عليه السلام، بالوحي المنزل عليه، يعلم البشرية كلها ويعلن لها كلها هذه الحقوق، في هذا البيان الرائع المعجز **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾** (6).

إن القرآن والسنة ظلتا دوما المنبع والمصدر، لكل حقوق الإنسان وحرياته، وقد حفلت نصوصهما بالمبادىء الإنسانية السامية لتلك الحقوق والحريات، وكان كل منهما مكملا للآخر في تفصيل وتدقيق معجز رائع وعلى هديهما سارت دولة الإسلام ومجتمعات المسلمين في مختلف العهود.

وإن أروع مثل للدعوة إلى حقوق الإنسان وحرياته، ومدى ما بلغته من تقدير ورعاية في دين الإسلام، ولدى رسول الإسلام، هي خطبته في حجة الوداع التي أبى عليه السلام إلا أن يضمنها في آخر وصيته للمسلمين، يضمنها دعوته للحفاظ على تلك الحقوق وصيانتها والدفاع عنها.

ونفضل أن نتحدث بعد هذه المقدمة، عن حقوق الإنسان أولا بأول حسب أهميتها وضرورتها ومقاصدها، وعن خطبة حجة الوداع والبيان الإسلامي حول حقوق الإنسان، والدور الرائد للمغرب في تطبيق هذه الحقوق والدفاع عنها طوال تاريخه.

1) حق الحياة : وهو حفظ النفس ويعنى عصمة الشخصية الإنسانية في عناصرها المادية، وهي سلامة الجسم بجميع أعضائه من الإتلاف، والمعنوية : أي الكرامة والأفكار الذهنية والمعتقدات وغيرها. وقد اعتبر الإسلام، حياة الإنسان المقصد الأول الذي ترجع إليه سائر المقاصد الأساسية، بعد المحافظة على الدين، لتوقفها جميعا على الإنسان نفسه.

ومن أجل ذلك دعا الإسلام وتشدد، في المحافظة على حياة الإنسان وحفظ نفسه من كل إتلاف أو اعتداء، وجعل ذلك في أعلى مراتب التكليف سواء بالنسبة للشخص نفسه أم في مواجهة غيره.

ولذلك اعتبر ازهاق النفس عمدا وعدوانا، أعظم جريمة في الكون، لا بالنسبة للمعتدى عليه أو ذويه فحسب، بل بالنسبة للإنسانية كلها، وقرر القرآن أن جريمة القتل دون حق، هي بمثابة قتل الناس جميعا، واحياءها في حكم احياء الناس جميعا.

﴿من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس، أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾ (7).

ومن هنا كان حق الحياة حقا وواجبا في آن واحد لارتباطه بالتكليف والأمانة التي حملها الإنسان، لعمارة الدنيا واستخلاف الله في الأرض، وتطبيقا لسننه في الكون.

لذلك حرم الإسلام على الإنسان الاعتداء على نفسه، وازهاقها أو اتلاف عضو من أعضائه، دون مقصد شرعي، أو السماح لغيره بشيء من ذلك، اللهم إلا إذا كان ذلك لتحقيق قصد شرعي، كجهاد العدو، أو المحافظة على الحياة، كبتر عضو مريض تتوقع منه السراية لبقية الجسم، وتعرضه للخطر المحقق.

6) سورة الحجرات الآية 14.
7) سورة المائدة الآية 32.

وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما**﴾ (8).

﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**﴾ (9).

﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ (10).

وتأسيسا على ذلك يقول الشاطبي في «الموافقات».

«ونفس المكلف داخلة في هذا الحق - أي حق الله تعالى - إذ ليس له التسليط على نفسه، ولا على عضو من أعضائه بالإتلاف» (11). واعتبرت السنة قتل النفس انتحارا، من أكبر الكبائر التي تستوجب الخلود في النار، فقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يتوجأ - أي يطعن بها نفسه - بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها ابدا، ومن تردى من جبل، فقتل نفسه فهو مترد، في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا». هذا ونلاحظ في هذا المقام، أهمية الشريعة الإسلامية وموقفها بالنسبة لحقوق الإنسان وخاصة حق الحياة، فخلافا للإسلام لم تعتبر أغلب التشريعات الوضعية الانتحار جريمة، ولم تتضمن نصوصها عقابا عليه، لأنها تعتبره دون جدوى وبعد وقوع الجريمة، ولكن الشريعة الإسلامية وسمو مقاصدها جعلت من شدة العقوبة وخطورتها عنصرا وقائيا يمنع من ارتكاب الجريمة والوقوع فيها، إضافة إلى ثنائية العقاب بجعله دنيويا وأخرويا، تأسيسا على العقيدة التي تجعل الله مصدر كل شيء ومرجع كل شيء.

﴿**تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا، وهو العزيز الغفور**﴾ (12).

ولهذا نرى انعدام جريمة الانتحار في بلاد المسلمين، بسبب هذا المقصد الإسلامي الأسمى، خلافا لما عليه الحال في الدول الأخرى، حيث لم يزدها تقدمها وتطورها إلا اغراقا في هذه الجريمة، وهاهي الدول الأسكندنافية التي تمثل أرقى الدول الأوربية حضارة، وتقدما، تعتبر جريمة الانتحار فيها أعلى نسبة في العالم كله، بسبب بعدها عن الدين، وقيام نظمها وقوانينها على المادية فحسب.

2) **الحرية** : لقد اعتبر الإسلام الحرية، دعامة لكل ما شرعه للناس، من عقائد ونظم وتشريعات، ولم يقيدها إلا في حدود الصالح العام، واحتراما لحرية الآخرين، وألغى كل نظام يتعارض مع مبدإ الحرية. وينبغي قبل أن تتحدث عن أقسام الحرية وأنواعها في الإسلام، أن نحدد معناها فيه، إذ الإسلام يتميز في هذا الباب عن المذاهب والنظريات والمبادئ الأخرى كلها.

إن الفرق بين إرادة الله وإرادة الإنسان، هو الذي يرتب الفرق بين حرية الله التي هي الحرية المطلقة الكاملة، والدرجة العليا في الحرية، لأنه الإله الذي يستطيع أن يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لإرادته، وهي الحرية الأزلية القديمة قدم الله، الدائمة بدوام هذه الحرية الخلاقة المبدعة، التي أنشأت العالم، والتي قالت لهذا الكون كن فكان، هذه الحرية هي التي تخلق بها الإنسان، وسعى في مجهوده البشري والروحي لأن يتخلق بها أي يكون حرا.

إن حرية الإنسان هي حرية الاختيار، وهي في الإسلام ليست حرية عقلية فقط كما يقول المثاليون، ولا حسية فقط كما يدعي التجريبيون، بل هي حرية تجمع بين الفكر والحس، وبين الإرادة والعمل، عن طريق الحياة، داخل الكون لا خارجه كما يزعم بعض الفلاسفة الشيوعيين.

«إنها حرية النفس أي الحرية الباطنية التي تنشأ معها الفكرة داخل الفكر الإنساني، سواء عن طريق التجربة، أو نشؤا استقلاليا، وهي التي يشعر الإنسان معها بحاجته وبضرورته، لأن يفعل الشيء أو لا يفعله، أو ينطلق أو لا ينطلق، أي حرية الاختيار، ولكنها ليست ملتزمة كما يدعي سارتر، ولا غير ملتزمة كما يقول «ديكارت» ولكنها

8) سورة النساء الآية 29.
9) سورة الاسراء الآية 33.
10) سورة البقرة الآية 195.
11) الموافقات 322/2.
12) سورة الملك الآية 1 و2.

الحرية التي تختار بالاختيار الذي أعطاه الله للإنسان، إن هذه الحرية ليست خارج الحركة، وليست خارج العالم، ولا داخل الطبيعة، ولكنها في الحركة نفسها، إنها الحركة التي يفكر بها الإنسان، والحركة التي يقبل بها الإنسان كما ذكر المفكر الإسلامي العظيم الدكتور إقبال (13).

وهنا يكمن الفرق بين الحرية في الإسلام، وعند الفلاسفة والمفكرين غير المسلمين، ذلك أن الإنسان حر في أن يفعل ما يشاء، ويترك ما يريد، ولكن هذه الحرية ممكنة فقط، أما في الواقع فإن الإنسان مقيد بألا يفعل الأشياء التي تضر بالآخرين، أو تمس بالمصلحة العامة، (أو بالصالح العام) وهذا القيد هو الذي يضمن تعميم الحرية للآخرين ولا يحد الحرية نفسها.

إذن فالحرية في الإسلام هي حرية شرعية فطرية باعتبار الواقع، وطبيعية فعلية، وهي تستمد سندها من قوله تعالى في عالم الأزل للعالم أجمع وللبشرية كلها، ﴿**ألست بربكم قالوا بلى**﴾ (14).

وهنا نجد التصور الإسلامي للحرية، ينطلق من الغاية من نزول القرآن، والتي كانت المقصد الأسمى له، وهي أنه نزع عن رقبة الإنسان نير العبودية لغير الله، ومنحه الحرية التامة في التفكير والتعبير عما في الضمير، وحارب عبودية الإنسان وحرم عليه أن يحل لغيره أو يحرم ما يشاء، أو يجعله يأمره وينهاه حسب هواه، واعتبر ذلك نوعا من الشرك والضلال، ولذلك كانت الحرية في الإسلام من نتائج التوحيد اللازمة له (15).

وقد اعتبر جدنا الشيخ محمد الكتاني الشهيد، في بداية هذا القرن الميلادي، أن ما أدركته أروبا من مدنية وعلم وتقدم، إنما مرجعه إلى الحرية التي عبر عنها الشرع الكريم، بالقسط والعدل والنصح وعدم المحاباة، والقيام في كل موطن وما يقتضيه، ومعرفة كل منصب وما يطلبه وعدم اهمال بعضهم بعضا، ومعرفتهم بحق من ظهر فيه أدنى نبوغ وتيقظ، وعدم اهماله حقه وعدم رفضه» (16).

13) أنظر المقدمة الرائعة التي كتبها المرحوم علال الفاسي في محاضرته عن الحرية ص 2 ـ 4 المطبعة الإقتصادية الرباط سنة 1959.

14) سورة الأعراف الآية 172.

15) التصور الإسلامي للحرية لأبي الأعلى المودودي مجلة المسلمون ع 6 ص 27 المجلد السادس ص 542 رمضان 1378.

ويمكننا أن نتحدث هنا عن أربعة أنواع من الحرية :

الحرية الدينية : لقد وحد الإسلام مفهوم الدين برسالة سيدنا محمد ﷺ، التي كانت آخر الرسالات إلى الأرض حيث قرر القرآن «أن الدين عند الله الإسلام».

﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ (17).

وترتب على ذلك أن «الإسلام يجب ما قبله»، لأنه دين الوحدة والبحث والعدل، والسماحة واليسر، ولأنه قضى على كل وثنية وظلم ودكتاتورية وتمييز.

ولكن الإسلام تميز في هذا الميدان ميدان الحرية الدينية بموقف كله إسماح وحكمة، ولذلك قامت الحرية الدينية في الإسلام على مبادئ أساسية أهمها :

1) أن الإيمان الصحيح يقوم على اليقين والاقتناع المنبعث من الفكر والنظر، وذلك هو ما دعا إليه الإسلام المؤمنين، أن ينظروا إلى الكون كله، ويفكروا في آيات الله بعقولهم وبصائرهم، وكان هذا الميدان الإسلامي العظيم، حدثا عظيما في تاريخ الأديان، وتاريخ الإنسانية كلها، وقد أخذ الله على المشركين تقليدهم الأعمى، وإهمالهم لإعمالهم الفكر والنظر، فيما يؤمنون وما يتبعون، وقال : ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون**﴾ (18).

ومن أجل ذلك كله ذهب العلماء، إلى أن إيمان المقلد غير صحيح حتى قال الشيخ عبده : «إن التقليد بغير عقل ولا هداية، هو شأن الكافرين، وأن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه، وعرفه بنفسه حتى اقتنع به» (19).

2) الإقناع بالمنطق والحكمة :

وقد هدى القرآن المؤمنين والمسلمين أن يلجأوا في مناقشاتهم وحوارهم لأهل الكتاب ولمن عداهم من أهل

16) رسالة المؤاخاة للشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني - مخطوط خزانة الزاوية الكتانية بسلا ص 3.

17) سورة آل عمران الآية 85.

18) سورة البقرة الآية 170.

19) حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي ص 223.

الأديـان وغيرهم، بـالحكمـة والعقـل والحجـة والمنطـق، والحسنى وعدم التعنت، ويكون ذلك عمادهم في حوارهم، وأن آي القرآن وأحاديث النبي ﷺ عامرة مليئة بذلك :

﴿أدع إلى سبيـل ربـك بـالحكمـة والموعظـة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ الآية... (20).

﴿ولا تجـادلـوا أهـل الكتـاب إلا بـالتي هي أحسن﴾ الآية... (21)، وبقوله:**﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمـانيهم، قل هـاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾** (22).

3) لا إكراه في الدين :

وتبعا لذلك، واعتمادا على الإيمان، الصادر عن العقل والنظر والإقناع، والمعتمد على الحجة والمنطق، وبعـد أن تبين أن الـدين عنـد اللـه الإسلام، الـذي أوضح الرشـد من الغي، لم يلجأ الإسـلام إلى إرغـام النـاس على ترك دينهم، وإجبارهم على اعتناق الإسلام وعلى هذا الهدي سـار رسول اللـه ﷺ وخلفـاؤه بعده، وعليـه سـار المسلمون وقد تبين ذلـك من معـاملـة الإسلام لأهل الأديـان الأخرى في سلمهم وحربهم، فكـانـو لا يرغمـون أهـل البـلاد المفتوحـة، على اعتنـاق الإسلام وترك مـا يـدينون بـه، وإنمـا يسمحـون لهم بالبقاء على دينهم، مع الطاعة وأداء الجزية، مقابل حمايتهم ومن كل اعتداء، واحترام شعائرهم ومعابدهم، تطبيقـا للآيـة الكريمة :

﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ الآية... (23).

ويكفينـا في هـذا البـاب مثلان رائعـان على سـاحـة الإسلام، وهمـا العهـد العمري مع أهـل بيت المقدس، ومـا تضمنـه من مبـادئ حتى أن عمر أبى أن يصلي في كنيسـة القيامة، احترامـا لهذا المبدإ وتطبيقـا لـه. والمثل الثـاني هو أن الإسلام لا يبيح للمتزوج بالكتـابيـة، ارغامهـا على ترك دينها أو عبادتها.

2) الحرية المدنية :

وهي أهليـة الإنسـان لتحمـل الإلتـزامـات والتمتـع بالحقوق، كإجراء العقود والتملـك، والتصرف وغيرها، وقـد كفل الإسلام الحريـة المـدنيـة للجميع ولم يميـز بين أفراد المجتمع الإسلامي، سـواء كـانـوا مسلمين أو ذميين، وجعلهم سواسية في التمتع بالحقوق والقيام بالواجبـات وممـارستهـا، فقال عليه السـلام : لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

كما سوى بين الرجل والمرأة سواء كـانت متزوجـة أو غير متزوجة، وضمن لها كامل شخصيتها المدنية، مستقلة عن زوجها، وفي سـائر التصرفـات. وقـد كـان الإسلام متميزا في هـذا البـاب، إذ لم يبلـغ مـداه ومقـاصـده، لا دين قبلـه، ولا مـذهب أو مبـدأ بعـده، ولـذلـك نحب أن نثير الانتبـاه إلى تقليد فاسد، أخذ ينمو وينتشر في مجتمعـاتنـا، وهو تسميـة المرأة باسم زوجها، مخالفة للإسـلام الذي حافـظ للمرأة على كـامل شخصيتهـا وبكل مقومـاتهـا، فلا معنى لتسميـة المرأة المتزوجة بالسيدة فلان، نسبة إلى زوجها، وهذا هو تاريخنا الإسلامي خير دليل وشاهد على بطلان وفساد هذا التقليد، فقـد كـانت أمهـات المؤمنين أنفسهن ينسبن إلى آبـائهن وكانت السيدة عائشة تسمى بالصديقية، أو عـائشـة بنت أبي بكر الصـديـق، وحفصـة بنت عمر وكـذا سـائر أمهـات المؤمنين، وما أروع أن نتـأسى بنبينـا وسيرتـه وسلوكـه، في كل أمر، ونترك هذه البدع الضالة التي أفسدت مجتمعـاتنـا، وغيرت مفاهيم الإسلام فيها.

3) حرية الرأي والتعبير :

وقـد ضمن الإسـلام لمعتنقيـه، التفكير المستقـل في جميع شـؤون حيـاتهم، ومـا يقع تحت إدراكهم من ظـواهر، والتعبير عن ذلك، بما يهديهم إليـه فهمهم، بمختلف وسـائل التعبير.

ولذلك أقر الإسلام هذا الحق في أوسع نطاق، وأعطى كل فرد حقه في إبـداء رأيـه، والتعبير عن إرادتـه بمـا يراه،

---

20) سورة النحل الآية رقم 125.
21) سورة العنكبوت الآية 46.
22) سورة البقرة الآية 111.
23) سورة البقرة الآية 256.

والجهر بذلك دون خوف أو عقاب، وهو ما جعل هذه الحرية مكفولة طوال تاريخ الإسلام، وفي أوسع حدود وقد كانت مجالا خصبا، أنتج تراثا إسلاميا ضخما رائعا، مما يفتخر به تاريخ الفكر الإسلامي وتاريخ المسلمين منذ عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وفي أغلب العهود الإسلامية، وظل هذا الحق مقدسا، محترما، مصونا، حتى كان الناس يتناقشون مع الخليفة نفسه، وهذه قصة المرأة مع عمر عندما نهى عن التغالي في المهور، مثل حي على قدسية هذا الحق ورجوع عمر إلى الصواب عندما ردته قائلا :

«أصابت امرأة وأخطأ عمر» وكما كان الشأن دائما على عهد عمر بن عبد العزيز، حينما يتناقش الناس في مجلسه عن أمور الدين والدنيا، ويبدون آراءهم بكل حرية وصراحة وصدق.

وفي هذا الباب يفتخر الإسلام، بإباحة مبدإ الاجتهاد، الذي كان مظهرا حيا للأمة الإسلامية، وباعثا على تجددها وتطورها وهو حق كل قادر أن يجتهد ويستنبط الأحكام من أصولها وأدلتها، ويعمل ما يراه، ويجهر بما انتهى إليه، حيث أقر الإسلام احترام رأي المجتهد ولو كان مخطئا، وضمن له الأجر على اجتهاده «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم، فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» (24).

ومن هنا نجد الإسلام أقر الحرية العلمية في أوسع نطاق، ولم يعرض أية نظرية علمية معينة بصدد أية ظاهرة من ظواهر الكون، وأتاح للعقول والأفكار حرية التفكير والتعبير، وحثهم على استعمال عقولهم وأبصارهم، ومداومة النظر والفكر، فيما يحيط بهم من مخلوقات الله وعوالمه.

وفي هذا المجال أيضا يتميز الإسلام بأنه لم يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حقا فحسب، بل فرضا

24) رواه البخاري : فتح الباري 318/13 ص دار المعرفة.. لبنان.

25) رواه البخاري فتح الباري 308/11.

26) سورة التوبة الآية 71.

وواجبا على كل مسلم، وهو ما لم يعرفه دين آخر غير الإسلام.

وقد رسم الرسول الكريم حدود هذه الحرية، وأحاطها بسياج من الحيطة والاحترام، حتى لا يخرج الناس بها عن مقاصدها وأغراضها، التي توخى الإسلام من إقرارها لتكون خيرا على الناس، وليست نقمة وشرا فلننظر إلى القول النبوي الكريم في هذا الباب «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت» (25)، وكأن هذا القول بالذات موجه إلى الشعراء المبالغين، وإلى الصحافيين المتحاملين، أن يتقوا الله في أعراض الناس وشؤونهم، وفيما يكتبون وما يروجون.

ذلك أن المهم في الحرية ليس وجودها، بل استخدامها فهي لا توجد إلا عند ممارستها وتطبيقها، وهو ما ينبغي لنا أن نفعله بجعل الحياة الإنسانية، تزدهر بالتأييد الصادق للصواب، والدحض الشجاع للخطإ. لذلك كانت حرية الفكر في الإسلام ليست مطلقة، بل في حدود أصوله وأحكامه، فقد أوجب على المسلمين أن يأمروا الناس بالخير ويساعدوهم عليه، وينهوهم عن المنكر ويمنعوهم عنه، ولم يبح لهم فقط الاعتراض على الشر بل منعه وإزالته.

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ (26).

وقول الرسول ﷺ «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (27).

وقد اعتبر الإسلام التزام الصمت والموقف السلبي من الشر والمنكر، وعدم محاولة كفه ومنعه، اعتبره ذنبا عظيما

27) حديث صحيح - مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى 295/2 و296 درا احياء الكتب العربية 1954/1373.

في حق المجتمع الإسلامي، الذى أوجب الله على كل المسلمين تطهيره وحمايته.

لذلك ذكر القرآن أن سبب انحطاط بني اسرائيل وتأخيرهم هو عدم تناهيهم عن المنكر :

﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ (28).

3) المساواة :

كان من بين الحقوق الأساسية التي شرعها الإسلام، وقررها للناس وأوجب تطبيقها والعمل بها، حق المساواة الذي يعتبر في شريعة الإسلام أساسا لعلاقة الناس ببعضهم، ومظهرا من مظاهر العدالة الاجتماعية، وركيزة لكرامة الشخص واعتبار قيمته الإنسانية.

ولذلك أوجب الإسلام تطبيق حق المساواة والتمسك به، في جميع نواحي الحياة، ونادى بالعمل به في الحقوق المدنية، والمؤولية والعقاب، وفي جميع الحقوق العامة.

ومن أجل هذا يعتبر الإسلام بني البشر جميعا، متساوين في طبيعتهم البشرية، وألا تفاضل بينهم، بحسب الخلق، أو العنصر أو السلالة أو اللون، وإنما هم يتفاضلون، بكفايتهم وأخلاقهم وأعمالهم، وذلك مصداقا لقوله تعالى :

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (29).

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ (30).

وقد عمل الرسول ﷺ بقوله وفعله طوال حياته، على تطبيق هذا المبدأ الإسلامي العظيم، باعتباره أصلا من أصول الإسلام، وأساسا من الأسس التي يقوم عليها مجتمع المسلمين، وقد أبى في خطبة الوداع إلا أن يؤكد ذلك، ويدعو الأمة إلى التمسك بهذا الحق واعتباره فقال في خطبة الوداع :

﴿أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب﴾.

وقد غضب غضبا لم ير مثله على وجهه، عندما سمع أبا ذر الغفاري يحتد على بلال ويعيره بلونه قائلا :

يا ابن السودا، فزجره الرسول ورده بقوله : «يا أبا ذر أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية، اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتوهم فأعينوهم» (31).

فاستجاب أبو ذر لأمر الرسول ﷺ، ووضع خده على الأرض، وأقسم أن يطأه بلال برجله توبة وتكفيرا، عما صدر منه من أخلاق الجاهلية. إن أفضلية الإسلام وريادته في هذا المجال، تظهر في أنه لا يقر المبادئ الضالة التي عرفتها الإنسانية قبله، وهذه الجاهلية التي عادت إليها الإنسانية حتى في عصر التمدن الحالي لقد شجب الإسلام تلك الامتيازات التي قامت في مجتمع الهنود والرومان واليونان، من تمييز الناس بعضهم على بعض، بحسب العنصر أو الجنس أو التكوين ولذلك حرم التفاضل الذي ميز الشعوب عن بعضها، والأوصاف التي أطلقتها على نفسها، كالشعب المختار، وشعب الله، ومن شعوب ناقصة، وأخرى كاملة الإنسانية بحسب نشأتها وطبيعتها الأولى، وبالتالي ذلك التمييز الذي قام بين الناس تبعا لتلك الأوصاف، فهذا كله حرمه الإسلام وألغاه، واعتبره جاهلية وانحطاطا للإنسانية عن مكانتها الرفيعة، التي وضعها الله فيها بقوله :

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾ (32).

---

28) سورة المائدة الآية 79.
29) سورة الحجرات الآية 13.
30) سورة الاسراء الآية 70.
31) صحيح البخاري 13/1 دار الفكر.
32) سورة النساء الآية 1.

والتي نادى بها الرسول وطبقها في قوله :

«الناس سواسية كأسنان المشط ولا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح كلكم لآدم وآدم من تراب».

وتطبيقا لهذا المبدإ وعملا به، لا يقر الإسلام هذه الدعاوي الجاهلية التي عادت إلى الظهور، وانتشرت اليوم، من التمييز بين الشعوب حسب ألوانها، واعتبار الرجل الأبيض سيد العالم، وتمييزه في المعاملة وسائر الحقوق، عن الرجل الأسود، في التعليم والوظائف، كما يحصل الآن في جنوب افريقيا وبعض مدن أمريكا مثلا ان الاسلام جعل من بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، دعاة وقادة وحكاما، حتى قال الرسول عن سلمان، إنه من أهله وأهل بيته، وهذا هو منتهى التكريم والتقدير للإنسان باعتباره إنسانا فحسب.

إننا نلاحظ تطبيقات الإسلام لمبدإ المساواة وتأصيله في جميع المجالات وفي كل النواحي فيما يلي :

التسوية بين الناس في الحقوق المدنية والمسؤولية والجزاء. كحق التملك والتعاقد وغيرها، وفي أن كل شخص مسؤول عن عمله يثاب إن أحسن، ويعاقب إن أساء، على أساس العدالة الإسلامية التي تشمل الناس جميعا بميزان واحد.

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، أن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وأن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾.

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾... (33).

وقول الرسول :

«إنما أهلك من كان قبلكم، إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقامو عليه الحد والذي نفس محمد بيده لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» (34).

وما يزال قول عمر في رسالته إلى أبي موسى الأشعري التي تعتبر دستور القضاء ونبراسا مضيئا بين المسلمين يعطي للإنسانية المثل الحي، في المساواة والتشبت بها قال يوصيه، «أمن بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك».

كذلك سوى الإسلام بين الناس في حق التعليم، وجعله فريضة فقال : «تعلم العلم فريضة على كل مسلم».

وكما سوى بينهم في حق التعلم وجعله فريضة، سوى كذلك بين الناس في حق العمل وجعله عبادة، وأعلى من شأنه، حتى شارك النبي أصحابه في بناء المسجد النبوي وقال : «ما أكل أحد طعاما خيرا من عمل يده، وأن نبي الله داود كان يأكل من كد يده».

كذلك سوى الإسلام بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق، وفي شؤون المسؤولية والجزاء، **﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾** (35).

﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو أكثر نصيبا مفروضا﴾ (36). وسوى بينهما في الحقوق المدنية على اختلاف أنواعها، لا فرق بين المرأة المتزوجة وغيرها، والزواج لا يفقد المرأة شخصيتها المدنية، وممارسة كامل حقوقها، والمحافظة على إسمها وشخصيتها، ولم يفرق الإسلام الجنسين في الحقوق، إلا من حيث تدعو إلى ذلك مراعاة طبيعية كل من الجنسين في الحياة، وما يصلح له، وكفالة الصالح العام وصالح الأسرة، وصالح المرأة نفسها.

كذلك سوى الإسلام بين المسلمين وغيرهم، فأعطى للذميين في المجتمع الإسلامي نفس الحقوق التي

---

33) سورة النساء الآية 58.

34) صحيح البخاري 91/5 دار الفكر.

35) سورة النحل الآية 97.

36) سورة النساء الآية 7.

للمسلمين، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

وأوجب أن تقاتل الدولة عنهم، كما تقاتل دون رعاياها المسلمين، وتطبق عليهم نفس التشريعات، اللهم إلا ما يتعلق بشؤونهم الدينية، ونذكرها من باب التمثيل بعض القواعد المقررة للذميين في الدولة الإسلامية.

لا توقع على أهل الذمة الحدود الإسلامية فيما لا يحرمون، ولا يدعون إلى القضاء في أيام أعيادهم «أنتم عليكم خاصة ألا تغدو في السبت».

«من قذف ذميا حد له يوم القيامة بسياط من نار» (37). من آذى ذميا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة» (38).

إن ما قرره الإسلام في هذا الباب، من حق المساواة وكفالتها لجميع الناس، دون تمييز أو مراعاة لأي اعتبار، دون ما تطبقه وتعيشه أرقى الدول اليوم، مما يحتفظ للإسلام بالأفضلية والمثالية، فما تزال المرأة الأوربية وبمقتضى القوانين متجردة من صفة الأهلية، في كثير من الشؤون المدنية، فإن الفصل 271 من القانون المدني الفرنسي (قانون نابليون) يقرر أن المرأة المتزوجة، لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها، ولا أن ترهن، ولا أن تملك بعوض أو بغيره، بدون اشتراك زوجها في العقد، وموافقته عليه موافقة كتابية.

ومن ذلك أيضا على سبيل المثال، أن المرأة الأوربية بمجرد زواجها، تفقد اسمها واسم أسرتها، وتحمل اسم زوجها وأسرته، وهذان المثلان كافيان لتدليل على فقدان المرأة المعاصرة لشخصيتها المدنية، خلافا لما قرره الإسلام، ولما ينبغي أن يكون وأن تسير عليه ونحكم بمقتضاه، وقد ضرب الرسول أحسن الأمثلة في تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة في حق العلم والثقافة، وحرصه على تعليم المرأة وتثقيفها.

فقد روى البلاذري في «فتوح البلدان» أن الشفاء العدوية، كانت كاتبة في الجاهلية، وكانت تعلم الفتيات، وأن حفصة بنت عمر تعلمت منها القراءة والكتابة، قبل زواجها بالرسول ﷺ، فلما تزوجها طلب إلى الشفاء أن تتابع تعليمها وتثقيفها، وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه، كما علمتها الكتابة (39).

4) الحقوق الاقتصادية في الإسلام :

ونحب أن نلفت النظر إلى أن حقوق الإنسان الاقتصادية، لم يعرفها العالم إلا حديثا، إذ أن المطالبة والاعتراف بها لم يبدأ إلا مع الحركات الاشتراكية الحديثة في أوربا، منذ القرن التاسع عشر، حيث ارتبطت دائما حقوق الإنسان في أوربا وغيرها، بالحقوق السياسية والحريات العامة، ولم تتعداها، ولم تظهر هذه الحقوق بصورة قانونية، ولم تعترف بها الحكومات إلا منذ ثلث قرن فقط أي سنة 1948، عند صدور الإعلان العالمي الذي تضمن بعض المواد الخاصة بها، أما الإعتراف بهذه الحقوق فلم يتم إلا سنة 1966، عند صدور الميثاق الدولي لحقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية، وأما قبل هذا، فلم تكن هذه الحقوق معترفا بها اطلاقا، حتى في البيان الذي أصدرته الثورة الفرنسية سنة 1789، فأنه لم يتضمن مادة واحدة، تتعلق بالحقوق الاقتصادية.

أما عندنا في الإسلام، فقد تقررت هذه الحقوق منذ البداية، ومنذ جاء الإسلام ودعا رسول الله الإنسانية كلها، إلى دين صالح لكل زمان ومكان، وفيه سعادة الدارين جميعا.

ومن هنا كانت الحقوق الاقتصادية في الإسلام، منبثقة عن النظام الإسلامي، الذي يعتبر نسيخ وحده، منقطع النظير بين النظم السابقة واللاحقة، لا يدانيه نظام في سموه ومبلغ تحقيق الخير، لصالح الأفراد والجماعات لكونه :

يقرر الملكية الفردية ويحيطها بسياج من الحماية ويذلل أمام الفرد سبل التملك والحصول على المال ويشجع على العمل ويعطي لكل مجتهد جزاء اجتهاده من ثمرات الحياة.

---

37) مختصر شرح الجامع الصغير 320/2.

38) المصدر السابق 269/2.

39) حقوق الإنسان في الإسلام ص 42.

ويفسح المجال أمام المنافسة والعمل على التفوق والإبداع والابتكار.

ويحقق تكافؤ الفرص بين الناس.

وينظم وظيفة رأس المال ويحيطه بكل ما يمنعه من السيطرة والاستغلال ويحول دون تضخم الثروات وتجميعها في يد واحدة بما قرره من إرث ووصية وزكاة وصدقات وكفارات.

ويجعل ملكية الأشياء الضرورية لجميع الناس ملكية جماعية.

ويبيح نزع الملكية الفردية للصالح العام.

وبذلك قام النظام الاقتصادي الإسلامي على أساس : أن الإنسان غاية لا وسيلة.

قيام العلاقات الاقتصادية بين الناس على أساس أخلاقي تحقيقا للتكافل والتعادل والتضامن الاجتماعي.

تحريم طرق الكسب غير المشروع، وهي التي تقوم على استغلال النفوذ والربا، والرشوة والغش، والابتزاز، والتحكم في ضروريات الحياة. الترغيب في الإنفاق والتصدق بكل ما زاد عن الحاجة من أجل الصالح العام.

جعل اكتناز المال وعدم انفاقه في سبيل الله من أكبر المعاصي. حق المسلم في الغذاء والكساء والعمل بغض النظر عن أي اعتبار. وكفالة الدولة لهذه الحقوق.

أن من شأن هذه المبادىء أن تحقق استقرار التوازن الإقتصادي بين الطبقات والأفراد.

وتضيق المسافات بين الناس بتقريبهم بعضهم من بعض. وتكفل للجميع حياة إنسانية كريمة يأمن فيها كل فرد على حياته وأمنه واستقراره (40).

لذلك كله نجد النظام الاقتصادي الإسلامي يختلف عن الشيوعية لأنه يعترف بالملكية الفردية ويحميها.

وعن الرأسمالية لأنه يقيد رأس المال ويجرده من وسائل السيطرة والنفوذ. وعن النظم اليمينية المتطرفة لأنه يفرض رقابة على الملكية الفردية وعلى رأس المال الفردي.

وعن الأنظمة اليسارية المتطرفة لأنه لا يسمح باضعاف رأس المال الفردي بل يفسح له المجال للقيام بوظيفته في حدود الصالح العام بوصفه عاملا من عوامل الإنتاج.

ومن هنا لا ينبغي التزلف للأنظمة المعاصرة، وتشبيه الإسلام بها، والقول باشتراكية الإسلام، وديمقراطية الإسلام، فالإسلام ليس هذا ولا ذاك، للعيوب التي تشتمل عليها كل هذه الأنظمة الوضعية، بل هو الإسلام الدين الكامل الصالح، لسعادة البشرية واستقرارها في كل العصور، وقد حقق للإنسانية عندما طبقه الرسول وصحبه ومن بعدهم، الكفاية والعدل، والاستقرار والأمن، حتى عرضت الزكوات على الناس في عهد عمر بن عبد العزيز، فلم نجد من يقبلها، لكفاية الناس وعدم حاجتهم عن طريق العدالة الاجتماعية التي كان الإسلام أول من وضع قواعدها، ودعا إلى إشاعتها وتطبيقها، بإنصاف الكادحين والفقراء، والمحتاجين وفرض للجائع والعريان تحت أي ظرف من الظروف حقه في الطعام والكساء، وللمريض والمصاب، الحصول على وسائل العلاج، سواء كان صديقا أم عدوا، باعتبار هذه الحقوق من الحقوق الأساسية التي هي حق لجميع الناس، حتى إن الرسول ﷺ أدان المسلم «إذا بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم بذلك» وأن «من له فضل من ظهر أي مركوب فليعد به على من لا ظهر له»، وعلى أن طعام الواحد يكفي الإثنين، وطعام الإثنين يكفي الأربعة، «ولا يموت الناس على انصاف بطونهم» كما نادى عمر في عام المجاعة، وحتى أوجب الإسلام على الأغنياء من الأقرباء الإنفاق على الفقراء، والعاجزين عن الكسب من ذوي قرباهم، وأوجب على أهل كل حي وقرية وبلدة أن يعيشوا في حالة تكافل وتعاطف، يرق الغني للفقير، والقادر لصاحب الحاجة، وجعل الجماعة مسؤولة عن الفرد الضائع بينهم، «أيما أهل عرصة أمسوا وفيهم جائع فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله» وحتى ذهب عبد الله بن عمر في شرح قول الرسول ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» بأن من ترك أخاه المسلم يجوع ويعرى، وهو قادر على طعامه وكسوته، فقد ظلمه وأسلمه، وقد أكد هذا المعنى ابن حزم في «المحلى» بقوله : «وفرض على الأغنياء، من أهل كل بلد، أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، وإن لم تقم

40) المصدر السابق ص 56 و57.

الزكوات بهم، ولا في سائر أموال المسلمين بهم فيقام لهم بما يأكلون، من القوت الذي لا بد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ويمسكن يكنهم من المطر والصيف وعيون المارة...»

كما جعل الإسلام على بيت المال، الإنفاق على القاصرين عن الكسب كالشيخ الفاني، المرأة التي لا تجد من ينفق عليها، ولا فرق بين المسلم والذمي في ذلك، وقصة عمر مع الذمي الضرير معروفة مشهورة.

خطبة حجة الوداع :

وقد توج الرسول الكريم ﷺ حياته بخطبته في حجة الوداع التي تجمع فيها أكبر عدد من المسلمين حينئذ، وقد ضمن تلك الخطبة وصيته إلى الأمة الإسلامية، وما ينبغي لها أن تشد عليه بالنواجد من بعده، لتعيش مؤمنة كريمة مستقرة، وكان أعظم ما وصى الأمة به، بل البشرية كلها، هو الحفاظ على معالم الدين، واتباع أوامره، والانتهاء عن نواهيه، وكانت هذه الخطبة إعلانا عظيما جامعا، للدعوة إلى رعاية حقوق الناس، وعدم الاعتداء عليها، يقول عليه السلام :

«أيها الناس :

«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت اللهم فاشهد» (41).

«أيها الناس :

«إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى».

فلنفتخر نحن بديننا، ولنتأس برسولنا، هذا الرسول الذي يأبى في آخر خطبة له إلى الناس وهو يودع الدنيا. يأبى إلا أن تكون وصيته الأخيرة إلى الأمة، دعوة إلى رعاية حقوقهم، والتشبث بها، وعدم الاعتداء عليها، لأنها أساس كل استقرار وتضامن بين الإنسانية كلها، وما أحرانا اليوم أن نعود إلى هذه الوصية الخالدة، فنعمل بها ونسير على هديها.

البيان العالمي عن حقوق الإنسان في الإسلام :

ومن مظاهر صحوة المسلمين في مطلع القرن الهجري الجديد، الخطوة العملية التي تسير بهم إلى مجال التطبيق العملي للإسلام، في مجتمعاتهم وحياتهم، والتي تؤكد ريادة الإسلام في هذا المجال ونعني البيان الذي أعلنه المجلس الإسلامي الدولي، وصدر من منظمة اليونسكو بباريس، بمساهمة نخبة من كبار مفكري المسلمين. إن هذه الوثيقة التاريخية تؤكد، أن حقوق الإنسان في الإسلام ليست منحة من ملك أو حاكم، وليست قرارا صادرا من سلطة محلية أو منظمة دولية، وإنما هي حقوق ملزمة بحكم مصدرها الإلهي، لا تقبل الحذف ولا النسخ ولا التعطيل، ولا يسمح بالاعتداء عليها، ولا يجوز التنازل عنها (42).

كما يؤكد البيان بأن اقرار هذه الحقوق، المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، هو المدخل الصحيح لإقامة مجتمع إسلامي حقيقي، يكون الناس فيه جميعا سواء، لا امتياز ولا تمييز بين فرد وآخر، على أساس من أصل أو عنصر أو جنس أو لون أو لغة، مجتمع تتحقق فيه حرية الإنسان وأمانه من الكبت والقهر والإذلال والاستعباد، وتصبح فيه الأسرة نواة المجتمع، ويتساوى فيه الحاكم والرعية، وتحكم الناس بالشورى، والعدل، وتتكافأ فيه الفرص ويرفض فيه كل ألوان الطغيان.

لقد تضمن البيان ثلاثة وعشرين حقا من الحقوق، التي كفل الإسلام وهي : حق الحياة، والحرية، والمساواة، والعدالة، والمحاكمة العادلة، والحماية من تعسف السلطة، والحماية من التعذيب، وحماية العرض والسمعة، واللجوء، والأقليات، والمشاركة في الحياة العامة، وحرية التفكير، والاعتقاد والتعبير، والحرية الدينية والدعوة، والبلاغ والحقوق الاقتصادية، وحماية الملكية، وحق العامل وواجبه، وكفاية الفرد من مقومات الحياة، وبناء الأسرة

(41) صحيح البخاري ج 5 ص 126 و127 كتاب المغازي - باب حجة

(42) أنظر تقديم الأستاذ سالم عزام أمين عام المجلس للوثيقة.

وحقوق الزوجة والتربية، وحماية خصوصيات الفرد وحرية الارتحال والإقامة.

وهكذا نجد الخطوط العريضة للبيان عن حقوق الإنسان في الإسلام كما يلي :

- دار الإسلام واحدة وهي وطن كل مسلم.
- الناس جميعا سواسية أمام الشريعة.
- ليس لأحد أن يلزم مسلما بأن ينفذ أمرا يخالف الشريعة.
- الأوضاع الدينية للأقليات يحكمها المبدأ القرآني «لا إكراه في الدين».
- لا يجوز انتزاع ملكية نشأت عن كسب حلال إلا للمصلحة العامة.
- لا يجبر الفتى أو الفتاة على الزواج ممن لا يرغب فيه.
- للزوجة أن تطلب الطلاق في حدود الشرع.
- سرائر البشر إلى خالقهم وحده وخصوصياتهم حمى.

لقد رسم البيان الإسلامي العالمي صورة رائعة لحقوق الإنسان في الإسلام، وقننها بطريقة نموذجية موجزة، تسهل معرفتها وتيسر تطبيقها، وحبذا لو عمم هذا البيان ليتمكن تلاميذنا وطلابنا في المدارس والجامعات من معرفته ودراسته.

الدور الرائد للمغرب في تطبيق هذه الحقوق والدفاع عنها :

منذ أن فتح المولى إدريس الأول المغرب بالإسلام، وأسس بربوعه دولة فتية، استطاعت في فترة وجيزة بفضل الإسلام، أن توحد كلمة المغاربة جميعا، وأن تضمن لهم الاستقرار والكفاية، والعدل والتطور مما جعل الدول التي توالت على حكم المغرب، تتمسك كلها بقيم الإسلام وتعاليمه، وتقيم نظامه على أساسه وهديه.

ومن هنا كان إيمان المغاربة، بعدالة مبادىء دينهم، وصلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان، ومن هنا ظل ملوكنا وقادتنا على إيمانهم وتشبثهم بدينهم، وعملهم الدائب في سبيل ارساء معالمه وقيمه في الداخل والخارج.

ومن صفحات تاريخنا المجيد، وسير ملوكنا وقادتنا، نستشف مدى هذا الإيمان العميق، والتشبث الكبير بحقوق الإنسان وتطبيقها والدفاع عنها، سواء في ممارسة الحكم وسياسة الرعية في السلم والحرب في الداخل والخارج، في علاقة الحكام بالأمة أو علاقاتهم بالدول الأجنبية.

وهكذا نجد المولى إدريس الأول يعلن في أول خطبته للناس، بمجرد مبايعته، تشبثه بالحق ودفاعه عنه وقيام حكمه ودولته عليه، قال : «أيها الناس، لا تمدن الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا..» (43).

ولما فرغ إدريس الثاني من بناء عاصمة الدولة «فاس» صلى بالناس الجمعة وخطب فيهم موضحا أساس دعوته، ومبادىء حكمه، وأسلوب سياسته التي تقوم على التمكين من الحقوق، وأداء الواجبات، وإقامة حدود الشريعة ومعالمها، سعيا وراء الخير والأمن والكفاية يقول : «اللهم إنك تعلم أنني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة، ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد بها ويتلى بها كتابك، وتقام حدودك، وشرائع دينك، وسنة نبيك محمد ﷺ ما بقيت الدنيا، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير، وأعنهم عليه، وأكفهم مؤونة أعدائهم، وادر عليهم الأرزاق واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق إنك على كل شيء قدير» (44).

وعندما انتقل الأمر إلى الدولة المرابطية، تجد ملوكها وأمراءها وقادتها، كانوا أكثر تشبثا بالإسلام وتطبيقا له، وتمكين الناس من حقوقهم ورعايتهم، فعندما أراد أبو بكر بن عمر اللمتوني، أن يولي يوسف بن تاشفين مكانه، أوصاه بالمحافظة على حقوق الرعية وعدم تضيعها ومراعاة تقوى الله في سلوكه معهم، وسياستهم بالعمل الصالح والعدل بينهم قال : «إني قد وليتك هذا الأمر، وإني مسؤول عنه، فاتق الله تعالى في المسلمين، فأعتقني واعتق نفسك من النار، ولا تضيع من أمور رعيتك شيئا، فإنك مسؤول عنه،

---

43) الاستقصا 141/1.

44) المصدر السابق 152/1.

والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك، وهو خليفتي عليك وعليهم (45).

كما تجد سيرة يوسف ابن تاشفين، كانت مثالا للعدل والمحبة والعفو والصفح، وإقامة معالم الحق والخير والشورى بين الناس، فقد وصفه ابن الأثير بقوله :

«كان حسن السيرة خيرا عادلا، يميل إلى أهل العلم والدين، ويكرمهم ويحكمهم في بلاده، ويصدر عن رأيهم، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام» (46).

وعرف الناس على أيام الموحدين نهضة كريمة، وعزة ورفعة، أساسها القيام بحقوق الناس، والورع في الدين، وإقامة الحدود وفي ذلك يقول ابن خلكان عن المنصور :

«... قام بالأمر أحسن قيام، ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، ونظر في أمور الدين والورع، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه، وعظمت الفتوح...» (47).

وكذلك سار الأمر على عهد الدولة المرينية، التي كان ملوكها وأمراؤها متشبثين بحقوق الرعية، دابين عن معالم الدين، قوامين بالقسط، ناشرين للعدل، مطبقين للشرع، وفي مقدمة هؤلاء الملوك عبد الحق وأبو الحسن المرينيان، فقد كان عبد الحق مشهورا في قومه بالتقى والفضل والدين، موسوما بالصلاح وصحة اليقين معروفا بالورع والعفاف، موصوفا في سيرته بالعدل والإنصاف، يطعم الطعام ويكفل الأيتام، ويؤثر المساكين ويحنو على المستضعفين..» (48).

وتميز الملوك السعديون بحسن السياسة والعطف على الرعية، والدفاع عن المسلمين، والقيام بحقوقهم ورعاية شؤونهم ونشر العلم فيهم ومشاورتهم. وقد تميز بذلك جل ملوكهم وخاصة المنصور الذي وصفه الناصري بقوله :

«كان المنصور السعدي حسن السياسة حازما يقظا، مشاورا في مبهمات الأمور وقد اتخذ يوم الأربعاء للمشورة وسماه «يوم الديوان» يجتمع فيه وجوه الدولة ويتطارحون فيه وجوه الرأي، فيما ينوب من جلائل الأمور، وعظيم النوازل، وهنالك يظهر شكايته للسلطان من لم يجد سبيلا للوصول إليه» (49).

ولما انتقل الأمر إلى الدولة العلوية، سارت في طريق من سبقها من الدول، بالدفاع عن حقوق الإنسان، واحترام كرامته وتوفير العدل له، سواء داخل المملكة أو خارجها، علما بأنه في هذا الوقت، الذي كان ملوكنا يكافحون ويدافعون، عن حقوق مواطنيهم ويرعونها، ويسهمون في تحرير الإنسان أيا كان، في الداخل والخارج، كانت بلاطات ملوك أوربا وممالكها، تعج بالأرقاء الذين استعبدوا، عن طريق الأسر والقرصنة التي طالما تنافس أمراء أوربا فيها، وسارعوا إليها، مما دفع ملوكنا إلى عقد المعاهدات والسعي لديهم، لتحرير الناس وافتدائهم بالأموال والقروض، مما ساهم بحظ وافر، على تقليص الأسرى بين الأمم، والقضاء عليه وإشاعة الحرية وإقرار كرامة الناس.

إننا نستشف هذا العمل التحرري العظيم، والسلوك الحميد شاهدا قائما في سير ملوكنا، وسجلات أعمالهم، وفي وثائق البيعة التي تعتبر دساتير لحقوق الإنسان، وفي شتى المواثيق والمعاهدات التي عقدت بين ملوكنا وبين غيرهم، من ملوك الدول والأمم وسنكتفي بأمثلة من مواقف الملوك العلويين في هذا المجال.

لقد كان في المقدمة المولى اسماعيل، وهو الذي خطا الخطوة الأولى في مجال تحرير الرقيق، والتي كانت الأساس الذي سار عليه فيما بعد خلفاؤه، وحققوا للإنسان صفحات رائعة في هذا الميدان.

لقد أصدر قراره بمجرد بيعته، عندما لاحظ كثرة الأسرى، والتنافس في اقتناء الرقيق، وذلك بمنع الرعية من تملك الرقيق، وممارسة التحكم في مصيره، وجعل العبيد تابعين للدولة، وأسس منهم جيشا مغربيا وهو ما عرف «بجيش البخاري» الذي قصر أعماله على الجهاد (50).

وقد فتح حوارا متعددا، بواسطة سفرائه وفي مقدمتهم، السفير الغساني، مع مختلف الدول وخاصة الأوربية كاسبانيا والبرتغال وفرنسا، وعقد معهم معاهدات

45) الاستقصا 20/2.

46) الكامل لابن الاثير.

47) ابن خلكان ـ الاستقصا 177/2.

48) الاستقصا 8/3.

49) المصدر السابق 188/5.

50) أنظر تفصيل هذا الموضوع في كتابنا مدرسة الإمام البخاري في

واتفاقيات لتحرير الأسرى من مختلف الأجناس وخاصة منهم المسلمين، مقابل فدية أو قروض، وهكذا أثمرت جهود المولى اسماعيل، وسعيه الحثيث، من أجل تحرير الرقيق، وصون كرامة الإنسان، وأصبحت سياسة قارة للدولة، حتى أننا نجد طالعة بيعة المولى عبد الله، تنص على التزامه بحقوق الرعية، والدفاع عنها، واقرارها في كل الميادين والمجالات وفرح الأمة باختيار ملك عادل مستقيم يحقق لها الأمن والعدل والاستقرار، يقول مقدمة البيعة :

«الحمد لله الذي جعل العدل صلاحا للملك والرعية والعباد، كما جعل الجور هلاكا للحرث والماشية والبلاد، وسدد بعنايته وأعد للجائر ما هو معلوم له يوم المعاد، وجعل المقسطين على منابر من نور يوم القيامة، كما جعل القاسطين في العذاب والحسرات والأنكاد، فأسعد الملوك يوم القيامة من سلك مع الرعية سبيل السداد، وأصلح ما أظهره الجائر في الأرض من الفساد، نحمده أن تفضل علينا بإمام عادل، ونشكره أن حكم فينا من لا يصغى في الحق لقول عادل، فولى علينا الخليفة من نسل الشفيع يوم التناد...» (51).

ونجد أيضا من ملوك هذه الدولة بطلا تاريخيا عظيما، ومناضلا شريفا، للدفاع عن حقوق الرعية، وتطبيق معالم الإسلام وقيمه والذي كتب صفحات مشرقة بأعماله في تحرير الإنسان وتكريمه ورد الاعتبار إليه، ألا وهو السلطان محمد الثالث الذي يعتبر نموذجا رائعا للملوك العظام (52).

وقد كانت جهود محمد الثالث، ومبادراته المستمرة، من أجل تحرير الأسرى وخاصة المسلمين تشمل جميع أنحاء العالم وبالأخص أوربا وأمريكا، وتشهد سفاراته المتعددة، إلى ملوك الدول وحكامها، والمعاهدات والاتفاقيات التي عقدها معهم، والأموال الضخمة التي رصدها من ميزانية الدولة والبالغة ثلثها، ورسائله الرائعة وكتبه المفصلة، يشهد جميع ذلك بسعيه الحثيث وعمله الدائب طوال عهده الزاهر، من أجل القضاء على استعباد الإنسان وتحريره واقناع الدول بالبعد عن الحروب وعدم التسابق إلى التسلح حفاظا على الحضارة الإنسانية وإبقاء على قيمها ومعالمها.

إننا نجد من بين مراسلاته لملوك العالم وقادته رسالته إلى كارلوس ملك اسبانيا سنة 1705 على إثر كتابة أسرى المسلمين باسبانيا إليه يخبرونه بما هم فيه من ضيق الأسر وثقل الأصر، وما نالهم من الصغار والامتهان، وفيهم حملة القرآن والعلماء، يقول لملك اسبانيا في رسالته :

«إنه لا يسعنا في ديننا، اهمال الأسرى وتركهم في قيد الأسر ولا حجة في التغافل عنهم لمن ولاه الله الأمر، وفيما نظن أنه لا يسعكم ذلك في دينكم أيضا..».

إلى أن يقول له في نفس الرسالة موجها ومنبها : «مثل ما تفعل نحن بأسراكم من الفرايلية فإنا لا نكلفهم بخدمة ولا نخفر لهم ذمة...» (53).

وقد غطت بحوثه وسفاراته جميع أنحاء أوربا وأمريكا، كبعثته إلى مدريد سنة 1776 م برئاسة خالية عمارة بن يونس ومحمد بن ناصر والسفير الغزال والتي سبقها تحريره للأسرى المسلمين بالمغرب، وأخرى برئاسة محمد بن عثمان إلى مدريد أيضا ومالطا ونابولي، وكذلك وجه بعثة إلى أمريكا لنفس الغاية وبادر قبل إرسالها بتحرير أسرى أمريكيين عنده (54)، وأخرى برئاسة الطاهر فنيش إلى لويس السادس عشر لتحرير النساء والطاعنين في السن من أي دين كانوا، وكذا اتفاقيته مع هولندة وفرنسا والتي أقرت تحريم أسر الأطفال والنساء المسنين من الرجال مطلقا وذلك سنة 1778 م وفي سنة 1786 م أصدر إعلانا إلى سائر القناصلة بالمغرب، يؤكد فيه بأن كل دولة مسيحية تقوم بتحرير الإنسان، ستمنح الإذن مقابل ذلك بتصدير كمية من القمح من ميناء الصويرة تقدر قيمتها بـ 168 قنطارا مع الإعفاء من الحقوق الجمركية.

وقد ذهب إلى أبعد من ذلك في معاهدته مع أمريكا لنفس السنة، حيث نص بأن الأسير لا يصبح عبدا، تأكيدا لطموحه العظيم وحرصه الكبير، على أن يرى الناس أحرارا في كل مكان (55) ويكفي أن نعرف إضافة إلى أن ما

51) الاستقصا 126/7.

52) أنظر مقالنا في مجلة دعوة الحق س 19 العدد ان 2 و3 ص 130 ـ 134 سنة 1398 ـ 1978 ـ تحت عنوان : محمد الثالث نموذج رائع للملوك والحكام.

53) الاستقصا 23/8.

54) المصدر السابق 38/8.

55) أنظر مقال الدكتور عبد الهادي التازي «الدور الطلائعي للمملكة المغربية في تحرير الإنسان «دعوة الحق» س 19 ع 2 و3 ص 57 و58 عام 1398 ـ 1978 ـ

أنفقه في سنة واحدة على تحرير الأسرى وهو ما بلغ ثلث ميزانية المملكة بأن ما حرره منهم في سنة 1248 هـ هو ألف أسير وزيادة من أسرى المسلمين (56).

وأخيرا وليس آخرا، نذكر بأن هذه السياسة الرشيدة، والمبادىء الثابتة ما زالت سياسة الدولة القائمة، والعهد الحاضر فقد أبى الحسن الثاني، إلا أن يسير على سنن سلفه، ويتشبث بعهودهم ومواثيقهم. وإن التاريخ ليسجل له بمداد الفخر والإعجاب مواقفه التحررية من الأسرى المصريين في حرب الحدود 1963، وكذلك تسامحه الرائع وعفوه الكريم، عن الأسرى الجزائريين في «كلتة زمور» سنة 1976 وها هو في رسالة القرن الهجري الجديد، التي وجهها إلى شعبه وإلى سائر المسلمين يؤكد في إصرار وثقة تشبثه العظيم بحقوق الناس ودفاعه عنها، فقد قال حفظه الله :

«لنعقد العزم على تأدية رسالتنا بأداء حقوق الله وحقوق العباد وعون عشاق الحرية على التحرير والخلاص في كافة أرجاء البلاد، ولا سيما إخواننا الأماجد من أبناء شعب فلسطين المجاهد، وقبلتنا الأولى وقدسنا الشريف الخالد، ولنقف على قدم الاستعداد بكل ما يلزم من العدة والعتاد، واثقين بحقنا متمسكين في نفس الوقت بديننا، معتزين بحضارتنا حريصين على حفظ مقوماتنا والدفاع عن كياننا، ملتزمين في حياتنا اليومية بآداب عقيدتنا وتعاليم شريعتنا ولنتسلح لمواجهة مسؤولياتنا الثقيلة والمتنوعة في هذا العصر باكتشافات القوة الفكرية التي هي «قوة العلم» وأدوات القوة المادية، التي هي قوة السلاح، وطاقات القوة الروحية التي هي قوة الأخلاق، ولنجعل شعارنا اليومي الدائم، العلم النافع والعمل الصالح، والإنتاج المستمر، والكسب المشروع والرقي المطرد، والتنافس المحمود، والسير الدائم إلى الأمام وضرب المثل لبقية الأقوام، ولنحول دنيا الإسلام الواسعة التي لا تغيب عنها الشمس إلى «مسجد كبير» نعبد الله جميعا في محرابه، ونقوم فيه بالخلافة عن الله في الأرض، طبقا لما جاء في كتابه، ولنجعل من القرن الجديد حلقة ذهبية في تاريخ الإسلام المجيد (57).

---

56) الاستقصا 70/8.

57) رسالة أمير المؤمنين بمناسبة القرن الخامس عشر ص 20 ـ 22 الطبعة الممتازة.

تطور الفكر الإسلامي

للدكتور محسن عبد الحميد

من الأمور المسلمة في الدراسات الإسلامية أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما مجموعة من الأصول والقواعد الكلية العامة لاسيما فيما يتصل بتطور الحياة العلمية، تركت مجالا واسعا للعقل الإنساني كي يتحرك في دائرة القوانين الكونية والاجتماعية، لأن التغيير الدائم في الحياة في ظل تلك القوانين معترف به في الإسلام، لا يريد أن يقف أمامه أو يجمد المجتمع الإسلامي دونه.

وفي سبيل تحريك الفكر الإسلامي في داخل الإطار الثابت من الأصول والقواعد العامة اعتبر الإسلام الاجتهاد موقفا صحيحا وعملا مثابا عليه في حالتي الصواب والخطأ.

ومن هذا المنطلق، فإن الفكر الإسلامي بدأ حركته منذ حياة رسول الله ﷺ في الاتجاهات جميعها، التي أراد الإسلام أن يضع الناس عليها، لإن تلك الاتجاهات العقيدية والتشريعية والسلوكية هي التي تمثل التكاملية الإسلامية في الحياة الحضارية.

ومن هنا فإننا نلاحظ بوضوح أن الفكر الاجتهادي الإسلامي في مواجهته لتطور الحياة في الداخل والخارج قد قدم تراثا ضخما متنوعا في تلك الاتجاهات نستطيع أن نبين بعض ملامحها على الوجه الآتي :

اتجاه العقيدة والفلسفة

لقد كان القرآن الكريم واضحا كل الوضوح في إعطاء الصورة النهائية للعقائد الإسلامية، تلك الصورة التي لا يحتاج الإنسان فيها إلى تفصيلات أكثر في مسألة تحقيق خلافته على الأرض، لأن التفصيلات الجزئية البعيدة، لا يبنى عليها عمل، ولا تقع في مجال قدرة الإنسان العقلية، ولأن تلك القدرة خلقت لكي تواجه أحداث الحياة على الأرض وفهم الوجود الذي حولها.

ولقد أحدث الاكتفاء في رجال الصدر الأول بصورة العقائد القرآنية انسجاما رائعا، فلم يفكروا بجزئياتها والحديث عن ماهياتها، لأنه لم تكن قد ظهرت أمور تدفعهم أو تجبرهم للخوض في تلك الجزئيات، ولذلك فإنهم صرفوا جهودهم إلى المسائل العملية فأنتجوا فيها فكرا تشريعيا عمليا رائعا، وحققوا انتصارات إسلامية كبيرة في الميادين الداخلية والخارجية، حيث نقلوا الإسلام إلى العالم فهدوا به أمما وشعوبا ورفعوا راية الحق والعدل والخير والسلام والتوحيد في بلاد شاسعة غير أن ظهور الانحرافات السياسية وغيرها في الداخل والاحتكاك بطلائع الثقافات الأجنبية التي أريد لها أن تدخل بسرعة إلى المجتمع الإسلامي قد

دفع الفكر الإسلامي دفعا إلى خوض غمار الحديث عن تفصيلات العقائد الإسلامية.

أما على الصعيد الداخلي - على سبيل المثال - فلقد كانت دعوة الأميين لنظرية الجبر (1) لتسويغ انحرافاتهم سببا أساسا لظهور الاتجاه القدري الذي أنكر الجبر ونادى بحرية الإرادة الإنسانية. ومن المؤكد أن أول من نادى بذلك، التابعي الجليل، المحدث الصدوق، معبد بن خالد الجهني، تلميذ الصحابي المجاهد أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، والذي تأثر به في وقوفه أمام الأمويين وترفهم وتصرفهم بمال المسلمين على غير قواعد الإسلام الصحيحة.

إذن فلقد نشأت القدرية في المجتمع الإسلامي رد فعل عنيف على مواقف جبرية تبناها ملوك بني أمية.

وتذكر المصادر أن معبدا الجهني عندما ذهب إلى البصرة توجه هو وعطاء بن يسار للقاء الحسن البصري رحمه الله تعالى فقال : يا أبا سعيد هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون أموالهم ويقولون : إنما تجري أعمالنا على قدر الله وأن الحسن أجابهما فقال : «كذب أعداء الله».

يقول الدكتور النشار في أصالة فكر معبد : «إن الأمر المهم الذي يجب أن ننتبه إليه أن معبدا الجهني كان يدافع عن شرعية التكاليف، فنفى أن يكون القدر سالبا الاختيار» (2).

وسلك غيلان الدمشقي المسلك نفسه، فأنكر على الأمويين انحرافاتهم ومظالمهم، وأنكر عليهم أن يسندوا كل تلك الأفاعيل إلى الله تعالى باسم الجبرية (3).

وعلى صعيد الثقافات الدخيلة، فلقد كانت لفكرة الجسمية عند الرواقية اليونانية التي أثرت في مقاتل بن سليمان وهشام بن الحكم وغيرهما الأثر المباشر في ظهور تنزيه الله ونفى الصفات عند كل من الجعد بن درهم ثم الجهم بن صفوان الذي نشأ بسمرقند ثم جاء إلى العراق وتقابل معه في الكوفة، ثم رجع إلى بلخ حيث كان يعيش المفسر مقاتل بن سليمان، وكان يصلي معه في مسجده ثم اختلفا واستطاع مقاتل بن سليمان بما له من نفوذ أن ينفيه إلى ترمذ، فبقي فيها حتى دعاه الحارث بن سريج لمشاركته في حربه ضد بني أمية. وشارك فيها الجهم حتى قتل مع الحارث (4).

يقول المفسر الشهير جمال الدين القاسمي عن الجهم بن صفوان والحارث بن سريج انهما كانا «يقيمان أحكام الكتاب والسنة وجعل الأمر شورى وأبيا الانغماس في امرة الظالمين ورفضا اعطياتهم والعمل لهم» (5).

على أن منهج الجهم العقلي كان نتيجة حتمية لهجمات اليهود والنصارى من ناحية، والمانوية والمذاهب الفارسية من ناحية أخرى على الإسلام وعقائده، وعدم اكتفاء منهج أهل الحديث بالرد عليهم، فرأى جهم متأثرا بأسلافه من مفكري الإسلام أن الاعتماد على التأويل العقلي في إطار الضوابط اللغوية هو الكفيل بالدفاع عن الإسلام في المآزق الفكرية الكبرى التي وضعه فيها المجسمة المتأثرون بفلسفات يونانية معروفة في هذا الباب.

ولقد كان تأثير جهم كبيرا في تنقية الفكر الإسلامي من الإسرائيليات ومحاربتها وفي القيام بوجه المذاهب الهندية والثنوية من سمنية ومانوية، والتي كانت تهاجم الإسلام مهاجمة عنيفة فناقشها مناقشات عقلية واعتنق كثير منهم الإسلام على يديه.

وخطأ جهم الكبير أنه لم يفرق بين الاشتراك في الإسم والاشتراك في المعنى والممنوع هو الثاني دون الأول بشرط كونه واردا في الشرع، لأن العلم مما ورد وصف الخالق به والمخلوق، مع أنه ليس بمشترك بينهما، لأن علم الله تعالى حضوري وعلم المخلوق حصولي مكتسب (6).

ولم يكن جهم ينفرد بذلك المنهج العقلي، بل ظهر الاتجاه العقلي عند غيره، وكان يركز على عرض العقائد الإسلامية النقلية على مرتكزات عقلية واضحة، ولقد كان هذا الاتجاه في الحقيقة ردا على الاتجاهات الفكرية

1) التفكير الفلسفي في الإسلام ص 203.
2) نشأة 1 / 314 - 327.
3) نشأة 1 / 321.
4) نشأة 1 / 331.
5) تاريخ الجهمية والمعتزلة ص 11 - 12.
6) نشأة 1 / 334 - 336.

المتطرفة التي بدأت طلائعها تظهر في عهد الإمام أبي حنيفة، وكان أول من صاغ نظرية الكلام في الإسلام قاصدا الرد على أولئك الذين كانوا يحملونه أحيانا على النقاش في مسألة الإيمان والقضاء والقدر وغيره.

وكذلك فعل الإمام الشافعي فقد أجبره عصره على الحديث في الكلام، في الذات والصفات والقدر والإيمان، واستعمل عبقريته الفذة في توجيه تلك الأمور وفي صياغة علم أصول الفقه، لاسيما مبحث القياس الذي يعتبر من أعظم ما قدمه المسلمون إلى الفكر الإنساني وحضارته.

أما وقفة الإمام أحمد في محنة خلق القرآن، فلقد هيأت السبيل أمام بلورة الاتجاه العقلي الكلامي لدى متكلمي أهل الحديث، فألفوا كتبا في الرد على الجهمية والمعتزلة فيما ذهبوا إليه من أقوال وآراء لاسيما في مسألة صفات الله وخلق أفعال العباد (7).

دور المعتزلة

لاشك أن الإسلام من حيث هو عقيدة متكاملة في الوجود قد واجه بعد الفتح الإسلامي أديانا ونحلا ومذاهب كثيرة جدا، وكانت تلك الأديان والنحل والمذاهب قد فلسفت مبادؤها على يد عشرات من المفكرين واللاهوتيين والفلاسفة في اتجاهات الوجود كلها عبر ألوف السنين، ولم تكن مجابهتها ومناقشتها أمرا سهلا، إن مجرد حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وتفسيرهما على ظاهرهما لم يكن كافيا لمواجهة المسارب العقلية الصحيحة والملتوية وإثارتها لمئات من الأسئلة والقضايا الفكرية. وكانت الحاجة ماسة إلى عقلية واعية ومنطق جديد يفهم القرآن الكريم والسنة النبوية ويغوص في معانيهما، ويستخلص منهما النظر العقلي لمواجهة الخطر الداهم، وإنقاذ المسلمين من البلبلة الفكرية والشكوك المطروحة والشبهات الكثيرة، لاسيما أنها بدأت تجد أعوانا وعقولا ومسارب في حياة المسلمين.

كانت هذه هي الحاجة الفعلية التي دفعت أصحاب النظر العقلي من أمثال معبد الجهني وعمر المقصوص والجعد بن درهم وجهم بن صفوان والحسن البصري وواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبي الهذيل العلاف والنظام وأبي المعتمر والجاحظ وغيرهم، كي يواجهوا هذا الخطر الداهم.

وعلى الرغم من أن المواجهة قد أدت دورها وحطمت آراء وأفكار متفلسفة تلك الأديان والنحل والفلسفات، واستطاعت أن تنقد العقائد الإسلامية من الانحرافات، إلا أنها لم تستطع أن تتفادى ردود الفعل في حومة الصراع الفكري العنيف فوقعت في أخطاء منهجية وموضوعية وأسلوبية، نستطيع أن نجملها فيما يلي :

الأول :

إن جعل العقل المعتمد الأساس في المعرفة وتأويل العقائد الإسلامية بموجبه كان خطأ كبيرا، لأن العقل ليس الطريق المعصوم للمعرفة الإنسانية بدليل اختلاف المدارس الفلسفية. فعلى الرغم من أنها انطلقت من العقل ومنطقه إلا أن أصحابها اختلفوا اختلافا كبيرا في المسائل الكونية التي تحدثوا فيها. وكل يدعي أنه على حق ويطعن في رأي الآخر، منطقا ودليلا. أي أن العقل هنا يهدم نفسه بنفسه.

الثاني :

اضطر هؤلاء من أجل مداراة هذا التعقل المزعوم، أن يتأولوا الآيات القرآنية والسنة النبوية الواضحة الصريحة، ومن خلال مناداتهم بنظرية ظنية دلالة الألفاظ اللغوية، الأمر الذي لم يستقم لهم لغة في كل حين، فوقعوا في بلبلة فكرية سجلها عليهم المخالفون في ردودهم ومناقشاتهم.

الثالث :

اعتقد هؤلاء ـ في ضوء منهجهم ـ أنهم على حق في كل حين، فضللوا خصومهم الإسلاميين حتى من أهل النظر العقلي الذين لم يوافقوهم في منهجهم ذلك، بل تعدوا ذلك إلى الإرهاب الفكري بل إلى سفك دماء العلماء الذين رفضوا آراءهم، لاسيما في الفترة التي سيطروا فيها على الدولة العباسية فكريا.

دور التيار المشائي

لم تكن الفلسفة اليونانية فلسفة واحدة متجانسة في مقدماتها ونتائجها وإنما كانت فلسفات عدة في مذهبياتها

7) نشأة 1 / 242 ـ 247 وما بعدها.

ومناهجها منها المادية الصرفة ومنها الوثنية المشركة ومنها الإلهية التي لم تستطع أن تتخلص من رواسب الوثنية المستحكمة في مؤسسات الدولة والمجتمع.

ولم تنتقل هذه الفلسفات إلى العالم الإسلامي في العصور الهجرية الأولى بصورة دقيقة واضحة وإنما اضطربت اضطرابا شديدا من خلال الترجمات غير المباشرة فاختلطت الحقيقة بالباطل، وتشوهت صور كثير من الفلاسفة وأسند ما لبعضهم إلى البعض الآخر، ولا يعني هذا أن حقائق معينة لم تصل عن هؤلاء إلى ساحات التفلسف الإسلامي المتنوعة.

لقد وجدت تلك الفلسفات مواقع لها في المجتمع الإسلامي سواء في جوانبها السلبية الكثيرة أو جوانبها الإيجابية القليلة، إلا أن أكثر ما جذب المسلمين الفلسفة الإلهية التي نسبت إلى أفلاطون وأرسطو أو إلى الأفلاطونية الحديثة التي كانت مزيجا من الفلسفة اليونانية والديانة اليهودية والغنوصية الشرقية القديمة.

هذه الفلسفة الإلهية أثرت في تفكير الفلاسفة المسلمين تأثيرا واضحا ظنا منهم أنها فلسفة عقلية صحيحة في حد ذاتها، بل هي قوانين عقلية منطقية لا يمكن أن تتعرض إلى الخطأ أو القصور، وعندما وجدوا أن ظواهر أصول العقائد الإسلامية التي وردت في القرآن أو السنة تخالف تلك المقالات الفلسفية اليونانية، لجأوا إلى التأويل كي تكون النصوص الإسلامية موافقة ومطابقة معها، وكان عليهم أن يوقفوا منهجهم على قدميه، فينطلقوا من أصول العقيدة الإسلامية، بنصوصها الكثيرة القاطعة ليواجهوا بها ما وصل إليهم من تراث اليونان ليروا مبلغ موافقته أو مخالفته لتلك النصوص الإلهية المقدسة التي آمنوا بها وحيا من عند الله سبحانه وتعالى.

كان عليهم لما عرفوا الحقائق الكاملة عن الألوهية التي عرضها القرآن الكريم في آياته الكثيرة والتي تدل دلالة قاطعة أن إله الكون هو الخالق العظيم المبدع القادر العالم الحي المريد، وأنه وحده واجب الوجود غير مسبوق بالعدم، وأن غيره مما سواه هو المحدث المحتاج المسبوق بالعدم وأنه خلق الخلق لغاية، واعتنى به أعظم عناية، وأنه ما زال موصولا بخلقه بإرادة حرة لا نهائية، لا يحدها قانون ولا تقيدها سنة ولا تحول دون تحقيق إرادته إرادة، وأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن.

كان عليهم لو كانوا سائرين على المنهج القرآني الحق، ألا يستسلموا إلى التصورات الخيالية لأرسطو عندما قال بالمحرك الذي لا يتحرك وبالإله القديم المقدم بالذات لا بالزمان، على الكون القديم، فجعل لله ندا قديما، وقيده بدعوى انشغاله بكماله بأنواع من القيود سلبت منه الإرادة والعلم والتأثير والعناية والغاية، وصورته إلها جامدا لا حول له ولا قوة، وعقلا لا يعي إلا ذاته ولا يعقل غيره.

كان عليهم لو كانوا مدركين لحقائق الوحي المحمدي ألا يأخذوا بنظرية الفيض التي افترضت أن هذا الوجود فاض عن العلة الأولى فيضانا آليا لا إراديا بدعوى أن الإرادة توجب كثرة فيه، وأنه يشترك معه في الخلق عقول عشرة متدرجة من العالم الأعلى إلى العالم الأسفل. إلى غير ذلك من الأقوال والنظريات التي ظنوها قمة التعقل والمنطق والحقيقة، ولم يعلموا أن تلك الأقوال هي آراء رجال يصيبون ويخطئون، وأنهم قالوها في مرحلة تاريخية معينة كانت تشوبها المادية والوثنية والاضطراب الفكري والبعد عن هداية السماء، والاعتماد الكلي على العقل وحده في الولوج إلى معرفة ذات الباري، الحقيقة التي أثبت العقل الإنساني عبر التاريخ عجزه عن إدراك أسرارها أو الإحاطة بها، وهذا أمر بديهي إذ كيف يستطيع المحدد العاجز المحتاج من الإحاطة باللا محدود القادر الغني.

إننا لا ندعي أن هؤلاء الفلاسفة كانوا مترجمين ونقلة، لم يفعلوا شيئا ولم يضيفوا فكرا واحدا على أفكار من سبقهم، ولم يكونوا جديرين بأن يسموا فلاسفة، ولكننا نذهب مع الذاهبين أنهم وقعوا تحت سيطرة العقلية اليونانية المشائية، فحاولوا التوفيق بين مقولاتها العقلية المجردة وبين عقائدهم الإسلامية. وكان نتيجة ذلك التوفيق أن قربوا العقائد الإسلامية الصريحة في القرآن والسنة من تلك المقولات الفلسفية دون أن يحاولوا تصحيحها وسد ثغراتها الكبيرة بنتاج عقولهم من حيث ان أصحابها كانوا فلاسفة مثلهم، لهم حق المراجعة والتدقيق والاعتراض والتصحيح، ومن حيث إنهم كانوا مسلمين يعتقدون بأن الحقائق القرآنية التي آمنوا بها قد ثبتت بأدلة عقلية فطرية قطعية.

يقول الدكتور محمد البهى :

إن تفلسف المسلمين في الجانب الإلهي الإغريقي الذي انحصر في التوفيق والملاءمة بين آراء الإغريق من جانب وتعاليم الإسلام من جانب آخر، لم يفد الإسلام كدين كما لم يترك العقل الإنساني يدرك الفكر الإغريقي على حقيقته. لم يفد الإسلام كدين، لأن معتقدات الدين في جانب الله سبحانه وتعالى بشرحها شرحا فلسفيا إغريقيا أو بإمالة الفكر الإغريقي نحوها ومحاولة صهر الطرفين في وحدة واحدة، عقدت هذه المعتقدات وأضحى فهمها بعد التعقيد أو بعد تفلسف العقيدة وقفا على طبقة من الناس خاصة، وهي طبقة العقليين الذين دربوا ذهنهم تدريبا خاصا على فهم المشاكل الفلسفية الإلهية ومشاكل القرون الوسطى.

ولم تترك هذه الملاءمة العقل الإنساني يدرك الفكر الإغريقي على حقيقته لأنه صبغه بعد التفلسف القائم على التوفيق بصبغة دينية منحته نوعا من القداسة تحول دون نقده ورؤيته كما هو، كما أضافت إليه عناصر دينية أخرى ليس من السهل فصل بعضها على بعض (8).

ولقد كاد هذا المنهج الخاطئ من التفكير الفلسفي المشائي أن يطغى على الفكر الإسلامي لولا ما سلكه المتكلمون بمناهجهم المتنوعة طرقا عقلية متوافقة مع الحقائق القرآنية لمواجهة ذلك الانحراف الخطير، وتقويم الاعوجاج فيه وإنقاذ الفلسفة الإسلامية الحقيقية من الانحرافات والوثنية والتحكمات العقلية المختلف عليها والظاهر بطلانها.

ولقد كان لمفكري المعتزلة والأشعرية وأهل الحديث أثر كبير جدا في التخطيط العقلي للرد على التيار المشائي من خلال مناقشات وردود منطقية بلغت الغاية في الدقة والموضوعية، غزيرة المادة، قويمة المنهج، بحيث استطاعوا إلحاق الهزيمة النهائية بتلك الفلسفات اليونانية الوثنية وشبه الوثنية.

وقد كان لمفكرين فيلسوفين عملاقين إسلاميين دور كبير بارز بين المفكرين والفلاسفة الإسلاميين في ذلك، ألا وهما حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه «تهافت الفلاسفة» وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه «موافقة صريح المعقول لصريح المنقول» وكتابه «الرد على المنطقيين».

ولقد استطاع هؤلاء أن يثبتوا أن ما سميت بمقدمات منطقية، لم تكن صحيحة، بل كانت مضطربة اضطرابا شديدا، وأن تلك المقدمات ونتائجها لم تكن إلا أقوال رجال واجتهادات مرحلة فكرية معينة، كانت تتصف بالانحرافات العقيدية والوثنية.

ورد هؤلاء لأفكار الفلسفة المشائية وغيرها لم يكن طعنا في حجج العقول، لأنهم لم يواجهوها إلا بحجج العقول، وإذا كانوا يعرضون الحقائق القرآنية في نصوصها الصريحة، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا من أجل إلزام الفلاسفة المشائيين من المسلمين لأنهم لم ينكروا أصل الوحي المحمدي بل صرحوا بما كتبوا بكل وضوح أنهم يؤمنون بها وأنهم لا يجدون اصطداما بينه وبين القطعيات العقلية التي ظنوها تكمن في أقوال عقلاء اليونان.

دور التيار الأشعري

لقد قام التيار الكلامي الأشعري بمحاولة تصحيحية كبيرة، إذ أدرك أبو الحسن الأشعري التطرف الذي أصاب التيار الكلامي المعتزلي حين قدم التعقل المزعوم على الشرع المعصوم، وأثبت هو وتلامذة مدرسته من أمثال أبي بكر الباقلاني وعبد الملك الجويني وأبي حامد الغزالي وفخر الدين الرازي وغيرهم أن العقل المتنازع فيه لا يمكن أن يقدم على النصوص، وانطلقوا من مبدإ سليم إسلاميا، وهو أن العقل يقوم بتفسير وتحليل النصوص في إطار القواعد اللغوية الصحيحة.

ولقد أتت هذه الحركة العقلية المتزنة في الإسلام ثمرتها اليانعة، لأنها انطلقت من مواقع المراجعة والدراسة والتحليل، ولم تنطلق من مواقع ردود الفعل، ولذلك فإنها استطاعت أن تملأ الثغرات التي حدثت في سلسلة التيارات العقلية الإسلامية، سواء الفلسفية منها أم الإسلامية.

أما بالنسبة للتيار الفلسفي، فقد هدمت فكرة اتخاذ أقوال فلاسفة اليونان مسلمات عقلية تقوم بوجه الحقائق الإسلامية وتلوي رقبتها دائما باتجاهها الخاطئ المنحرف.

أما بالنسبة للتيار العقلي الإسلامي، فقد انقذته من فكرة اتخاذ طريق العقل عصمته، وإخضاع النصوص له في كل حين.

ولا نبالغ إذا قلنا إن الأشاعرة أعادوا التوازن إلى التيار العقلي الإسلامي وأثروا في من جاء بعدهم من المفكرين الإسلاميين فلاسفة وكلاميين.

دور ابن تيمية (9)

لا أبالغ إذا ادعيت أن ابن تيمية كان أمة وحده من بين سائر المفكرين، وأنه كان وحده يمثل تيارا جارفا قام بعملية كبرى لمراجعة رصيد الأمة من العقيدة والشريعة والحضارة. وحركته الفكرية لم تكن حركة محدودة موجهة إلى مراجعة جانب من جوانب الانحراف الفكري، بل كانت حركة شاملة أخضعت بدقة وعمق جوانب الحياة الفكرية كلها إلى الدراسة والنقد.

راجع ابن تيمية التيارات الفلسفية والتيارات الصوفية المتفلسفة، والتيارات الباطنية من أرباب الفرق الغالية، والديانات المحرفة وتيارات الفكر الإسلامي المتمثلة بتراث المفكرين المتكلمين من المعتزلة وحتى الأشاعرة، وراجع الفكر الفقهي الاجتهادي، وراجع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية بحسم ووضوح.

وكان سلاحه في هذه المراجعة التاريخية الكبرى، إيمان بالله وإخلاص لدينه وجهاد في سبيله، وذكاء حاد، وحافظة قوية، وعلم غزير، وإحاطة تكاد تكون كاملة بالمعارف الإنسانية في عصره.

وكان هدفه الأساس من حركته وجهاده الذي استغرق حياته كلها تنقية عقائد الإسلام ومبادئه من كل دخيل فيها مهما كان جليا أو دقيقا.

ولقد نجح ابن تيمية رحمه الله تعالى في هذه العملية الحضارية التاريخية الخطيرة أيما نجاح واستطاع أن يخرج الإسلام عقيدة وشريعة وحضارة من أنقاض المتراكمات الحضارية المتداخلة المعقدة.

لقد سخره الله تعالى لإنقاذ عقائد الإسلام من الفلسفات الضالة ذات الأصول الوثنية، والتيارات الغنوصية ومظاهر التعقيد العقيدي المفضي إلى زعزعة عقائد المسلمين، فعرض هذه العقائد مرة أخرى صافية حقيقية من خلال آيات القرآن الكريم الواضحة والسنة النبوية الصحيحة، وفي إطار ضوابط تفسير النصوص التي أجمع عليها علماء الإسلام الثقاة عبر العصور (10).

وبقدر ما كان ابن تيمية حريصا على تثبيت العقائد الإسلامية في صيغتها الإسلامية الأولى وعدم إخضاعها إلى التأويلات البعيدة المنحرفة، دعا إلى تحريك الفكر الفقهي الإسلامي وإحياء عصور الإبداع الاجتهادي وعدم الوقوف عند آراء الرجال، والاستنباط المباشر في كل عصر من القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

ولا أغالي إذا قلت إن شخصية ابن تيمية بإطارها هذا، شخصية فريدة في تاريخ الفكر الإسلامي، لا نجد شخصية تماثلها في قوة التحدي، وشمولية المراجعة، والغزارة الموسوعية في العلوم جميعا والحسم الكامل في القضايا دون مجاملة ولا خشية من أحد في دين الله تعالى.

ولا شك أن مناقشات ابن تيمية وردودها لاسيما على مفكري الإسلام على الرغم من اتزانها وعلميتها ومنهجيتها الصارمة، لا تخلو من آثار ردود فعل تظهر عليها آثار هيجان وعصبية، وكان ذلك ناتجا - في رأيي - من ما كان يعاني من هموم المواجهة اليومية من جهة، وضغط التيارات الدخيلة والمنحرفة والأقوال المدسوسة من جهة أخرى. تلك التي كان العلماء قد ألفوها في كثير من مظاهرها النظرية والعملية، وكانوا يضعون عراقيل شتى أمامه، في سبيل منعه من تحقيق أهداف مراجعته التاريخية.

الاتجاه الأصولي الفقهي

هذا الاتجاه هو صلب ما أراده الإسلام من الإنسان من أجله جاء، وفي سبيله بيّن الحلال والحرام وقدم إليه الضوابط الكلية لظبط حركته الاجتماعية والفردية، والقيام بعملية تغيير مستمر لحياته، من أجل النماء والتقدم وتطوير الحضارة إلى الأرقى والأفضل دائما.

إن هذا الجانب العملي الذي يمكن للعقل الإنساني أن يبدع فيه أيما إبداع من أجل تحقيق خلافته ومسؤوليته

9) راجع «ابن تيمية» للشيخ أبي زهرة، و «شيخ الإسلام ابن تيمية» لأبي الحسن الندوي.

10) راجع كتابي : دراسات في أصول تفسير القرآن / بغداد 1400 هـ.

على هذه الأرض، قد تنافست فيه العقول المفكرة العبقرية في الإسلام تنافسا علميا رائدا فريدا، بحيث أنتجت لنا أعظم ثروة فقهية أصولية، لا نجد لها مثيلا في تاريخ الأمم والشعوب.

إن المسلمين بقدر ما أضر بوحدتهم التنوع الفكري في تصور جزئيات العقيدة الإسلامية، والذي دفعوا إليه دفعا خلال تاريخهم، نفعهم هذا التنوع في الاجتهاد الأصولي الفقهي، فقدموا لأنفسهم وللإنسانية جميعا أرقى النظم الفقهية وأوسعها وأدقها بحيث شهدت لها المؤتمرات القانونية والنشرات العالمية (11)، شهادة دراسة وخبرة على عظمة ذلك التراث الفكري الفقهي وشموليته وتحقيقه لمصالح الأفراد والجماعات.

لقد كان الاجتهاد الفقهي الإسلامي عبر التاريخ مصدر خير وبركة وصلاح ونمو وسعادة للمجتمعات الإسلامية، ومنطلق انسجام وتكامل في الحياة، ومدعاة استقرار وأمن لكل فرد كان يعيش في تلك المجتمعات الإسلامية.

وكان الاجتهاد الفقهي عنوان حركة الأمة الإسلامية وحيويتها، لا دليل تفرقتها وسكونها وموتها، ولو لم يكن الأمر كذلك ما أجازه الرسول الأعظم ﷺ بعينه، وأجازه القرآن الكريم من خلال دعوته المسلمين إلى البحث والنظر والتمحيص وتدبر النصوص والتفقه فيها ولفت نظرهم إلى أنه لا يغيرهم الله تعالى حتى يغيروا ما بأنفسهم في إطار الضوابط والقواعد العامة لأصول ذلك الاتجاه الفقهي وأصوله وقواعده.

ولابد لنا هنا أن نقوم بجولة سريعة عبر العصور لنرى ما الذي قدمه الفكر الفقهي الإسلامي في هذا المجال المبدع.

الفكر الاجتهادي في حياة الرسول

على الرغم من أن الفقه الإسلامي في هذا العصر كان فقها مبنيا على أساس الوحي ممثلا في الكتاب والسنة، إلا أن الرسول الكريم كان يجتهد في مسائل معينة، تشريعا لأمته، حتى يتمرنوا ابتداء من عهده عليه الصلاة والسلام على إعمال الفكر والنظر، فمن اجتهاداته عليه السلام أخذه الفداء من أسرى بدر (12) وإذنه للمتخلفين عن غزوة تبوك بالبقاء في المدينة لما قدموه من الأعذار (13)، ولقد أذن رسول الله ﷺ للصحابة الكرام بالاجتهاد في حياته، ودليل ذلك حديث معاذ عندما بعثه قاضيا على اليمن وقال له : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله، قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله. قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد ولا آلو. فضرب رسول الله ﷺ بيده على صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله (14).

ومن ذلك أن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لما رجع من معركة الخندق وأراد أن ينزع لباس الحرب، أمره الله بالتوجه إلى بني قريظة فقال النبي ﷺ لأصحابه : «من كان سامعا مطيعا فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة » (15)، فساروا مسرعين متوجهين إليهم، فلما حان وقت العصر صلى بعضهم في الطريق وأولوا كلام النبي ﷺ بأنه أراد التعجيل في السير لا تأخير الصلاة ولم يصل البعض الآخر إلا بعد وصولهم إلى بني قريضة، وأقر الرسول الكريم الجماعتين على اجتهادهم.

على أن هذا الاجتهاد كان إقرارا لذات الاجتهاد، ولم يكن مصدرا للتشريع، مستقلا عن الوعي، في حالتي تصحيح القرآن لاجتهاد الرسول عند عدم الإصابة أو إقرار الرسول لاجتهاد الصحابة عند الإصابة. وكان الخالق الحكيم قادرا على ألا ينطق رسوله إلا بالحق حتى في حالة الاجتهاد. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام تبعا لذلك، ما كان يبلغ إلا الرأي الواحد في كل مسألة اجتهادية. ولكن كان في ذلك حكمة بالغة (16)، كي تعلم الأمة على أن الاجتهاد إذا كان قد جرى في ظل نزول الوحي وفي حياة

11) المدخل الفقهي إلى الحقوق المدنية في البلاد السورية - أحمد الزرقا ص 129.

12) زاد المسير لابن الجوزي 3 / 380.

13) سيرة ابن هشام 4 / 170 - 173.

14) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن كثير 6 / 66 - طبعة دار الفكر - لبنان.

15) سيرة ابن هشام 3 / 252.

16) المدخل إلى الشريعة الإسلامية - للدكتور عبد الكريم زيدان ص 114 - 116.

رسول الله ﷺ فلأن يجري بعد انقطاع الوحي والتحاق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى كان أولى وأكثر ضرورة في حياة المسلمين في الأجيال التالية إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

الفكر الاجتهادي الفقهي بعد عصر الرسالة

انقطع الوحي الإلهي بعد أن التحق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى، فتحول الاجتهاد إلى مصدر مستقل فيما لم يرد فيه نصوص من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة، وظهر استعمال الفكر الفقهي واضحا للتغيير الذي أصاب حياة المسلمين وذلك بعد الفتوحات الكبرى التي دفعت خصائصها الذاتية الإنسانية العادلة شعوبا وأمما الدخول في حظيرة الإسلام، فاختلطت بذلك أوضاع المجتمعات وظهرت أعراف ومعاملات، ووجوه لحركة الحياة لم يكن للمسلمين سابق عهد بها. وكانت المصالح تقتضي نظرا جديا في حل تلك المشكلات.

وكان الخلفاء الراشدون يجتهدون ويعرضون آراءهم للمناقشة إن لم يجدوا نصا من كتاب أو سنة. وما روي عنهم مما يدل على ذم الرأي، فهو موجه إلى الرأي الفاسد أو مما ورد فيه نص، أو الرأي الذي يصدر من غير العلماء العارفين بأصول الشريعة (17).

أما الرأي المستنبط من الكتاب والسنة أو المحمول على القياسات الصحيحة والمصالح المرسلة وسد الذرائع ودرء المفاسد، فهو مقبول عندهم، لما كانوا يعرفون من أن الشريعة جاءت أساسا لتحقيق مصالح العباد ودفع عجلة التغيير إلى التقدم لأن المبادئ الإسلامية لا تقر الجمود والسبات وإنما تدعو إلى الحركة المستمرة (18).

ولقد اتجهت حركة الاجتهاد في هذا العصر إلى ما يأتي :

أولا :

الاجتهاد في كيفية النصوص الواردة، فمثلا أعطى القرآن الكريم سهما للمؤلفة قلوبهم في آية الزكاة (19)، يوم أن كان المسلمون ضعافا يحتاجون إلى تأليف القلوب وإبعاد الشرور عنهم. ولما تقوى المسلمون في زمن عمر بن الخطاب لم تبق حاجة لتنفيذ ذلك الحكم، لأن شروط تنفيذ الحكم لم تكن متوفرة، لا أنه ألغى الحكم، بل رأى الظروف الجديدة قد انهت وجود المؤلفة قلوبهم من المجتمع.

ثانيا :

الاجتهاد في القضايا التي تجلب مصلحة راجحة أو مفسدة واضحة، كاجتهاد عمر بن الخطاب وبعض الصحابة في عدم توزيع أرض العراق على المشتركين بعد الفتح تبعا لما كان يؤدي توزيعها إلى حصر الثروات الطائلة بأيدي القلة، وحرمان الجمهور الأعظم والدولة من خيراتها. واستدلوا بقوله تعالى : ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم...**﴾(20) الآيات.

وسار التابعون وتابعوهم ومن جاؤوا من بعدهم على النهج ذاته من إعمال الفكر والاجتهاد في المسائل المستحدثة، نتيجة لتطور الحياة وامتزاج الثقافات والحضارات والأعراف الاجتماعية، حتى ظهرت المذاهب الفقهية الكبرى المعروفة في ديار الإسلام كلها شرقا وغربا، تمثل طبيعة الإسلام الحركة، فقدمت ثروة تشريعية ضخمة استوعبت حياة شعوب وأمم شتى في أزمنة شتى، مما يقدم دليلا قاطعا على حركة الفكر الإسلامي المبدع الذي استطاع أن يواكب الأحداث بفهم عميق من كتاب الله وسنة رسوله وإدراك ذكي لحقائق التغيرات الاجتماعية ومحاولة المطابقة الكاملة بين العقيدة والشريعة المنبثقة منها وبين الواقع الاجتماعي، بلا عقد ولا جمود ولا إغلاق ولا ورع كاذب.

ولا يمكن أن نترك الحديث هنا عن الفكر الفقهي الإسلامي إلا بعد أن نشير إلى مسألة مهمة، وهي أن هذا

---

17) اعلام الموقعين لابن القيم 1 / 55.

18) انظر منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام ـ للدكتور محسن عبد الحميد.

19) التوبة 60.

20) الحشر 7.

الفكر شامل لنواحي الحياة كلها، فالفكر السياسي الإسلامي والفكر الاقتصادي الإسلامي والفكر الاجتماعي الإسلامي والفكر التربوي الإسلامي، يمثل جميعها وجوها متنوعة لذلك الفكر الفقهي الضخم الذي انطلق من القواعد والأسس العامة للشريعة الإسلامية، والتي قام علماء الإسلام منذ عهد الشافعي رحمه الله تعالى، بجهود فكرية جبارة لضبطها وتنسيقها وتوسيعها، حتى لا يتخبط الفكر الإسلامي في ضلالة التيه وانحراف العقول البشرية، فقدموا بذلك منهجا واضح المعالم للفكر الإسلامي جمع بين النقل الصحيح والعقل الصريح، وحافظ عبر العصور على اتزان ذلك الفكر وعدم الوقوع في مهالك النقص الإنساني غير الملتزم بهداية النبوة.

على أن الفكر الفقهي الإسلامي بدأ يتوقف عن الإبداع بسبب أن حركة التغير الكبيرة التي أنتجها الاختلاط الإنساني والحضاري بين الشعوب الإسلامية قد استنفدت أغراضها، ولم تظهر بعدها تغيرات كبيرة تدفع إلى تحريك الإبداع العقلي من جديد. الأمر الذي دفع الفكر الإسلامي قبل سقوط بغداد عام (656هـ) بحوالي ثلاثة قرون إلى إطار جديد، لم يكن يقل في أهميته عن الإطار المبدع الذي اتصف به عصر المذاهب الكبرى، إذ تميز ذلك الإطار بمحاولة تعليل الأحكام واستخلاص قواعد الاستنباط من فروع المذهب والترجيح بين الأقوال الواردة عن الإمام ثم تنظيم فقه المذاهب تنظيما دقيقا في موسوعات فقهية كبيرة مخصصة للمذهب حينا، ومقارنة بالمذاهب الأخرى حينا آخر (21).

أما الانحدار الكبير للفكر الفقهي الإسلامي فقد بدأ بعد سقوط بغداد بيد التتر، حيث توقف هذا الفكر بمجمله توقفا تاما لتوقف حركة التغيير في نواحي الحياة كلها، ولسقوط المراكز الحضارية في العالم الإسلامي برمته.

لقد اتصفت حركة الفكر الفقهي في هذا العصر بالجمود والانغلاق والتصريح بسد باب الاجتهاد وترك النظر في أمهات كتب الفقه الإسلامي والانكباب على اختصارها بأساليب ركيكة مخلة بالمعنى والمبنى.

21) المدخل لزيدان ص 149.

على أنه من الإنصاف أن نقول إنه قد جرت محاولة تاريخية فكرية كبيرة، لتحريك الحياة ومحاولة إحياء حركة التفكير الفقهي الإسلامي، اتسمت بالعمق والمرونة والإبداع قادها المفكر الإسلامي الكبير شيخ الإسلام «ابن تيمية» وتلميذه العلامة ابن القيم من بعده، ضمن محاولتهما الكبرى لإنقاذ العالم الإسلامي مما كان قد ران عليه من أكداس الثقافات الدخيلة والتعصب والجمود والاستسلام إلى العقلية الخرافية والتقاعس عن الجهاد في مناحي الحياة كلها. ومن المؤسف أن نقول إنه لم يكتب النجاح التام لهذه المحاولة الإسلامية العلمية الفكرية الضخمة إلا بعد مرور قرون أخرى، عاش فيها العالم الإسلامي عصورا مؤلمة من توقف حركة الحياة والفكر والتغيير.

الاتجاه الصوفي

التصوف من حيث هو ظاهرة سلوكية وعبادية، وتطهير للنفس الإنسانية وسياحة تأملية وفكرية في الوجود، أصيل في الاسلام. فالتربية الروحية في المجتمع الإنساني وصياغة شخصية الإنسان في ظلها لكي تحفظ توازنها أمام مغريات الحياة، كانت من المهمات الواضحة لنظام التربية والتعليم في المجتمع الإسلامي. لأن القرآن الكريم قائم أساسا على الدعوة إلى الله تعالى وعبادته وتطهير النفس الأمارة بالسوء وبيان سبل الاستقامة والسلوك الموزون.

إن الإيمان العقلي المجرد بخالق الكون وبالقيم والفضائل التي تنبعث منه، لا يمكن أن يجعل من الإنسان كائنا اخلاقيا ذا إحساس داخلي رقيق، مستقيم السلوك.

ومن هنا فإن القرآن الكريم رسم للحياة الإنسانية نظاماً شاملاً يستوعب حياته دعاه فيه إلى طاعة الله والخضوع له والائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه، كي لا يحدث الفصام النكد في تكوينه بين الماديات والمعنويات.

ونحن إذا قرأنا القرآن الكريم وجدنا آيات كثيرة تدعو الإنسان إلى الالتفات إلى الجانب الروحي من حياته ضمن الإطار العام في الكيان الإنساني دون ما تجزئة.

فقوله تعالى على سبيل المثال :

﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ (22).

وقوله تعالى :

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا﴾ (23).

وقوله تعالى :

﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ (24).

شواهد ناطقة على اهتمام الإسلام بتربية الروح وتعويد النفس على الطاعة، عن طريق العبادة الشاملة في الحياة كلها. وأما في الواقع فقد أحدث القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هزة كبيرة في حياة المسلمين، منها حياة اليقظة الروحية.

فلقد توجه صحابة رسول الله ﷺ إلى دراسة القرآن والتأمل في حياة نبيهم، فأشرقت على قلوبهم آيات الكتاب الكريم فأنارت ظلماتها فتوجهت بإخلاص إلى الله تعالى وعبادته والجهاد في سبيله، واقتدت بالرسول الكريم في عدم اعطاء حياة المادة أكثر من حجمها وعدم التذلل لها، وتميز من بينهم جمع من خلص أصحابه كانوا كما وصفوا رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار، استغرقوا في العبادة والصلاة وقراءة القرآن والاقتداء الكامل برسول الله ﷺ.

ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام حريصا على الاتزان التربوي بين متطلبات المادة والروح في إطار مذهبية الإسلام الشاملة الإنسانية، فكان يفهمهم أن الارتقاء الروحي لا يعني ترك الجهاد والعمل البناء في انشاء الحضارة الإنسانية. وكان يمنع أي مظهر من مظاهر التطرف في العبادة على حساب انطلاق الإنسان في هذه الدنيا. وكان يسمي ذلك تنطعا كما ثبت في الحديث الصحيح عندما قال لابي الدرداء «هلك المتنطعون، إن لبدنك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا» وذلك عندما رآه يواصل ليله بنهاره ويقصر في حق نفسه وحق أهله (25).

ولقد حاول المستشرقون من أمثال «كولدزير» و «نيكلسون» أن ينسبوا كل ما في الإسلام من خير وجمال وتعقل وحضارة إلى الأمم السابقة، ولم يكونوا جادين في طلب الحقيقة، منصفين في الوصول إليها. ولم يسلكوا السبل الموصلة إليها ولكنهم انطلقوا من أفكار مسبقة أرادت الدوائر اليهودية والنصرانية أن تطرحها تحت مظلة العلم والبحث في ساحة الدراسات الإسلامية، ألا وهي أن المسلمين عبر تاريخهم الطويل لم يكونوا إلا مقلدين للأمم السابقة (26).

فجولدزير يتخذ من بعض المعاني الروحية المتشابهة في الإسلام والنصرانية دليلا على تأثير الرهبانية المسيحية في الزهد الإسلامي ناسيا أن تلك المعاني الجزئية وردت ضمن كليات كثيرة تشكل نظاما قائما بذاته متكاملا يؤمن بالوسطية أو التعادلية بين المادة والروح، وغافلا أو متغافلا أن الإسلام لم يأت ناقضا لكل ما ورد في المسيحية، بل جاء مصدقا لما بقي من الحق في الدين الذي أتى به عيسى عليه السلام وأن تلك المعاني المتشابهة يصدر جميعها من مشكاة واحدة، هي مشكاة النبوة الإلهية.

ويذهب نيكلسون إلى هذا الرأي ويستدل بأن لفظ البكائين عند الزهاد المسلمين اقتبس من النصرانية وينسى أو يتناسى أن الجيل الأول من أهل الزهد في الإسلام لم يستعمل قط هذه الكلمة. ويذهب نيكلسون أيضا أن لباس الزهاد الأوائل الصوف مأخوذ من الرهبان. وقد ثبت أن لباس الصوف لم يكن سمة العباد الأوائل وأنهم نهوا عنه نهيا كاملا (27).

على أن هناك فرقا كبيرا بين الرهبان والعباد من حيث أن الأولين دعوا إلى التبتل والعزلة والإنقطاع عن الناس من خلال احتقارهم للحياة المادية. وأما العباد فإنهم لم يقدموا على ذلك لأن الخلاص من الآثام وتطهير النفس الإنسانية من أدران الفساد لا يتم في الإسلام باعتزال الحياة والناس. إن العابد المسلم قد يعتزل الفتن الكثيرة التي تمزق المسلمين، ولكنه لا يعتزل الجماعة المسلمة أبدا، بل

22) الحجر 99.
23) السجدة 16.
24) الشمس 9.

25) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور النشار 55/2 ـ 56.
26) نشأة الفكر الفلسفي 142/2 ـ 144.
27) المصدر السابق 147/2.

يعمل على صلاحها بصلاح الفرد، يتعبد ليلا كي يقوى على الخروج من صراعات الحياة المتنوعة معافى نهارا.

ومن هنا نرى أن العباد في صدر الإسلام كانوا من أصلب المسلمين جهادا في الحياة، وكانوا دائما يقاومون الفساد وينطقون بكلمات الحق أمام الظالمين ويذكرونهم بعذاب الله. وكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وكانوا في الحقيقة عنصر توازن صارم في المجتمع الإسلامي، يشحنونه بشحنات الإيمان والصلاح، وكانوا نماذج رائعة في التقوى، يتأسى بهم الناس ويلجأون إليهم في الملمات.

لقد استمر هذا الاتجاه الذي سمي بالزهد في المجتمع الإسلامي نتيجة تطور المجتمع الإسلامي. إذ كلما استبدت المغريات المادية بالناس وكثرت الآثام وظهرت المفاسد والمظالم، علت الدعوة إلى محاربة النفس الأمارة بالسوء وتقوث. وكان الوعاظ وأهل الزهد والإرشاد ينبهون الناس إلى الثغرات الروحية في الحياة وكيفية معالجتها. وكانوا ينطلقون من منطلقات روحية قرآنية.

وقد استمر الاتجاه الروحي على صفائه الإسلامي حتى بعد تطور الحركة الروحية واتخاذها مصطلح «التصوف والصوفية» بوضوح ابتداء من القرن الثالث الهجري، حيث انقلب التصوف إلى علم قائم بذاته سمي بعلوم الخواطر أو الأحوال أو المكاشفات.

يقول ابن خلدون «هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملة». وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا واختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة (28).

وعندما بدأ الصوفية يتعمقون في حقائق الدين ولا يكتفون بظاهرها فقط، ظهر الفكر الصوفي الذي تحول إلى مظهر من مظاهر الفكر الإسلامي. وهذا التطور كان طبيعيا في إطار الفكر الإسلامي، لأنه قد شمل التيار العقلي النظري الذي تطور إلى علم الكلام والفلسفة، وشمل التيار العقلي العملي الفقهي الذي تطور إلى صياغة علم أصول الفقه وبناء الاجتهاد على ضوابط واضحة لدى المذاهب الإسلامية.

هذا التطور الفكري العام كان طبيعيا في كافة الاتجاهات الفكرية. فأما تطور الاتجاه العقلي، فلقد كان نابعا من الحاجة إلى الدفاع عن أسس العقائد الإسلامية. وأما التطور الفقهي والأصولي، فلقد كان نتيجة طبيعية لنمو المجتمع الإسلامي في حياته العملية وتعقدها الحضاري. وكان التطور الروحي الذي انتهى إلى علم التصوف ناتجا عن طغيان الحياة المادية المنحرفة ابتداء من القرن الثاني الهجري. وكان المجتمع الإسلامي في حاجة حقيقية إلى هذه النماذج؛ إلى المتكلم الفيلسوف الذي يدافع عن عقيدته ويصوغ له مذهبيته التفصيلية الفكرية في شؤون الكون والمجتمع والإنسان وإلى الفقيه الأصولي الذي يستبط له حلول مشاكله اليومية وإلى المفكر الصوفي الذي يرسم له طريق الحياة الروحية ويحافظ على الميزان الأخلاقي في المجتمع المسلم، حتى يكون دائما كالواحة الخضراء في الصحراء القاحلة التي يأوي إليها المتعبون والضامئون والضائعون.

ولقد كان الفكر الصوفي نظيفا عند أمثال معروف الكرخى (ت /200 هـ) وبشر الحافى (ت /227 هـ) والحارث المحاسبى (ت /243 هـ) وسرى السقطى (ت /253 هـ) وأبى سعيد الخراز (ت /277 هـ) والجنيد البغدادى (ت /298 هـ) لأنه كان يعتمد عندهم على التأمل العميق في التوحيد والعبودية الكاملة لله تعالى، عن طريق تصفية القلب واستقامة السلوك ومجانبة الدواعي النفسانية والتعلق بالعلوم المستبطة من الكتاب والسنة.

28) دراسات في التصوف الإسلامي للدكتور محمد جلال شرف ص 28. بيروت 1980.

يقـول الجنيـد «إن من لم يحفـظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، أي التصوف، لأن علمنا هذا مقيـد بـالكتـاب والسنة» ثم يقول «مذهبنـا هـذا مقيـد بالأصول، الكتاب والسنة» (29).

ولقـد تبلـور فكر صوفي إسلامي عميـق في هـذه المدرسة الصوفيـة الإسلاميـة حول حقيقـة العبـادة والتوحيـد والكشف ووحدة الشهود واتبـاع السلـوك الحق إلى اللـه تبـارك وتعـالى، ووصف مراتب النفس وتصفيتهـا وأمراض القلب وشفائهـا، وحقيقـة هـذه الحيـاة ومركز الإنسـان فيهـا والخـلاص من الأخـلاق الرديئــة، والرذائـل التي تردي بالإنسـان إلى الهلاك ونبذ العبوديـة للـدنيـا ومعرفـة مظـاهر الشرك الخفى ومراتبها.

ولقد استطاع هؤلاء الأئمـة الصالحون المستقيمون أن يستنبطوا تـأملاتهم الفكريـة العميقـة من الكتـاب والسنـة، وبنوا بذلك نظاما روحيا إسلاميا أصيلا متميزا عن الأنظمـة الروحية الهنديـة والإشراقيـة والرهبـانيـة النصرانيـة والاتجـاه الروحي اليهودي احتفظ بجمال النظـام الروحي المتزن في إطار مذهبية الإسلام الشاملة في الوجود.

نجـد هـذه الأفكـار الصـافيـة في مثل قول أبي سعيد الخراز :

«إن اللـه تعـالى جعل العلم دليلا عليـه ليعرف وجعل الحكمـة رحمـة منـه عليهم ليـؤلف. فـالعلم دليـل إلى اللـه والمعرفة دالة على الله. فبالعلم تنال المعلومـات وبـالمعرفة تنال المعروفات، والعلم بالتعلم والمعرفة بالتعرف. فالمعرفة تقع بتعريف الحق والعلم يـدرك بتعريف الخلق. ثم تجرى الفوائد بعد ذلك» (30).

وقوله :

«إذا أراد اللـه تعـالى أن يوالى عبـدا من عبيـده، فتح عليه باب ذكره، فإذا استلذ الذكر فتح عليه بـاب القرب، ثم رفعه إلى مجالس الأنس به، ثم أجلسـه على كرسي التوحيـد ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية وكشف عن الجلال والعظمـة. فـإذا وقـع بصره على الجـلال والعظمـة بقي بلا هوى، حينئذ صار العبد زمنا فانيا فوقع في خطـه سبحـانـه وبرىء من دعاوي نفسه (31).

ونجدها كذلك في قول الجنيد في التوحيد :

«التـوحيـد إفراد المـوحـد بتحقيـق وحـدانيتـه بكمـال احديته بأنه الواحـد الـذي لم يلـد ولم يولـد، بنفي الاضداد والانداد والاشباه وما عبـد من دونـه، بلا تشبيـه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيـل، إلهـا واحـدا صمـدا فردا ليس كمثلـه شيء وهو السميع البصير» (32).

«أن يكـون العبـد شبحـا بين يـدي اللـه تجرى عليـه تصاريف تدبيره في مجاري احكـام قـدرتـه في لجج بحـار توحيده بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له وعن استجابتـه بحقـائق وجود وحـدانيتـه في حقيقـة قربـه بذهـاب حسـه وحركته لقيـام الحق لـه فيمـا أراد منـه، وهو أن يرجع آخر العبـد إلى أولـه، فيكون كمـا كـان قبل أن يكون، والـدليل على ذلك قوله عز وجل : ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهـورهم ذريتهم وأشهـدهم على أنفسهم، ألست بربكم ؟ قالوا : بلى**﴾ قال الجنيد في معنى ذلك : فمن أين كان ؟ وكيف كـان قبل أن يكون ؟. وهل اجـابت إلا الأرواح الطاهرة بإقامة القدرة وانفاذ المشيئة ؟ فهو الآن في الحقيقة كما كان قبل أن يكون. وهذا غاية حقيقة التوحيـد للواحد، أن يكون العبد كما لم يكن ويبقى الله تعالى كما لم يزل» (33).

وقـولـه «اعلم أن أول عبـادة اللـه عـز وجـل معرفتـه، وأصل معرفة الله توحيده، ونظام توحيده نفى الصفـات عنـه بـالكيف والحيث والأين، فبـه استـدل عليـه، وكـان سبب استدلاله به عليـه توفيقـه، وبتوفيقـه وقع التـوحيـد لـه. ومن توحيـده وقع التصـديق بـه. ومن التصـديق بـه وقع التحقيق عليـه. ومن التحقيـق جرت المعرفـة بـه، ومن المعرفـة بـه وقعت الاستجابة له فيما دعا اليـه، ومن الاستجـابـة لـه وقع الترقي إليـه. ومن الترقي إليـه وقـع الاتصـال بـه. ومن الاتصال به وقع البيان له. ومن البيان لـه وقع عليـه الحيرة، ومن الحيرة ذهب عن البيان ومن ذهابه عن البيان له انقطع

---

29) مقدمة ابن خلدون 1063/3 تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي.

30) العروسي : نتائج الأفكار 143/1 ـ 144 نقلا عن دراسات في التصوف الإسلامي ص 303.

31) دراسات في التصوف الإسلامي ص 276.

32) المصدر السابق ص 276 و286.

33) المصدر السابق ص 310.

عن الوصف له، وبذهابه عن الوصف وقع في حقيقة الوجود له. ومن حقيقة الوجود وقع حقيقة الشهود بذهابه عن وجوده» (34).

غير أن الفكر الصوفي المستقيم الذي تضبطه ضوابط القرآن الكريم والسنة النبوية لم يستطع أن يسيطر على عالم التصوف سيطرة كاملة، بل ظهرت منذ عصر الجنيد بوادر انحرافات تمثلت بشطحات الحلاج التي كانت نتيجة حتمية لثقافات أجنبية متنوعة، دخلت المجتمع الإسلامي وغزت فيما غزت الفكر الصوفي، وأخرجت طائفة من الصوفية إلى الشطحات حال السكر التي تمثل حالة عدم شرح الصدد الذى حصل لجنيد وأمثاله، نتيجة للخروج على ضوابط الفهم الصحيح للكتاب والسنة. كما أنها أخرجت طائفة أخرى إلى تبني نظريات هندية حلولية واشراقية ويونانية منحرفة جدا انتهى إلى القول بالحلول كما عند الحلاج في شطحاته، والفلسفة الاشراقية عند السهروردي (35) ووحدة الوجود عند محي الدين بن عربي (36) وابن الفارض وعبد الكريم الجيلي وابن سبعين، تلك النظريات التي لم تكن نتيجة طبيعية لتجربة روحية إسلامية، وإنما كان مظهرا واضحا لدراسات فلسفية عقلية لا علاقة لها بروحانية الإسلام عند المتصوفة المستقيمين من المتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله وضوابط فهمها الصحيح.

ولا يعني ذلك أن ساحة التصوف الإسلامي قد خلت من التيار الصوفي الإسلامي الصادق المنضبط بضوابط الشريعة، بل لقد استمر ذلك التيار عند أمثال الشيخ عبد القادر الكيلاني وأبي القاسم القشيرى والإمام الغزالي والسيد أحمد الرفاعي والإمام الرباني أحمد السرهندي الفاروقي وغيرهم. ولقد استطاع هؤلاء الأئمة الأجلاء أن يقفوا في عصورهم المتلاحقة أمام المنحرفين، وفضحوا اتجاهاتهم الفكرية، وإن شئت فاقرأ «الرسالة» للقشيرى. والغنية للشيخ عبد القادر الكيلاني والبرهان المؤيد للسيد أحمد الرفاعي، حتى يتبين لك كيف حارب هؤلاء تيار الاشراقية ووحدة الوجود والإباحية، ودعوا إلى تصوف السرى والكرخي والجنيد وغيرهم من أئمة الهدى، الذين حافظوا على عقائد الإسلام وشرائعه الواضحة، وكانوا مصابيح الهداية الربانية في دياجير الانحرافات والضلالات المهلكة. أننا لا بد أن نضع خطا واضحا بين الفكر الذي انطلق من الإسلام والفكر الذي انطلق من غيره، فإننا نقرر أن التصوف الإشراقي والفلسفي عند السهروردي وابن عربي وابن سبعين والجبلي وغيرهم ممن ساروا وعلى نحلتهم، لا يمكن أن يعتبر من الفكر الإسلامي، بل هو فكر فلسفي غير إسلامي، انطلق أساسا من منطلقات غير إسلامية وانتهى إلى نتائج غير إسلامية مناقضة لمذهبية الإسلام الشاملة في الوجود التي قررها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، والتي بنيت على التوحيد الخالص واتباع الشريعة في إطار الضوابط الصحيحة التي أجمع عليها ثقاة علماء الإسلام على تنوع مذاهبهم، والتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ وصحابته الأكرمين في العبادة والسلوك والحركة والحياة والابتعاد عن الرهبنة والهروب من الدنيا.



(34) المصدر السابق.

(35) المصدر السابق ص 312.

(36) دراسات في التصوف الإسلامي ص 318.

في المُعادلاتِ الثّابتَة

الفطرة، الحُرية، العَدل، المُساواة

للأستاذ الحسن السايح

الحرية هدفها العدل

لماذا خلق الإنسان في كبد ؟ ولماذا يكون مضطر للصراع ؟

هناك معادلات ثابتة وهي إرادة الحياة، فإذا لم يملك الإنسان الإرادة لم يكن حيا أو خليقا بالحياة وأحرى بالصراع في الحياة !

فإرادة الحياة فطرة في ذاتية الإنسان، وهي المحركة له والدافعة لحركته،، ومن فطرة الإنسان أن يحقق ذاته بيولوجيا في صراع مع الآخرين الذين يحققون وجودهم على حسابه، فالجماعة صراع مستمر يحاول كل فرد أن يطوع الآخرين لإرادته قصد نمائه، ولا يعترض طريقه إلا نفس الصراع الذي يملكه كل فرد ليحقق حياته بنفس الطريقة ! وكما يواجه الإنسان صراع الآخرين؛ يصارع الطبيعة نفسها، ليثبت تفوقه عليها حتى لا يسقط فريسة لها، لأن من طبيعة الطبيعة أن تلاحق حياة الإنسان في قسوتها المريرة، فلذلك يظل مستعدا لها في تقلبات جوها، وغضب زلازلها وبراكينها، ورياحها وأمطارها، وجذبها وجوائحها؛ والإنسان وسط هذه العواصف يواجه (العدم) بالوجود والموت بالحياة.

إن الطبيعة الصماء في سكونها المرعب، لا يقاومها الإنسان إلا بوعيه، وحذره. وأية لحظة يفقد فيها وعيه، يفقد في الواقع، خصوصية وجوده.. ووعيه في الواقع هو شخصيته وهويته.. فالوعي الذاتي بالذات وللذات هو حقيقة **فطرته وغريزته** معا..

فالفطرة هي الوعي الذي يسمو بعقله ووجدانه، والغريزة هي عملية بيولوجية تربط ماديته باستمرارية وجوده، وليس هناك ثنائية وإنما هي وحدة تركيبية تجمع نفسه وعقله وإحساسه، وما يغذي كل ذلك كله من نزعته البشرية التي تربطه بالأرض..

لهذا **فالفطرة** قانون ثابت، ومعادلة صحيحة يستخدمها الإنسان في مواجهة معضلات الحياة، ويسترشد بها ليتحرك من أرضية صلبة ليثبت علاقته مع الطبيعة والكون والآخرين من طبيعته الذاتية التلقائية، وحاجاته وطاقاته حتى يكون ملقحا بمصل **الإنسان** الذي يسيطر على الطبيعة والكون دون أن يسقط فريسة للطبيعة نفسها.

فالواقع أن الإنسان **ذري**، ولكنه ذرة مرتبطة بباقي الذرات الكونية، يتلاحم معها ويتجاذب، أو يتنافر، وهو ذرة مستكملة لكل عناصر الكون كله، ولا يحقق ذاته إلا في مواكبتها أو مقابلتها، أو مصادمتها، وعلى قدر **وعيه** لذاته الكاملة قد يحقق الانتصار والسيادة؛ أو يعاني الشقاء والبؤس.

وما دامت الفطرة بهذه المكانة، فهي في الواقع حقيقته وطبيعته وغريزته. (فالفطرة) تسامي وتعالي وبحث عن المطلق، وهي في الغريزة بحث عن تحقيق الذات والدفاع عن الوجود وتحقيق الرغبات مما يتفق وطبيعة كل الحيوانات، فمن واجب الإنسان أن يعرف كيف يجب أن يكون، لأجل أن يكون، وهذا ما يفرض عنه الانتقال من واقع إلى واقع آخر.. حسب تغيرات الواقع نفسه في تلاطم ذراته المتعددة، والمتصادمة كما تتصادم ذرات الشمس في الفضاء.

إن الإنسان ذرة كاملة، وآفاته هو تَسَيُّبَهُ وعدم تلاؤمه مع الذرات التي تسبح حواليه، فهو يكاد أن يكون نظاما قائم الذات في وحدة ذريته، يتلاحم في ذاته تلاحما اجتماعيا ذاتيا واقتصاديا للتبادل مع الطاقة الكونية ذاتها..

وتبقى **مشكلته** كيف يتعامل مع البيئة المتغيرة باستمرار.. لذلك فليس له هدف واضح، ولا أسلوب قار، ولا ميكانزم لا يتغير، وإنما هو في حنين دائم ليتخلص من واقعه الذي يصبح أليما إلى واقع مستقبل يجهله.. ولذلك يحنُّ إليه، وفي عالمه الفسيح الذي لا يعرف الحدود يحاول الإنسان أن يستلهم الحقيقة ! فهي الوحيدة التي يمكن أن تحقق له الاطمئنان النسبي، ولذلك حاول أن يتزلف إلى الطبيعة ليقاوم غطرستها وتعنتها واستهتارها به فسجد للشمس وللقمر وللنجوم وللرياح ولأمواج البحر، ولكن لم يستجب له شيء من ذلك، فرجع إلى ذاته يستلهم وعيه الداخلي وعلاقاته الوراثية بالكون، بل رجع إلى فطرته ليتسامى في بحثه عن حقيقته...

وكان الإلهام يعوض الغريزة المتنامية على حساب الفطرة السليمة، ثم تنامت الفطرة إلى الوحي لتعرف بداية منطلقات الخلق الأولى قبل أن يصبح الإنسان سويا.. فمعرفته بالتاريخ وأولية نشأته كانت في الواقع أقوى استجابة للتخطيط لغده، فالماضي لم يتمثل في الذاكرة التي ستجلي صورة المستقبل ويدفع بالإنسان إلى الخلق والإبداع ومواجهة التغير ليحقق التطور.

إن كل معرفة هدفها هو ماذا سيحدث في المستقبل، وكيف يجب أن يحدث... فعندما عرف الإنسان أنه احتمى بالأشجار ليتقي البرد والحر، لم يفكر قط في استعادة الصورة إلا ليشيد حصنا يقيه الحر والبرد، وليبحث عن سبب لذلك، وكان القانون الثاني بعد الفطرة قانون السبب والمسبب، والعلة والمعلوم.. وبهذه المعادلة الثابتة أصبح قادرا أن يحقق لنفسه تقدما مستمرا، فالنار سبب الإحراق، والماء سبب الإطفاء، والنار تتغير، وتتغير حسب قوتها وحطبها والمكان الموضوعة فيه،،، وبتدخل الإنسان استطاع أن يغير وبوعيه للتغيير أصبح قادرا أن يطور...

فالتغير قد يكون انتكاسا، أما التطور فهو تقدم مستمر وإذا فمن الثوابت قانون الفطرة وقانون الحركة وقانون العلة والمعلول.. وهو القانون الذي يربط الإنسان الفرد بالمجتمع، وبالطبيعة وبالكون كله ولا يستطيع الفلاسفة الماديون أن يقيموا علاقات الإنسان على **الديالكتيك** وحده، أي قانون التناقض باعتباره المحرك للإنسان في جدليته مع المجتمع والطبيعة، كما لا يستطيع الليبراليون أن يقيموا العلاقات على أساس الحرية المطلقة التي تحدد موقفها من الآخرين.. فالمعادلات متعددة ومتناسقة وهي وحدها التي تحدد الثوابت، كما أنها محددة نفسها بالثوابت.. وقادرة على تفسير حركة التاريخ وهدفيته..

الفطرة معادلة ذاتية توازنية وعضوية، ومسايرة الفطرة مسايرة للتطور الطبيعي الذي ينتج عن تفاعل الذات فيما بينها باستمرار، وتفاعلها مع الخارج (أي خارج الذات) ليس حركة تضاد تخلق الحركة والحيوية ولكنه تضاد وتكامل وتقابل.. وهذا ما يجعل التفكير الإسلامي رفض **(الديالكتيك)** الذي ليس إلا جانبا من حركة التفكير والذي ليس بقانون ثابت، إذ نلاحظ في الطبيعة قوانين ثابتة لا ترتكز على التضاد.. فمعادلة (الأكسجين والإدرجين) لتكوين الماء ليست تضادا لأن نتيجتها واحدة ونمو البذرة في الأرض عندما تتوفر على الماء والهواء والضوء وعناصر التكوين، ليست قاعدة **تضاد** وإنما هي حقيقة ثابتة متى توفرت الشروط وكذلك بالنسبة لنمو المجتمعات لا يحتاج تكوين الأسرة إلا لشروط خاصة بحيويتها.. ولعل من الواضح أن الطبيعة في مسيرتها لا تنتكص إلى الوراء، بل هي في تطور دائم تخضع لقانون النشوء والارتقاء، وقانون الحاجة تخلق العضو بخلاف عالم الإنسان العاقل فإن تدخل (الإنسان) يساعد على سرعة

التطور ما دام يسير وفق القوانين الثابتة، ولا يعترض مسيرة التيار بل يضاعف من استخدام المعادلات بطريقة الفهم الواعي الشمولي وإلا احدث **تغييرا** قد لا يكون في صالح الإنسان نفسه...

إن تدخل الإنسان لا يكون بالعقل وحده ولا بالوجدان وحده، بل لابد من التكامل بين مختلف قدراته وملكاته، وأن ينسجم ذاتيا مع الموضوع الذي يعالجه وهذه الشمولية عبر عنها الفلاسفة القدماء بالعقل الكلي، ولكن الدين وجدها واضحة في الوحي وخلاصة الوحي في الدين، والعقل الأولي الشمولي في الفلسفة تتجه دوما إلى مستقبل الإنسان ليستطيع حل المشاكل التي يعانيها ولكن الوحي هو الحق الذي لا شبهة فيه، وأهم هذه المشاكل سؤاله الأبدي : لماذا يعيش الإنسان ؟ أما غذاؤه وقوانينه وعلمه، فهي قوام الشخصية (لاستمرارية ناسية كل التطلعات الغدية،، واستطاع الإسلام بفلسفته المتكاملة والمنطلقة من الفطرة أن يعطي أجوبة لحل المشاكل الإنسانية. فلم يقر مبدأ **الديالكتيك** لأنه لا يعطي تفسيرا لغاية الوجود بل يسلب الإنسان من إرادته وعزمه ليضعه في جبرية قهرية، ولكن الإسلام وجد في **الفطرة** أداة الحاجة الإنسانية للتسامي وفي **الغريزة** الحاجة البشرية لاستمرارية وجوده... وأعطى الإسلام للفطرة حظا متعادلا مع القدرة الذاتية والقدرة السامية ليطور حالته، ويجيب عن أسئلته، ويستمر في المعاناة...

حول تحقيق النصوص :

ديوان البهاء زهير

للأستاذ حسن الأمراني

قال ابن عباس رضي الله عنه : إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعرا، (العمدة : 30/1) وتظل أشعار العرب كذلك ما لم يمسها تحريف أو تصحيف، وقد صنف العلماء في هذا الباب مثل كتاب (التصحيف والتحريف) للحسن العسكري، وتناول هذا الموضوع الإمام ابن حجر في كتاب (شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر)، كما اهتم علماؤنا بتمييز الصحيح من الزائف من الشعر، وبتوثيق النصوص وتحقيقها تحقيقا علميا، وصنفوا في هذا العلم أيضا كتبا قيمة. ومن ذلك كتاب (الالماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع) للقاضي أبي الفضل عياض، وكتاب (تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم) لابن جماعة، وكتاب (المعيد في أدب المفيد والمستفيد) لعبد الباسط بن موسى بن محمد العلموي.

ومما يقوله القاضي عياض في (الالماع : ص 159) :

(وأما مقابلة النسخة بأصل السماع ومعارضتها به فمتعينة لا بد منها، ولا يحل للمسلم التقي الرواية ما لم يقابل بأصل شيخه أو نسخة تحقق ووثق بمقابلتها بالأصل، وتكون مقابلته لذلك مع الثقة المأمون ما ينظر فيه، فإذا جاء حرف مشكل نظر معه حتى يحقق ذلك). وهذا منهج رفيع في ميدان التحقيق، يقوم على مقابلة الفرع بالأصل، في وقت كانت لا تزال فيه للرواية مكانتها. ومعلوم أنه كلما تقادم العهد، ضعف شأن الرواية، وعلا شأن الكتابة، وهذا أمر نبه عليه عياض في كتابه. ولن نطيل في هذا الباب، فقد أردناه مدخلا للموضوع، وتكفي الإشارة إلى أن للمحدثين جهودهم في هذا المجال نذكر منهم على سبيل المثال عبد السلام هارون في كتاب (تحقيق النصوص ونشرها) وقد ظهرت طبعته الأولى (1374 هـ - 1954 م) وأثبت المؤلف على غلاف الكتاب أنه (أول كتاب يظهر في هذا الفن يوضح مناهجه ويعالج مشكلاته)، وصلاح الدين المنجد صاحب كتاب (قواعد تحقيق المخطوطات). وإذا كان حرص الأقدمين على سلامة النص وتحقيقه وتوثيقه بعض ما رأينا، وإذا كان بعض المحدثين سار على نهج الأقدمين في الأمانة وقدر العلم، فإن بعض دور النشر عندنا تلقي إلينا كتبا، وقد أثبت عليها بعض العبارات مثل : (حققته نخبة من العلماء) أو (حققته لجنة من الأساتذة)، فإذا تقدمت في القراءة رأيت عجبا، ولكان أفضل خروج هذه الكتب إلى الناس، دون تحقيق ولا تعليق، من أن تخرج إليهم على هاتيك الصورة. ولنا أن نتساءل : إلى متى ندع شبيبتنا نهب ما تلقي به بعض المطابع، دون رقيب (علمي)، فتعوج ألسنة كنا نريد لها أن تستقيم، وتفسد أذواق كنا نريد لها أن تسلم ؟

حدثتني نفسي أن أستريح قليلا بعد طول عناء، فقلت لها : ما نجد أروح من ديوان شعر نأوي إليه بعض الوقت، وسرعان ما مددت يدي إلى خزانتي وتناولت ديوان البهاء زهير، وكان حريا أن يحقق بعض ما رجوت عنده، فإن لشعر البهاء بهاء، وهو لا يخلو من طرافة ودماثة، كقوله :

تكهنت في الأمر الذي قد لقيته
ولي خطرات كلهن فتوح
فراسة عبد مؤمن لا كهانة
ومن هو شق عندها وسطيح ؟

وشق وسطيح، كما هو مشهور، كاهنان عاشا في الجاهلية الأولى.

ولكن الطبعة التي وقعت لي من ديوان البهاء ردتني إلى حاق الجد، وكلفتني أن أصحح بعض ما ورد فيها من أخطاء. وعنوان الكتاب (شرح ديوان بهاء الدين زهير) وهو صادر عن دار الكاتب العربي ببيروت، وقام بشرح الديوان ابراهيم جزيني، وصدرت طبعته الأولى في ربيع الثاني 1388 تموز 1968. ولقد أردت أن أنبه على بعض ما ورد في الديوان من أخطاء، وصنفت هذه الملاحظات ثلاثة أصناف :

أولا : والأمثلة على هذا الصنف كثيرة، ونعني به الخلط الواقع بين الأبيات داخل القصيدة الواحدة، والخطأ في رواية الأبيات أو ضبطها، ففي الصفحة (22) جمعت أبيات مختلفة الوزن متباينة المعنى، وهذا مثل ذلك :

جاء في حاجة وجئتك فيها
فأنا اليوم طالب مطلوب
فهلا سرت منك اللطافة فيهم
واعتدتهم آدابها فتأدبوا

وواضح أن البيت الأول من الخفيف، وأن البيت الثاني من الطويل، بالإضافة إلى تباين القافية. وكذلك كان الأمر في الصفحة (90). ومن الخطأ ما ورد في هذا البيت :

ولو لم يمكن إلا الحديث فإنه
يخفف أشجان الفتى ويريح

وصوابه : ولو لم يكن...

ثانيا : ويتضمن هذا الصنف، شرح الألفاظ شرحا غريبا، بعيدا عن روح النص الشعري، وهذه أمثلة له :

قال بهاء الدين :

وبشرت باليوم الذي فيه نلتقي
ألا انه يوم يكون له نبا

قال الشارح : ص 24 (نبا : يقول أنه نفر منه ولم يقبله ولم يطمئن عليه).

وقد كان له عن كل ذلك مندوحة، ويكفيه أن يشير إلى أن (نبا) أصلها مهموز، أي (نبأ) فحذف الهمز، فصارت (نبا).

وقال البهاء :

ولكم كتمت صبابتي
والله علام الغيوب
ورجوت حسن العفو منه
فهو للعبد المنيب

قال الشارح (27) : (المنيب : من يقيم مقامه وكيلا في أمر من الأمور، المطر الكثير، الحسن من الربيع). وقد طوف بعيدا دون أن يعثر على المعنى المراد، رغم أن معنى البيت يتضمن معنى الكلمة، والمنيب هو التائب إلى الله، الراجع إلى ربه، من : أناب ينيب، وفي القرآن الكريم : (إن ابراهيم لحليم أواه منيب) سورة هود = الآية 75 = (ان في ذلك لآية لكل عبد منيب) سورة سبأ : 34.

وحين قال البهاء :

وكنت كسورة الإخلاص لما
عبرت، وكنت أنت كذي جنابه

شرح الشارح كلمة (جنابة) بقوله : أي كنت كالفرس السلس القيادة (ص 33)، وهذا من أغرب ما وقع له. وإنما أراد الشاعر أن المخاطب كان كأنه جنب، والشاعر كسورة الإخلاص (ولا يخفى ما في اختيار سورة الإخلاص دون غيرها من السور من دلالة في هذا الموضع)، ولا يحق للجنب أن يمس القرآن، ولا أن يتلوه حتى يغتسل ويطهر.

وهو يشرح الحدب، من قول الشاعر :

أيا من راح عن حالي
يسائل مشفقا حدبا

بالتعب، وليس الأمر كذلك، وإنما الحدب العطف والاشفاق، ومنه : حدبت المرأة على ولدها، إذا هي امتنعت عن الزواج بعد أبيه رأفة به.

ويشرح المجتبى بمعنى المعتزل والمبتعد من قول الشاعر بهاء الدين :

قالوا صديقك قلت أعـ
ـرفه الصديق المجتبى

والاجتباء الاختيار والاصطفاء. وفي القرآن الكريم (الله يجتبي من يشاء ويهدي إليه من ينيب) الشورى/13 وقال تعالى : ﴿**فاجتباه ربه فجعله من الصالحين**﴾ القلم/50.

والجد (بالفتح) من قول البهاء :

والجد إن أمضى عزيمة ماجد
راح السكون ينوب عن حركاته

يشرحه بالنشاط، وليس كذلك فهذا بالكسر، وهو لا يستقيم مع معنى البيت، فهو فيه بالفتح ومعناه هنا الحظ، ومنه قول المتنبي :

ومالك تعنى بالأسنة والقنا
وجدك طعان بكل سنان

وعندما قال زهير :

يحكي الغزالة بهجة وتباعدا
ويقول قوم مقلة ومقلدا

قال الشارح : (المقلد هو السيد الذي أنيطت به قيادة الأمور) (ص 69).

وليس كذلك، وإنما المقلد العنق، أو هو ـ بالتدقيق ـ موضع القلادة من العنق.

وقال إن المقصود بالمتقصد هو القنا الحاد في قول الشاعر :

الحالبين البدن من أوداجها
والموقدين لها القنا المتقصدا (ص 70)

والمتقصد من القنا المتكسر. قال قيس بن الخطيم :

ترى قصد المران تهوي كأنها
تذرع خرصان بأيدي الشواطب

وأما الحبرة، من قول الشاعر :

وبيننا من أحاديث مزخرفة
ما يخجل الروضة الغناء والحبره

فهو يشرحها بسعة العيش (ص 89)، والحبرة ثوب مرقش يمان، وهو المعنى المناسب للبيت.

ومنه قولك : حبره أي زينه ورقشه ونمقه، وكان معاوية، رضي الله عنه، إذا أراد أن يسمع شيئا من شعر قيس بن الخطيم قال : انشروا علينا حبرات قيس. يقول ذلك لجودة شعره.

ونختم الحديث عن هذا الصنف بما ذهب إليه شارح الديوان من أن الوتر هو الظلم في العداوة أو الانتقام، (ص 99) وذلك في قول الشاعر :

ورد على المحراب منها صلاته
وكم بات مشتاقا إلى الشفع والوتر

وهذا المعنى، وإن كان موجودا في اللغة، إلا أن البيت يستصرخ منه، وكأن الشارح نسي قول الله عز وجل في سورة الفجر : ﴿**والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسري هل في ذلك قسم لذي حجر**﴾ أو غاب عنه ما جاء في الأثر : (اجعلوا آخر صلاتكم وترا)، وقد أوغل في طلب المعنى، ولكنه أفلت منه.

ثالثا : وأما الصنف الثالث، مما ينبغي الوقوف عنده، فتعلق بالمعاني العامة للأبيات التي (تكشف عن مظاهر الثقافة العربية بألوانها المختلفة) مما أشار إليه الشارح في المقدمة التي كتبها للديوان (ص 6) ولكنه لم يستفد من تلك الإشارة كثيرا. ومن هذا الصنف قول الشاعر :

خليلي عوجا بي على الندب جلدك
أقض لبانات الفؤاد المعذب
فتى ما جد طابت مواهب كفه
فلا تذكرا بي بعدها أم جندب

قال : (عوجا بي على الندب : مرا بي على آثار ديار الحبيب ـ أم جندب : كنية حبيبته) (ص 21).

ولو استنجد بأقرب ألوان الثقافة العربية إلى ميدانه، إذن لأسعفه في حل ما توهمه معضلا. فمن مظاهر الثقافة العربية القريبة، التي يكشف عنها البيتان، قول امرئ القيس :

خليلي مرا بي على أم جندب
نقض لبانات الفؤاد المعذب

فأم جندب اذن ليست كنية حبيبة البهاء ولكنها كنية زوج الملك الضليل. وجلدك اسم الممدوح، وإذ وصفه بالندب فقد أضفى عليه صفة النجابة، فكيف يستقيم بعد هذا، القول بأن الشاعر يقول : (مرا بي على آثار الحبيب) ؟ ثم إن البهاء يؤكد في البيت التالي أن عطايا الممدوح تسليه عن الغواني، (وقد رمز للغواني بأم جندب، شاغلة امرئ القيس).

ثم جاء إلى قول بهاء الدين :

يـــــاذا النـــــدى والمعـــــالي
والعشرة المستطـــــــابـــــــه
ورب رايـــــــة مجـــــــد
قـــــد كنت فيهـــا عرابـــــه

فقال : (عرابه : أي كنت شاهدا على انتصاره وسموه) (ص 32) فلم يزدنا بما قال علما، ولم يستطع أن يدرك اشارة البهاء إلى البيت المشهور :

إذا مـــــا رايـــــة رفعت لمجـــــد
تلقـــاهـــا عرابـــة بـــاليمين

وهذا يقوله الشماخ في مدح عرابة الأوسي.

وكذلك لم يتنبه إلى ما في قول البهاء :

يــا معجـز الايـــام قرع صفـــاتـــه
ومحمـل الـــدنيـــا بحسن صفـــاتـــه
يـــا أحنفـــا في حلمـــه وثبـــاتـــه
بـــل حـــارث الهيجـــاء في وثبـــاتـــه

من اشارة ذكية، فمضى يقول : (أحنف : عني به المعوج) (ص 40) وما درى أن فهمه كان معوجا، فلقد أراد الشاعر أن يضفي على هذا الممدوح الذي جعل الأيام عاجزة عن قرع صفاته، مثلا في الحلم وفي الإقدام، فشبهه بالأحنف بن قيس، وكان يضرب به المثل في الحلم والثبات، كما شبهه بالحارث بن عباد، وهو مشهور بوثباته وإقدامه، إذا احتدم الوغى، وقد ذكر أبو تمام هذين الرجلين في شعره، فقال في الأحنف، وهو يمدح أحمد بن المعتصم :

اقـــــدام عمرو في سماحـــــة حـــــاتم
في حلم أحنف في ذكاء ايـــــــاس

وهو يعني بهؤلاء، والله أعلم، عمرو بن معديكرب، وحاتما الطائي، والأحنف بن قيس، واياس بن معاوية القاضي. وحين أنكر عليه قوم من حساده بقولهم : الأمير فوق ما ذكرت، قال على البديهة :

لا تنكروا ضربي لـــــه من دونـــــه
مثـــلا شرودا في النـــدى والبـــاس
فـــاللـــه قـــد ضرب الأقـل لنـــوره
مثـــــــــلا من المشكاة والنبراس

وأما الحارث فقد ذكره أبو تمام في قوله :

كم وقعـــة لي في الهـــوى مشهـــورة
مـــا كنت فيهـــا الحـــارث بن عبـــاد

وكان الحارث بن عباد فارسا شاعرا، وهو الذي يقول عن أحد أيام العرب في الجاهلية :

لم أكن من جنـــاتهـــا ـ علم اللـــ
ـــه ـ واني بحرهـــا اليـــوم صـــال

ومن أغرب ما وقع في هذا الصنف، شرح الشارح لبيتي البهاء :

كنت أشكـــو البعـــاد حتى التقينـــا
فـــأنـــا اليـــوم شـــاكر للبعـــاد
فعـــل القرب فـــوق مـــا فعـــل البعـــ
ـــد بقلبي من شـــدة الانكاد

يقول : (المعنى : يشكر البعد الذي أصبح قريبا وجمعه إلى حبيبته) (ص 78)، وهل يقول هذا لبيب، أو يفهمه ؟

ونختم هذا الباب بما قاله عن قول البهاء، رحمه الله :

فخـــذهـــا على مـــا حيكت ابنـــة ســـاعـــة
أتتـــك على استحيـــائهـــا تتعثر

قال : (ابنة ساعة : الفتاة العابرة) (ص 104)، ولعل من حقنا بعد أن نعجب، فالبيت دال على أن الشاعر قد رضي لنفسه في صناعة الشعر طريقا غير طريق أبي تمام الذي يقول عن القصيدة :

خـــذهـــا ابنـــة الفكر المهـــذب في الـــدجى
والليـــل أســـود رقعـــة الجلبـــاب

وهذا بيت يقوله أبو تمام من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي. وكأن بهاء الدين حين يجعل قصيدته ابنة ساعة، أقرب إلى روح أبي الطيب الذي يلقي قصائده (شوارد) وإن كان (يسهر الخلق جراها ويختصم).

وبعد، فما تلك غير خطرات خطرت، وأنا أقرأ ديوان بهاء الدين زهير، وما أردت الإحاطة، وإنما اقتصرت على اللمحة العابرة، عسى أن تنهض طائفة من الأمة المجتباة بأعباء إخراج تراثنا العلمي والأدبي اخراجا علميا رصينا رزينا، يفيد منه أبناء هذه الأمة، ويفيد منه كل من يريد الاطلاع على تاريخ وتراث هذه الأمة.

حسن الأمراني

في أعدادنا القادمة

- المجتمعات الاسلامية في القرن الأول
- المساواة في الإسلام بين النظرية والتطبيق.
- من اعلام تطوان: أبو عبد الله الفرطاخ العالم المحدث.

ابن حبوس



للأستاذ عبد الكريم التواتي

إذا كان الأدب المغربي في عمومه، يمتاز بأن الخيال فيه يأتي بعد الحقيقة، وأن الطبع فيه يغلب التصنع، وأن القصد إلى الوضوح فيه أكثر منه إلى الغموض، فإن آداب فترة الموحدين ـ حيث تتجلى البيئة المغربية المنفصلة عن الشرق والأندلس ـ تمتاز بالخصوص :

من حيث المضمون والمجال بغلبة الروح الدينية مع الثورة على الجمود الفقهي، وبظهور بعض الأفكار الفلسفية والعلمية المزيجة بالحكمة إلى حد ما، وخاصة في آثار أدباء وشعراء عهد (يوسف بن عبد المومن) الذي كان يضم بلاطه، أمثال : ابن رشد، وابن طفيل، مما دعا (فريديريك الثاني) ملك إيطاليا إلى استفتاء علماء سبتة والمغاربة في عدة قضايا فلسفية، توجد من بين أجوبة (ابن سبعين) التي يضمها كتابه (المسائل الصقلية).

ومن حيث الأسلوب والشكل : فإن الأدب المغربي لهذه الفترة يمتاز باستعمال ألفاظ بربرية، وبظهور الزجل، وعروض البلد ـ وهو ما يطلق عليه لدى المغاربة بالشعر الملحون ـ ويمتاز أيضا بظهور الأوزان الخفيفة كالخفيف مع التفصيل في الأحداث، ثم بإدخال عنصر القصة.

وسنحاول لدى تناولنا آثار كبار شعراء هذه الدولة ابراز صور من هذه الميزات، وخاصة منها الميزة الدينية التي تجلت بصورة واضحة جدا في شعر (ميمون الخطابي) كما سنرى عند دراستنا لنبوياته الطويلة النفس التي بلغت حد الملاحم.

إلا أن الشاعرين : ابن حبوس، والجراوي، اعتبرا على الدوام لساني هذه الدولة الرسميين، وشاعريها المنافحين عن مبادئها الدينية والسياسية، والمشيدين بعظائمها الحربية، ومفاخرها العمرانية، فاستأثرا ـ لذلك ـ باهتمامات الدارسين، ومزيد عناية الباحثين، ونالت آثارهما أكبر قسط من الدراسة، وحظا لا بأس به من التحليل والتناول. وسنحاول بدورنا أن نلقي أضواء على حياة وآثار من نعتبرهم أبرز شخصيات هذه الدولة فكريا وثقافيا وأدبا شعرا ونثرا، (ابن حبوس) و(ابن الياسمين) و(أبو حفص عمر الاغماتي) و(ميمون الخطابي) ثم (ابن العابد الفاسي) وذلك من خلال ما بين أيدينا من آثارهم. وبما أن ابن حبوس كان أسبقهم ظهورا وأسبق أولئك الخمسة اتصالا بالموحدين فقد رأينا أن نبدأ بالقاء بعض الأضواء على حياته، على أن نتبع ذلك ببقية الخمسة إن شاء الله.

وابن حبوس أبو عبد الله محمد بن حسين، ينتمي - حسبما جاء في الذيل والتكملة - بالولاء إلى آل ابن أبي العافية الذين ملكوا المغرب أيام تبعية المغرب سياسيا لأمويي الأندلس، إلا أن اسمه الصريح بالبربرية، وكون أصل ومنحدر أصول آل أبي العافية من بني (مقرول بن كسول) احدى قبائل حاضرة (تازة) البربرية، يجعل هذا الولاء في محل شك وتساؤل.

على أن في آثار الرجل ما تشتم منه رائحة أصله البربري، فعندما غضب عبد المومن على وزيره (أبي جعفر بن عطية) ثم أعدمه، بعد أن سجنه طويلا لعدة أسباب ومبررات منها - فيما ذكروه - إفشاء أسرار الدولة، وأمر الشعراء أن يهجوا هذا الوزير المغضوب عليه، كان مما قاله ابن حبوس في الموضوع هذان البيتان :

أنـــــدلسي ليس من بربر
يختلس المـلـــــك من البربر
لا تسلم البربر مـــا شيـــدت
للمـلـــــك القيسي من مفخر

ورأى ابن حبوس النور أول وروده الدنيا بفاس سنة خمسمائة هجرية : 500 هـ، فهو إذن من حيث الواقع الميلادي، مرابطي النشأة والتكوين، إذا وضعنا في حسابنا أن دولة المرابطين لم تنهر نهائيا ولم تنته إلا في سنة 542 هـ، وإن عد - أي ابن حبوس - من حيث التصنيف التأريخي الأدبي موحديا. وقد أثبت المراكشي في معجبه مرابطيته تلك، وذكر (أنه كان في دولة لمتونة مقدما في الشعراء، حتى نقلت إليهم عنه حماقات، فهرب إلى الأندلس) وسكت المراكشي عن نوعية هذه الحماقات وماهيتها.

إلا أن ما أبداه - لدى ظهور الموحدين - من حماس لدعوتهم، وتناصر لقضيتهم، وتأييد لمذهبهم في العقائد والكلام، واعتناق مواقفهم العدائية تجاه جمود الفقهاء الذين كانوا السادة لعهد المرابطين قد يكون من بعض تلك الحماقات. كما أن سورة الشباب قد تكون هي الأخرى حملته على انتقاد المرابطين بعد أن سار زمانا في ركابهم، فقد كان اتصاله بهم في مراكش بعد أوبته من جولته بتلمسان وهو يومئذ في عنفوان شبابه، والشباب طموح فقد يكون قدر أول الأمر أن في الإمكان استغلال نبوغه الأدبي، وما أظهره المرابطون تجاهه من تقدير وشفوف فلما رأى أن دون تحقيق أهدافه ومطامحه خرط القتاد، بسبب ما كان يفرضه الفقهاء من حصار على بلاط المرابطين، حتى لا يكون لغيرهم فيه مكان، مما أدى إلى كساد سوق الأدب والشعر، وإلى هزال مراكز أصحابهما، وشم في نفس الوقت رائحة انتقادات الموحدين، الذين كانوا قد بدأوا ينشرون أفكارهم تحت غطاء من مؤاخذة المرابطين على ما ظنه الموحدون خروجا عن السنة وتنطعا، وهداه إحساسه المرهف إلى أن الظرف ظرف ترقب وأن المرحلة مرحلة انتقالية، وربما فكر نتيجة لكل ذلك - في سلوك سياسة التلاعب على الحبلين والضرب بحجر واحد عصفورين على التظاهر بالتعاون مع المرابطين، وفي نفس الوقت التعاون مع الموحدين، عن طريق انتقاد اعتماد المرابطين على الفقه والفقهاء في كل ما يأتون من الأمور أو يذرون، واستعمل في ذلك ما كان يتوفر عليه من سلاح أي الشعر، الذي اتخذه مطيته لتحقيق هدفه الثاني، فأخذ بواسطة الشعر ومن خلاله ينفث سمومه ويبث زفراته ويسجل احساساته المكبوتة : والشعر في أصله وخاصة الهجاء منه والمديح - ليس إلا تنفيسا للكروب، وهروبا من جهامة الواقع الكريه.

ثم لئلا يغيظ القائمين على الوضع أحدث طريقا جديدا للتناول الشعري هو أشبه بما يسميه النقاد المحدثون بالرمزية إذ تبنى الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة وحدهما، وفي نفس الوقت - ولعل هذا ارضاء للفقهاء أعداء الفلسفة - تبنى رفض الدعوة العقلانية، وقد ضمن خلاصة تجربته هذه، أو فلسفته تجاه الواقع المعيش في قصيدته الدالية الطويلة التي منها - كما في كتاب (الاعلام) للعباس بن ابراهيم المراكشي :

عـالـج ظمـاءك في شريعـة أحمـد
تسقى - إذا مـــا شئت - غير مصرد
وتملي اعطـــان الـديـــانـــة علهـــا
تـــدنيـــك من حـوض النبي محمـــد
يـــا للنبـوة، فـــاقتبس من نـورهـــا
واسلــك على نهـج الهـدايـــة تهتـد

وإذا رأيت الصادرين عشية
عن منهلي الدين الحنيف فأورد
الدين دين الله، لم يعبأ بمبـ
ـتدع، ولم يحفل بضلة ملحد
قالوا : بنور العقل يدرك ما وراء الـ
ـغيب قلت : قدي من الدعوى، قدي
بالشرع يدرك كل شيء غائب
والعقل ينكر كل ما لم يشهد
من لم يحط علما بغاية نفسه
ـ وهي القريبة ـ من له بالأبعد ؟
ولقد نرى الفلك المحيط، وعلم ما
في بطنه اعيا على المترصد
سعد المجرة بالكواكب دائم
في زعمهم، وسيمها لم يسعد
من خص بالسفلي جرم البدر ام
من خص بالعلوي جرم الفرقد ؟
ما شاهق الطود المنيف وإن علا
إلا بمنزلة الحضيض الا وهد
وجواز عكس الأمر ـ فردا ـ واضح
للعقل، فازدد من يقينك ترشد
ذاك اختصاص، ليس يعلم كنهه
من ليس يوصف بالبقاء السرمدي
خفض عليك ـ أبا فلان ـ انها
نوب، تطالعنا تروح وتغتدي
سالت علينا للشكوك جداول
بعد اليقين بها، ولما تنفد
وتبعقت بالكفر فينا ألسن
لا تنفقد التضليل من لم تفقد
أعداؤنا في ربنا أحبابنا
جرحوا القلوب، واقبلوا في العود
كشف القناع، فلا هوادة تريبنا
حتى نغادرهم وراء المبقد
ستنالهم منا الغداة قوارع
إن لم تغلهم غولها فكان قد
وتصوب فيهم سحبنا بصواعق
تلك التي جلبت منية (أربد) (1)
ولعمر غيرهم، وتلك اليه
ان الحمام لجمعهم بالمرصد
قالوا : الفلاسفة : تلك عصابة
جاءت من الدعوى بكل مفند
خدعت بألفاظ تروق لطافة
فإذا طلبت حقيقة، لم توجد
أسعى، ولو أني نصرت عليهم
للثمت في المهجات كل مهند
يلغى كتاب الله يبهن ظهورهم
وجميع منون النبي محمد
يا قاتل الله الجهالة، انها
ورق لا غصان الشباب الاملد

ورغم ما قيل من أن صاحبنا ابن حبوس هذا كان شاعر الموحدين الأوحد، ومسجل مفاخرهم الأنجد، فإن كتب الطبقات والتراجم للرجال، نجدها ضنينة بأخباره، ولا تقدم شيئا مهما عما انتاب حياته من أحداث مما قد يساعد على كشف ما يكون منها قد أثر في اتجاهاته الأدبية والفكرية والمذهبية أو بلورت أفكاره الخاصة. على أنه ينبغي أن لا نغفل عن ذكر أن كل الذين تعرضوا للحديث عن ابن حبوس وذكروه إنما هم ـ من غير المحدثين ـ هؤلاء الأربع الذين نذكر أسماءهم حسب الترتيب التأريخي لوفياتهم :

1) عبد الواحد المراكشي (581 ـ 625 هـ) في كتابه (المعجب).

2) أبو الخطاب بن دحية المتوفى سنة : (633 هـ) في كتابه (المطرب في شعر أهل المغرب).

3) ابن عبد المالك المراكشي المتوفى (703 هـ) في كتابه (الذيل والتكملة على الموصول والصلة).

1) أربد بن ربيعة كان جاء النبي ﷺ مع عامر بن الطفيل يسألانه ساخرين عن هذا الإله الذي يدعو إليه أمن ذهب هو أم حديد أم خشب أم حجر فأصيب أحدهم بالطاعون وضعف الآخر.

4) العباس بن ابراهيم المراكشي المتوفى (959 هـ) في كتابه : (الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام).

وقد ذكر الدكتور العباس الجراري ـ دعوة الحق : صفحة 51، العدد : 6، السنة : 4 ـ أن من بين الكتاب المعاصرين الذين تناولوا بالذكر صاحبنا ابن حبوس، المستعرب (بيرس) في مجلة (هيسبريس) من غير أن يعتمد على درس أو تحليل. كما أن الأستاذ محمد الفاسي كان كتب عنه في مجلة (الثقافة) المغربية بحثا قصيرا.

ولكن جميع أولئك المتناولين لحياة ابن حبوس لم يضيفوا شيئا أو معلومات جديدة لتلك التي أوردها عبد الواحد المراكشي عن تاريخ ولادته سنة (500) وتاريخ وفاته بمسقط رأسه سنة (570 هـ)، مع تحليته بهذه العبارة : (امتدح الأمراء وروى عنه أبو بكر عبد العزيز بن زيدان وغيره) وقد أضاف صاحب الاعلام إلى تلك العبارة قوله : (وروى عن أبي بكر الأبيض، وروى عنه ـ أي عن ابن حبوس ـ أبو محمد التادلي.. ثم قال : وكان شاعرا، فلقا من جلة فحول الشعراء متفننا في معارف سوى ذلك من كلام ونحو ولغة).

ويستفاد من الاعلام كذلك أن الرجل كان مغرما في صباه وعصر شبيبته بالتجوال بعيدا عن مسقط رأسه فاس، خاصة بتلمسان وأحوازها قبل ظهور الموحدين وقبل ظهور أمر عبد المومن بالعدوة، وقبل أن يستولي على مراكش.

ولكن الاعلام يسكت عن أخبار الرجل قبل أن يتصل بعبد المومن ويربط مصيره بدولة الموحدين ولا يذكر عن اتصاله بهذه الدولة إلا ذلك الذي أصبح به ابن حبوس وبموجبه شاعر عبد المومن (يصحبه في ركابه، ويتنقل معه من فتح بجاية سنة 540 هـ إلى فتح المهدية بتونس سنة 554 هـ.

وفي فتح بجاية سجل ابن حبوس الحادث في هذه القطعة الشعرية التي فيها رقة تدل على أن شاعريته لما تنضج بعد النضوج الكامل حربيا، قال :

من القـــوم في الغرب تصغي إلى
حـــــــــديثهم اذن المشرق
جروا ـ والمنــايــا ـ إلى غــايــة
فلم يسبقــوهـــا ولم تسبـــق
بــأيــديهم النــــار مشبـوبــة
فمهمـــا تصب بــاطــلا تحرق
يقـــودهم ملــــك أروع
فمـــا زال منحـــدرا يرتقي
تخيره اللـــــــــه من آدم
تفرد بــالـــسؤدد المطلـــق
إلى النـــاصريـــة سرنـــا معـــا
ولمـــا تفتننـــا ولم تلحـــق
إلى برزة في ذرى ارعن
تجـــل عن الـــسور والخنـــدق
يعـــوذون منـــا بمـــولاهم
ومـــولاهم عـــاذ بـــالـــزورق
واكسبـــه خـــوفـــه رقـــة
فلـــو خـــاض في البحر لم يغرق

أما فتح مدينة (المدية) فلم يسجلها ابن حبوس، كما لم يسجلها أحد من شعراء هذه الدولة، ولا ندري سبب احجام ابن حبوس عن تسجيل مثل هذا الحدث وهو الشغوف والحريص على تناول كل أحداق الدولة الموحدية بالتسجيل الشعري، حتى أنه تناول بناء قصبة الرباط في قصيدة رائعة من قصائده المشهورة، وهي تلك التي مطلعها : ألا ايهذا البحر جاورك البحر.

ولهذا فمن المستغرب حقا أن لا يتناول فتح (المدية) لا من طرفه ولا من طرف الشعراء الآخرين غيره، إلا أن يكون ما قاله ابن حبوس في المناسبة كان من بين ما ضاع من آثاره، تلك التي قيل إنها بلغت خمسة آلاف بيت من الشعر، أو مآت أو لعل افتتاحها صلحا هو الذي قلل من أهمية الحادث في نظر أولئك الشعراء بما فيهم ابن حبوس.

وينهي صاحب الاعلام حديثه عن حياة ابن حبوس بما انتهى إليه مطافه، أي الإقامة بمسقط رأسه (فاس) مكرما محترما وهناك في بيته كان زاره أبو الخطاب ابن دحية وأضافه وقدم له نسخة من ديوانه الشعري، وقال إن ابن دحية هذا قدم بدوره تلك النسخة إلى تلميذه الأمير الكامل الأيوبي الذي كان أبو الخطاب مؤدبه.

ولكن المراكشي صاحب المعجب الذي أحاط تقريبا بكل أخبار دولة الموحدين، وأخبار رجالها المبرزين لم

يتحدث عن ابن حبوس إلا مرتين : الأولى حين ابتسم لابن حبوس الحظ، وأقبل الزمان، وأصبح شاعر الموحدين الأول وكان حظيا عند عبد المومن، وقد كال لـه المراكشي التقريظ والانتقاد معا، وسنعود لهذه القضية فيما بعد.

والمرة الثانية ـ وهي التي تهمنا هنا ـ فتلك التي وصف فيها صاحب المعجب ما كان أصاب ابن حبوس من ضيق وضنك واهمال، ما اضطر معه إلى القرار والالتجاء إلى الأندلس فرارا من المرابطين الذين كانوا قلبوا لـه ظهر المجن أو قلب لهم هو ظهر ذلك المجن، بين يئس من صلاح أحواله وشؤونه معهم. وفي هذا المجال يروي صاحب المعجب ـ ومن خط ابن حبوس نفسه، وقراءة ابنه عبد الله ـ القصة التالية، قال ابن حبوس : (دخلت مدينة ـ شلب ـ من بلاد الأندلس، ولي يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئا، فسألت عمن يقصد إليه فيها ؟ فدلني بعض أهلها على رجل يعرف بابن المليح، فعمدت إلى بعض الوراقين فسألته سحاءة ودواة فأعطانيهما، فكتب أبياتا امتدحه فيها، وقصدت داره، فإذا هو في الدهليز، فسلمت عليه، فرحب بي ورد علي أحسن رد، وتلقاني أحسن لقاء، وقال أحسبك غريبا ؟ قلت : نعم قال لي : من أي طبقات الناس أنت ؟ فأخبرته أني من أهل الأدب من الشعراء، وأنشدته الأبيات التي قلت فوقعت منه أحسن موقع، فأدخلني إلى منزله، وقدم إلي الطعام، وجعل يحدثني، فما رأيت أحسن محاضرة منه، فلما آن الانصراف، خرج ثم عاد، ومعه عبدان يحملان صندوقا، حتى وضعاه بين يدي، ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مرابطية فدفعها إلي قائلا : هذه لك ثم دفع إلي صرة فيها أربعون دينارا، وقال : وهذه من عندي، فتعجبت من كلامه، وأشكل علي جدا فسألته من أين كانت هذه لي ؟ فقال لي سأحدثك. اني أوقفت ارضا من جملة مالي للشعراء، غلتها في كل سنة مائة دينار، ومنذ سبع سنين لم يأتني أحد لتوالي الفتن التي دهمت البلاد، فاجتمع هذا المال حتى سيق لك، واما هذه فمن حر مالي، يعني الأربعين دينارا، فدخلت عليه جائعا فقيرا وخرجت عنه شعبان غنيا (المعجب صفحة 214 وياليته أورد الأبيات التي كان حبرها في مدح هذا الرجل. وقصة ابن حبوس هذه مع الكريم الأندلسي تشير ـ إن صحت ـ.

أولا : إلى مدى الوعي والنضج الأدبيين اللذين كانت تمرح فيهما الأندلس ومعجتمعاتها.

ثانيا : إلى الجفاف والعقم الأدبيين أيضا اللذين كانت تشكوهما دولة المرابطين.

ثالثا : تشير إلى حالة ابن حبوس الضنكة وما انتهى إليه ما يمكن أن نسميه ـ في المنطق السياسي ـ تهورا، حين هم بمعاكسة الأحداث القائمة أعني مناهضة المرابطين. ولعل هذه النتيجة السلبية التي آلت إليها حاله مع المرابطين هي التي أمدته فيما بعد ـ وهو يدرج إلى سن الكهولة، ويفكر في البحث عن أسباب توصله بالدولة الموحدية الناشئة الفتية ـ أمدته بروافد زاخرة من الرؤية وحسن التصرف اللذين أبداهما في سائر ظروف علاقاته واتصالاته بالموحدين. فإذا كانت مواقفه أو بعضها على الأقل مع المرابطين تتسم بالتردد، وخاصة أمام قضاياهم الأساسية، والسياسة، كتلك التي تتصل بمركز الفقه المالكي من الدولة ورأي رعاياها العام، وبمركز سدنة هذا المذهب، أو تتسم حتى بالرعونة أحيانا، رعونة الشباب المتهور الذي كان يدفعه دون تحوط أو تحرز إلى مهاجمة أولئك الفقهاء من طريق خفي وغير مباشر، حين تبنى ـ كما أشرنا قبل ـ الدعوة إلى التمسك بنصوص الكتاب والسنة ونبذ كل ما سواهما مهما يكن هذا السوى : فلسفة أو غيرها، وهذا الغير لا يعني إلا الفقه، أقول إن نهاية مجده مع المرابطين الجهمة الكالحة، دفعته ـ وقد قرر أن يسير في ركاب الموحدين ـ إلى أن يتريث في خطواته، ويتثبت من مواقع أقدامه، وإلى الدرجة التي جعلته لا يعرب عن آرائه الخاصة، بما فيها تلك التي تساند رأي الدولة الموحدية نفسها، إلا بعد تقليبها على كافة الوجوه بل ومضغها واجترارها إن صح التعبير، حتى إذا أعرب فبالتورية والإيماءات الخفية، وجعلته أيضا لا يهاجم أعداءه كما كان يفعل، وإنما أصبح يداريهم ويمالئهم أحيانا ولو إلى حين. وقد ظهر هذا التريث من ابن حبوس بخصوص موقفين اثنين معينين.

الأول : في قصيدته اللامية التي مدح بها عبد المومن غداة عزمه على العبور إلى الأندلس، فقد ضمن ابن

حبوس قصيدته تلك جل آراء الموحدين السياسية والدينية، بما فيها العقيدة الشيعية الإسماعلية والمهدوية المعصومة، ولكنه ـ وهو يتناول هذه الآراء ـ كان يلمح ولا يفصح ويشير ولا يبين وهذه اللامية هي التي يقول فيها :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا
وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه إن كان شيئا قابلا
وجد الهداية صورة فتشكلا
بخليفة المهدي سيدنا اغتدى
نهج العلوم معبدا ومذللا
وتفجرت عين النباهة بعدما
قد كان خاطرها أكل وأجبلا
قد صير المعقول قلبا ماثلا
فمتى رميناه أصبنا المقتلا
ورعى جميم العلم في أوطانه
من كان يبدي الضعف أن يتنقلا
وافيت حضرته المقدس تربها
فإذا الذي أبصرت لن يتخيلا
ووقفت وسط سماطه فوجدته
سوقا تقام على المعارف والعلى
لم ألق إلا عالما، وإزاءه
متعلما : متكثرا، متقللا
مدارسا تسع الرياضة لو رأى
سقراط سيرتها لذم الهيكلا
وبصرت بالطوسي يفهق حوله وأبـ
ـي المعالي : مجملا ومفصلا
لم ألق مصقعا أو مفلقا
ومجادلا عن دينه ومرسلا
والكل في علم الإمام مقصر
حسب المبرز فيهم ان ليثلا
واترك عكاظا والوفود بسوقها
حذقا وسحبان الخطيب ودغفلا
يعشو لها الأعشى بنار محلق
ويضم علقمة إليها جرولا
والحق بحضرته السنية واستمع
للقول، واحذر ـ ويك ـ أن تتقولا
فيها كمال الدين والدنيا معا
وسعادة الأرواح في أن تكملا

وأما الموقف الثاني : الذي ظهر فيه تريث ابن حبوس، وظهر فيه وعيه ونضجه فهو موقفه من الوزير ابن عطية كاتب دولة المرابطين الذي لم تكن العلاقات بينهما طيبة ولا حسنة، فقد خدمت الظروف بوجه ما ابن عطية، حين القت به إثر استيلاء الموحدين على مراكش، في فرقة الرماة المسيحيين الذين كانوا يومئذ في جيش المرابطين يطاردون أحد الثوار الخارجين على الدولة، وإذ احتاج الجيش الموحدي الظافر لمن يراسل الخليفة ينهي إليه خبر النصر، تقدم ابن عطية الذي كان يتخفى في ثياب جندي بسيط للقيام بتلك المهمة، وما أن بلغ كتابه عبد المومن حتى أعجب بأسلوبه، فسأل عن صاحبه فدل عليه، فكان ذلك سببا في تسنمه ـ أي ابن عطية ـ من جديد سلم الشهرة فتربع على كرسي الوزارة.

وإذ وجد ابن حبوس نفسه أمام ابن عطية خصمه القديم وجها لوجه وابن عطية وزير، وهو ما يزال يبحث عن طرق الوصول ارتأى ـ بدل المناوأة والصدام والمواجهة والخصام ـ أن يمدح ابن عطية وأن يحاول الإشادة بكفاءته، وهكذا نراه يحبر قصيدا مطولا في الرجل مطلعه.

الا زار من أم الخشيف خيالها
ومن دونها البيداء يخفق آلها ؟

ومن ضمن أبيات هذه القصيدة قوله :

وزير العلى عندي من القول فضلة
رويتها في مدحكم وارتجالها
وما كنت أخشى مدة الدهر ان أرى
تميد بي الدنيا وأنتم جبالها
.........الخ

ومما يدل على أن مدح ابن حبوس لابن عطية لم يكن وليد عاطفة صادقة ولا مجرد تعبير عن إعجاب بكفاءة الرجل اسراعه إلى تلبية رغبة عبد المومن في النيل من ابن عطية وهجوه وإبراز ما يجعل تنكيل عبد المومن به مبررا مقبولا غداة نكبه وقرار إعدامه، فقد أسرع إلى تلبية ما

طلب منه مما رأينا له مثلا فيما سبق أن أوردناه له من مثل : أندلسي ليس من البربر إلخ...

إلا أن من الإنصاف الإشارة إلى أن ما قاساه ابن حبوس من آلام الاغتراب والابتعاد عن مسقط رأسه، بسبب آرائه الخاصة في دولة المرابطين، تلك الآراء التي وصفت بالحماقات، قد خلف في أعماقه روسابات عفنة، كونت لديه ما قد نسميه أزمة أخلاقية تبلورت في آثاره الشعرية التي تناولت علاقاته بالناس والزمان وما قرره من اليأس من صلاحهما، بل واليأس حتى من مهنة الأدب والشعر، فقد انتهت به تلك الأزمة إلى الدعوة إلى أن لاجدوى من وراء الاشتغال بالأدب والشعر...

ومن شعر ابن حبوس الذي قاله في فترة اقصائه عن بلاط المرابطين، ذاما فيه الناس والزمان، وحاشا فيه - في نفس الوقت - على الرضى بالواقع في حدود ما يأمر به الدين، ولا يتجافى والشيم الإنسانية والكرامة النفسية، هذه القطعة :

رد الطرف حتى تـــوافي النميرا
فرب عسير أتـــاح يسيرا

وارســل قلــوصــك طــورا شمالا
وطــورا جنــوبــا وطــورا دبــورا

وَشُنَّ على غــازيــات البــلاد
من النقــع والرمــل جيشــا مغيرا

وفر مـــاء وجهـــك حتى تجم
وأطف السمــوم بــــه والهجيرا

وطرحت أنت قـــوي الجنـ
اح، لا عـــذر عنـــدك الا تطيرا

ولا تقعن وأنت السليم حيـ
ـث تضـــاهي المهيض الكسيرا

فــأُمُّ الترحــل تــدعى ولــودا
وأم الإقــامــة تــدعى نــزورا

وذو العجـز يرضع ثـديـا حـدورا
وذو العــزم يرضـع ثــديـا درورا

يعــز على النبــل أني غـــدو
ت اكنى أديبـــا وابمى فقيرا

ومـــا ذاك أني هيـــابـــة
أخـــاف الرحيــل وأشنــا المسيرا

ولكن بحكم زمـــان غـــدا
يحــط الجيـــاد ويسمي الحميرا

أما عن ذمه الشعر وكيف كسدت سوقه فنقف له من بين ما نقف على هذه الأبيات :

يــا غراب الشعر لا طرت ومليت الــوقـوعــا
وإذا استيقـــظ شهم قرم ودت هجــوعــا
هبك لا تقنص عزا ؟ لم تقنص الخضوعا ؟
رمت ان ترقى سريعــا، فترديت سريعــا
ربما اصطاد بغات شبعا، واصطدت جوعا
ولقـد غـال حبيبا، منـك ما راع صريعـا

وفي البيت الأخير تورية، حيث أراد بـ(حبيب) أبا تمام الطائي، أراد بـ(صريع) مسلم بن الوليد صريع الغواني.

وقد أفضت به هذه الأزمة الأخلاقية إلى الدعوة إلى رفض فكرة الأخلاق إطلاقا، وإلى معاملة الناس بمثل نفاقهم ومرآئهم فلنسمع قطعته هذه التي ضمنها زفرته تلك ووضعها قانونا للتعامل بالمثل يقول :

أعــد لنــاكبيــك عصــا
واقضم مــاضغيــك حصى

وشعشـع للــورى شرقــا
مع الســاعــات أو غصصــا

يراوغ منهم قنصـــــــــــــا

وعـــامـل بـــالخـــديعـــة من

لقيت وبـــــادر الفرصـــــا

وغمض عينـــــــــك النجـ

ـــلاء حتى تنعت الحـوصـــا

وهــــز لمعشر سيفــــا

وهــــز لآخرين عصـــــا

وكـــاثر من يـــدب لـــك الضـ

ـر أو اخرص كمـــا خرصـــا

ولا تعتب عليـه، ولـو ظفرت بـه لما خلصا
وسوء ظنا بكل أخ، يقاسمك الثنا حصصا

ولا تحفل بإمعة، يخال الشحمة البرصا
ولا تحرص، فرب فتى ضاع، عنـدما حرصا

وحرص الطـائر الـواقع، صير جوه قفصا
لقد رخص الغلاء، وأهوت الأعلاق ما رخصا

وقد ذهب الوفاء، فلا يقول مغالط نقصا
فلا تلـزم مكان الظـل، ان وفيتـه قلصا

وغن لذا الزمان إذا انتشى، وازمر إذا رقصا
ومن شهد الخطوب، وعاش مثلي يشرح القصصا

ونحب أن نختم هذه المختارات الشعرية لابن حبوس بقطعته التي عنونها صاحب الاعلام بـ(الاعتبـارات) على أن نختار منها بالخصوص الأبيات التالية :

قـد غردت حمـامـة عبرة، وإنمـا يعتبر العـاقـل
يـذكر بـالكونين من جنـة، ومن جحيم، ذكرهـا هـابل
وإنما يعرض انموذجـا، من ذا، وذا، نونبـه الغـافـل
نعيمه، فيـه الشقـاء الـذي يشفق منـه العالم العـامـل
تكاد نفس المرء من حره تـزول لـولا أنـــه زائـل
يا صاحبي والجـد لي شيمة، وليس من أصحابي الهازل
نحن طلبـان، فبـادر بنـا، من قبل أن يقنصنـا الحـابل
بحر سلمنا منه في سـاحل، فـا ترى ان عبر السـاحل ؟
في حين لا تنجي الفتى حيلة، سواء الفـارس والراجل.

آثار ابن حبوس، ومن مختلف المجالات التي ارتادها حسب ما بأيدينا من مراجع مما كان يشغل بالـه وبـال معـاصريـه، وهي في جملتها تبين إلى أي مـدى استطـاع صـاحبهـا أن يسهم في تصوير اهتماماته الخاصة ورؤاه لمجتمعه تصويرا بـالكلمـة المسعفـة، وهي بـالتـالي ـ من حيث أسلوبهـا وتعابيرها ـ تبين مدى صدق كلمة (ابن الأبار) فيه حين قال عنه : (إنه كان عالما محققـا، وشاعرا مفلقـا ـ أي بـالنظر لقراء عصره قطعـا ـ يتقدم أهل زمـانـه، ويوقف على جودة شعره من ديوانه).

وقـال فيـه عبـد الواحـد المراكشي صاحب المعجب : (وكلمته قد تكون أصابت المعنى في وصف طريقة تنـاولـه إنـه كـان ينحت على (نحـو طريقـة محمـد ابن هـانـىء الأندلسي في قصد الألفاظ الرائعة، والقعـاقع المهواة، وإيثـار التقعير، إلا أن محمدا بن هـانىء كـان أجود منـه طبعـا، وأحلى مهيعا).

ولكن إذا كـان ابن هـــانئ صـورة مصغرة من أبي الطيب المتنبي من حيث الألفاظ وربمـا حتى القـوالب ـ دون المعـاني كلهـا طبعـا ـ حتى درج النـاس على تسميتـه بمتنبي المغرب فإن اتهام شاعرنـا ابن حبوس ـ وقـد حـاول أن يكـون أحـد رواد المـدرسـة المتنبئيـة إن صح التعبير ـ بـالسطو المتعمد على شعر زعيم المـدرسـة نعني (المتنبي) ـ كما يحاول اتهامه بذلك الأستـاذ ابن تـاويت التطواني فيـه أي في هذا الاتهام انه تغافل عما المحنا إليه مرارا عن فكرة التقليد للشرق والأندلس لدى أجدادنا المغاربـة وربمـا حتى اليوم، حيث يقلد الشباب خطوات الشرق ذلك أن أجدادنـا كانوا يعتبرون هذا التقليد أسمى ما يتمنـاه الشـاعر النـاجح. على أننا لا نستبعد توارد الخواطر كما قـد يقع الحـافر على الحـافر ـ كمـا يقـول المثـل العربي ـ أو على حـد تعبير المتنبي نفسـه، حين جوبه بـأنـه قـد يكون سطـا على بعض معاني من سبقوه، من الشعراء.

كمـا أننـا لا نستبعـد كـذلـك الاقتبـاس الـذي هو في عرف أولئـك القـوم مشروع وان يكن تغـافـل البعض عن التنصيص عليه مخل بأمانة الرسالة الأدبية.

ومهما يكن، فإن إنكار حسنات ابن حبوس شيء لا يمكن تخيله أو هضمه، وإن من أبرزها خلو شعره من الزخرف والتصنيع، تبعا لبساطة الحياة في عصره، ومن حسناته أيضا دفق عاطفته الجياشة بالمعطيات الحية التي تمس القلب في رفق، وتدغدغ الخلجات في همس، وتناغي الأحاسيس وإن يكن ذلك في لغة قد لا تؤثر في العقل بما فيه الكفاية وأخيرا هذا الجرس الموسيقي الخفيف الوقع المحبب النغم، الذي يتساوق وصدق العاطفة، وتجافي التكلف والإجهاد عذوبته الشائقة، وحلاوته الرائقة، والتي لا يسعنا أمامها إلا أن نقول رحم الله ابن حبوس إن كان صورة حية لعصره وزمانه.

فاس — عبد الكريم التواتي

أكاديمية المملكة المغربية تصدر كتاب "الذيل والتكملة"



أصدرت أكاديمية المملكة المغربية العدد الأول من مجلة «الأكاديمية». ويشتمل هذا العدد على الموضوعات الآتية :

- إحياء الاجتهاد لمحمد إبراهيم الكتاني.
- سوانح وخواطر في حلول مشكلات الماء والتغذية وتزايد السكان، لمحمد بهجة الأثري.
- تجارب جف معينها : الليبرالية والاشتراكية لمحمد عزيز الحبابي.
- ابن خلصون ومذهبه في تدبير الصحة وحفظها لمحمد العربي الخطابي.
- رحلة ابن رشيد، تاريخ حافل للثقافة والفكر في القرن السابع لعبد الكريم غلاب.
- القانون الوضعي لكونستنتان تاتسوس.
- مفهوم الجدل في تقاليد الفكر المغربي لمحمد علال سيناصر.
- تاريخ الهيموكلوبين «س» وجغرافيتها لجان بيرناره.
- الإبداع التقنولوجي والقيم الإنسانية للمهدي المنجرة.
- كما يشتمل العدد على نشاط الأكاديمية وخطاب استقبال السيد أحمد صدقي الدجاني للسيد الحاج محمد بَا حنيني وتأبين المرحوم أحمد الطيبي بنهيمة.

هذا وكانت الأكاديمية قد أصدرت العدد الافتتاحي وهو وثائقي، كما أصدرت وقائع ندوة «الأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر»، وندوة «الماء والتغذية وتزايد السكان»، القسم الأول.

أما كتاب «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشي، فقد أصدرت الأكاديمية السفر الثامن منه في قسميه الأول والثاني، وهو من تحقيق الأستاذ محمد بنشريفة عضو الأكاديمية.

وقد خصص ابن عبد الملك هذا السفر لتراجم الأعلام المغاربة. والكتاب غني بالمواد النافعة لدارسي عصر الموحدين وغيره. وحُقّق الكتاب ونُشِرَ لأول مرة.

ماذا يعرف الرضيع ؟

للأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

مقدمة :

بدأت تتردد في الأشهر الأخيرة صيحات عالية من عدد من المفكرين المغاربة والعرب، من الوسط الجامعي، تنادي حكوماتها بتأسيس مخابر للبحث العلمي، منذرة بأننا إذا لم نفعل، وفي أقرب وقت، فإن ركب الحضارة السريع، سيفوتنا إلى غير رجعة.

ومنذ قدومي إلى المغرب في أوائل السبعينات وأنا أقرع هذا الجرس بحدة. فالبحث العلمي في هذا العصر يمكن تشبيهه بالترجمة التي أقبل عليها الأوروبيون في (طليطلة) بالأندلس للعلوم، والفلسفات، والآداب العربية، في ذلك العصر. فبدونها كانت لتقوم لأوروبا قائمة.

وإذا كان البحث العلمي يقترن في أذهاننا بالتكنولوجيا، والفيزياء والبيولوجيا، والطب وغيرها من العلوم الدقيقة والجافة، فإنه، في الحقيقة، أوسع من ذلك بكثير.

وفي هذا البحث الذي جمعه لمجلة (تايم) الأميريكية فريق من مراسليها بالولايات المتحدة وأوروبا من المختبرات الطبية، نجد البحث العلمي يسبر غور مرحلة مجهولة في تطور الكائن البشري، وهي مرحلة الصبا المبكر. وهو ميدان يشترك فيه الطب، وعلم النفس، والتربية.

وهذا يدل على أن البحث العلمي لا يقتصر على ميدان بعينه؛ بل هو ضروري لتزويدنا بالإجابات الصحيحة عن ملايين الأسئلة التي يثيرها التطور الحضاري السريع، والتي لابد من معرفتها مسبقا للسير في الطريق الصواب، وتوفير التبذير الذي يسببه التردد، والارتجال، والتخمينات العشوائية، والافتراضات الخاطئة للطاقة والمال، والجهد البشري في المجتمعات النامية.

ونحن، إذ ننقل ثمرة هذه الجهود العلمية التي صرف فيها الكثير من الوقت، والجهد، والمال، نشكر أولئك المئات، بل الآلاف من الجنود المجهولين من العلماء الباحثين الذين ساهموا في ارتياد هذا الحقل المجهول.

المترجم

ماذا يعرف الرضيع ؟ (1)

يعرف الأطفال الحديثو الولادة، حسب الأبحاث الجديدة، أكثر مما يدرك الكثيرون، وفي سن جد مبكرة.

أوطو فريدريك

في جميع أنحاء (الولايات المتحدة) والعالم تجري تجارب طبية وسلوكية على الأطفال الحديثي الولادة. وكل تجربة في حد ذاتها، تبدو صغيرة، وليست بذات شأن كبير. ونتائجها قد تكون غير حاسمة أحيانا، ومعروفة أحيانا أخرى، ولكنها في مجموعها تمثل حملة بحث هائلة تستهدف حل لغز من أهم ألغاز حياة الإنسان الأساسية المدهشة، وهي «ماذا يعرف الأطفال حديثو الولادة حين يخرجون إلى هذا العالم ؟ وكيف يبدأون في تنظيم واستعمال تلك المعلومات أثناء السنة الأولى من حياتهم لشق طريقهم نحو المستقبل الغامض ؟».

الجواب الأساسي الذي يظهر بوضوح عبر العديد من الوسائل هو : أن الأطفال يعرفون أكثر مما كان يعتقده غالبية الناس. فهم يرون أكثر، ويسمعون أكثر، ويفهمون أكثر، وهم مهيأون وراثيا لكسب صداقة أي بالغ يهتم بهم. وينطوي هذا البحث على تحد لبعض المعتقدات السائدة عن كيفية تربية الأطفال، وتعليمهم، وعن ماذا في استطاعتهم أن يصبحوا حين يكبرون.

يقول (ويليام كيسين)، أستاذ علم النفس بجامعة (ييل) الاميريكية، والدارس للأطفال مدة ثلاثين سنة، يقول عن مباشرة الطفل الحماسية للحياة «إنه يلتهم العالم !».

ويقول رائد آخر هو (جيروم كاغان)، أستاذ علم النفس بجامعة (هارفارد)، عن البحوث الجديدة محذرا : «لا تخيفوا الآباء، فالرضيع كوميو ترودود».

وفعلا تفزع كثير من العائلات، وخاصة حينما يستمر فيض من الكتب في نصحهم بما يجب أو لا يجب أن يفعلوا.

وفوق كل شيء ألا يقلقوا ـ والاكتشافات الحالية عن كم يرى الطفل، وكم يسمع، وكم يعرف في لحظة ولادته تجعل مسؤولية والديه تبدو أضخم. والأهم من هذا أن هذه المعلومات الجديدة بدأت تغير نظرة الناس إلى أطفالهم، وتغير الطريقة التي يكلمونهم بها، وما يتوقعونه منهم. وهذه التحولات البطيئة والتي لا تكاد تلاحظ، لا يمكن إلا أن تعدل من سلوك الأطفال أنفسهم، بطرق خفية لا تلاحظ كذلك، وبالتالي تؤثر في شخصياتهم حين يكبرون.

وقد كانت النظرة التقليدية إلى الصبا هي التي قال عنها (شكسبير) في وصفه للطفل الحديث الولادة : «إنه يموء ويتقيأ بين ذراعي مربيته !». وبعد مرور قرن تقريبا على ذلك، أعلن الفيلسوف (جان لوك) أنه من الواضح أن عقل أن عقل الطفل هو عبارة عن لوح أبيض ينتظر أن يكتب عليه.

واشتهر (ويليم جيمس) بمزيد من الملاحظات العلمية في هذا الباب، وكتب في (مبادئ علم النفس) سنة 1891 : «ان الصبي الحديث الولادة يهاجمه محيطه من خلال عينيه، وأذنيه، وأنفه، وجلده، وأحشائه في وقت واحد»، لدرجة أنه يرى العالم «كخليط محير هائل» وفي سنة 1964 فقط ظهر في أحد كتب الطب الدراسية أن الطفل الحديث الولادة العادي لا يستطيع تركيز عينيه فحسب أو أن يستجيب للأصوات فقط، بل إن الشعور، كما نعرفه، قد لا يوجد عنده».

☆ ☆ ☆

وقد بدأت مراجعة هذه الآراء وتعديلها بكثرة أثناء العقدين الماضيين، ونمت هذه الأبحاث إلى أن أصبحت صناعة كبيرة، فمن (مختبر الطفل بمعهد ماساتشوسيت للتكنولوجيا) إلى (مركز بحوث الأطفال بجامعة تكساس) إلى (مختبر دراسة الطفل) بجامعة (كاليفورنيا بلوس انجليس) تكاد لا توجد جامعة كبرى دون أن تكون لها فرق من الباحثين ينقبون ويسبرون غور الأطفال. وقد تضاعف عدد دراسات ادراك الطفل ثلاث مرات في السنوات الخمس الأخيرة، حسب ما ذكره العالم النفسي (ريتشارد هيلد) من M.I.T (معهد ماساتشوسيتس للتيكنولوجيا) وقد استمع مؤتمر خبراء بمدينة (اوستين) إلى أكثر من 200 بحث تتراوح بين «الانتقال بين النوم واليقظة ومزاج الطفل» وبين «عدم تناسق اليمين واليسار للوظائف العصبية عند حديثي الولادة». هذه الأبحاث الكثيرة لا تسلم من التحدي فالباحثون في عدد من

1) عن مجلة «تايم» الأميريكية عدد 15 أغسطس 1983.

الميادين يحاربون من أجل اختصاصاتهم. فأطباء النفس يختلفون كثيرا في آرائهم عن أطباء الأعصاب. والرأي في كثير من الحالات شخصي، كما أن الأطفال يختلفون كأنداف الثلج.

وقد بدأ البحث يرجع تدريجيا إلى الوراء من الطفولة المتأخرة إلى الطفولة المبكرة، بل وحتى إلى ما قبل الولادة، فأدخل طبيب ولادة فرنسي، مثلا سماعة إلى رحم امرأة على وشك الوضع، وسجل ما كان يسمعه الجنين، فكان عبارة عن نبض قلب الأم العالي، وغرغرة المعدة والأمعاء، وأصوات الأم وطبيبها مكتومة، ولكن يمكن تمييزها، ومن بعيد كانت تسمع بوضوح نغمات سمفونية (بيتهوفن) الخامسة.

والعائق البين الذي أخر البحث العلمي حول الرضع هو أنهم لا يستطيعون الكلام، ولا يستطيعون التعبير عما رأوا أو فكروا، فكانت النتيجة هي الاعتقاد السائد بأنهم يرون قليلا، ويفكرون أقل. ولكن ذلك الاعتقاد كان مبنيا أساسا على تذكر الكبار الغامض لماضيهم. وحتى سنة 1950 لم تكن إلا ملةقليلة من علماء النفس يبحثون عن طرق مخبرية لاكتشاف ما يمكن أن يتعلمه الرضيع وقد توصل عالم النفس (روبيرت فانز)، سنة 1959، إلى كشف هام بين فيه أن افتتان الرضيع بالأشياء الجديدة يمكن تحويله إلى شكل الكلام الصامت. ولاحظ (فانز)، على الخصوص، أن الرضع كانوا يحركون عيونهم حين يريهم شيئين مختلفين، وقاس بدقة ما كانوا ينظرون إليه، والمدة التي يستغرقها ذلك. فأظهرت تجاربه أن الطفل إذا خير بين لوحين فإنه يختار لوح الشطرنج على اللوح العادي ذي اللون الواحد، ولوح الرماية المتعدد الدوائر على ذي الخطوط العادية، وعلى العموم، يفضل المعقد على البسيط. يقول (مايكل لويس) من جامعة (روتجرز) : «من مثل هذه الملاحظات الأولية ترعرعت نتائج ذات أهمية مرعبة».

وما أن اكتشف العلماء الطريقة الأساسية حتى انفتح أمامهم عالم كامل من الأبحاث التي لم تجرب من قبل، فبفضل التكنولوجية الجديدة أمكن ابتكار اختبارات كانت مستحيلة قبل ذلك بجيل واحد. فعلى المستوى الابتدائي جدا يمكن جهاز الفيديو علماء النفس من تسجيل تلوي الطفل، ويبين أنه غالبا ما يتحرك على إيقاع صوت أمه. وعلى المستوى الأشد تعقيدا، يستطيع الجراحون بمستشفى (يرينتس للنساء) بشيكاغو أن يشخصوا مرض الهيدروسيفالوس Hydrocephalus (مرض يصيب المخ من زيادة في سوائل المخ والعمود الفقري) في الجنين، وبعد ذلك يدخلون أنبوبا من البلاستيك في رحم الأم ثم في رأس الجنين لامتصاص فائض السائل داخل دماغه. يسترشدون في هذه المستحدثات التكنولوجية بذلك الجهاز الكلي الوجود، الكومبيوتر، الذي يستطيع تقليد صوت الأم صناعيا، بنفس السهولة التي يقيس بها حركات العين أو يحسب المرات التي يمص فيها الرضيع من الحلمة.

الأحاسيس

وأول منطقة اجتذبت عددا من الباحثين هي أحاسيس الطفل الحديث الولادة التي كان يعتقد أنها لا تمثل إلا رغبة الجائع في الطعام. وقد أظهرت الاختبارات المنتظمة بسرعة أن الطفل لا يدرك أشياء كثيرة فقط، بل وله اختيارات متميزة في كل شيء.

حاسة الذوق :

وقد اكتشف عالم الفيزياء العصبية (Neurophysiologist) (جاكوب ستاينر) أن الوليد الذي لا يزيد سنه عن اثني عشرة ساعة، والذي لم يذق بعد حليب أمه، يغرغر بحبور حين توضع قطرة من ماء السكر على طرف لسانه، ويكثر من قطرة ليمون. ومن الأسرار الغامضة، أن الوليد الجديد يبتسم بابتهاج كبير حينما تلوح بليقة قطن مشبعة بقطير الموز تحت أنفه. ويحتج ضد رائحة البيض المتعفن. وهناك روائح أخرى معروفة عند الرضع بأنها (طيبة) مثل رائحة الفلانيلا، وأخرى بأنها (خبيثة)، مثل رائحة الاربيان.

حاسة البصر :

ويخرج الوليد من ظلمات الرحم بأحاسيس بصرية بدائية. ويمكن تصنيف قواه البصرية بأنها 20 على 500 أي أنه «قانونيا أعمى»، كما عبر عن ذلك أحد الخبراء، إلا أن البصر يتطور عنده بسرعة. الحديثو الولادة يبدأون بالنظر إلى حواف الأشياء، مستكشفين لها. وحتى حين تنطفئ الأضواء، كما تظهر آلات التصوير الليلية، يفتح الطفل عينيه على مصراعيها ليستمر في استكشافه محيطه، وحين يبلغ سنه ثمانية

أسابيع فإنه يستطيع التمييز بين أحجام الأشياء والألوان. (مفضلا بشكل عام الأحمر ثم الأزرق) وفي نهاية شهره الثالث، يبدأ في كسب الإبصار المجسم Streoscopic (أو المجسامي).

واختبار هذه التصورات يمكن أن يكون معقدا. فمثلا، في مختبر الطفل (بمعهد التكنولوجيا بماساتشوستس M.I.T) برمج خريج جامعة طوكيو (شينكى شيموجو) عقلا اليكترونيا ليعرف ما إذا كان الوليد (ويتني وارن)، البالغ سبعة أشهر من عمره، يستطيع أن يميز بين قضيب مستقيم وآخر منبعج قليلا. وكان العقل الإليكتروني يجعل انبعاج القضيب الثاني يتحرك قليلا. فإذا استطاع (ويتني) أن يرى الإنبعاج، فإنه سيرى حركته، وقد استطاع (سيموجو)، وهو مقع خلف الجهاز أن يرى عينيه تتحركان. وأغلب الأطفال كانوا يبصرون الحركة بسهولة.

ورغم أن قيمة هذه التجارب مقصورة على فئة خاصة، فإن في إمكانها أن تكون ذات أهمية علمية فورية، فبعض الأطفال يعانون من أمراض العيون مثل السد أو اعتام العين، واللابؤرية، Astigmatism، (وهو مرض يصيب العدسة ويمنعها من بوارة الأشعة) والحول، وكل هذه أمراض أصبحت تستفيد من العلاج المبكر بشكل لم يكن ممكنا من قبل. وليس أقل أهمية ما أظهره البحث الجديد من أن ضعف البصر قد يؤذي تلك الأطراف السريعة النمو من الدماغ والتي تعتمد على المعلومات البصرية. وقد يتحول ذلك الضرر إلى عطب دائم للمخ إذا لم يعالج مبكرا.

حاسة السمع :

وخلافا للعينين، فإن أذن الطفل تبدأ عملها قبل أن يولد، فالوليد يأتي مزودا بجهاز كامل من الإستجابات السمعية. وقد أثبتت الاختبارات، منذ الستينات، أن الأطفال الرضع ينامون في مدة أقصر على تسجيلات أصوات نبض القلب البشري، أو أي صوت إيقاعي شبيه به. كما بينت بعض الدراسات الحديثة أن الرضيع في وقت ولادته يفضل أصوات الإناث، وأنه بعد أسابيع قليلة، يستطيع تمييز صوت أمه.

كثير من الأمهات يعتقدن أنهن يستطعن فهم أنواع مختلفة من بكاء صغارهن (وقد أثبت اختبار مخبري مراقب سنة 1973 أنهن لا يستطعن ذلك) وأنهن يعتقدن جازمات أن بإمكان صغارهن فهم تمتماتهن وهمساتهن. وربما كان ذلك صحيحا. ورغم أن الأطفال، عادة، لا يستطيعون قول أي شيء واضح أو متقن قبل بلوغ السنة الأولى، فقد أثبت العالم النفساني (بيتر ايماس) من جامعة (براون) أن صغارا لم يتعد عمرهم أشهر أمكنهم التمييز بين الأصوات في أي لغة تقريبا. وأنهم يملكون «قدرة عالية» على تصنيف الأصوات في درجات مختلفة. يقول (ايماس) «إن الطفل يعرف بالفعل نوع الأصوات التي يقصد بها الاتصال» ويقول : «أنا لم أسمع أبدا طفلا يقلد صوت ثلاجة. مثلا لذلك فالطفل يضع كل طاقته في تعلم قواعد اللغة.

الذكاء :

وتتبع أصول اللغة إلى الصبا المبكر وسيلة هامة لفهم ذكاء الطفل وليس أقل أهمية من ذلك اكتشاف أن ذلك الذكاء، يبدأ عمله قبل توفر اللغة كأداة بمدة طويلة. وقد كان العنصر الأساسي في هذا الإكتشاف هو محاولة الطفل تقليد حركات وجه أمه، وقد صرح (جان بياجيت). العالم النفساني السويسري الشهير الذي ارتاد هذا الميدان بدراسات إضافية عن أطفاله الثلاثة، أن ذلك التقليد لحركات الوجه يبدأ فقط بين حوالي الشهر الثامن والثاني عشر. وقبل ذلك لا يكون الطفل يفهم أن وجهه شبيه بوجه أمه.

وقد ذهبت (أولغا ـ ماراطوس)، وهي طالبة يونانية كانت تجري تجارب على رضع سنهم سبعة أسابيع، لنيل شهادة الدكتوراة، إلى منزل (بياجيت) في يوم مثلج من أوائل سنة 1973 لتخبره بتقدمها في تجاربها، وقالت :

«هل تتذكر ماذا أفعل ؟ أنا أخرج لساني للأطفال الرضع، وهل تعرف ما يفعلون ؟».

فهمهم (بياجيت) : «قولي لي». فأجابت : «إنهم يخرجون ألسنتهم لي كذلك. ما رأيك في ذلك ؟».

ونفث الأستاذ الموقر دخان غليونه لحظة، وهو يتدبر التحدي الموجه لنظريته، وقال :

«أعتقد أن ذلك عمل وقح !» ولم ينشر بحث (ماراتوس)، لذلك ذهب الفضل في هذا الكشف، بالدرجة الأولى، إلى عالمين نفسانيين شابين يدرسان الآن بجامعة (واشنطن) وهما (اندرو ميلتزوف) و(م. كيث مور). وقد بينت أبحاثها التي نشرت سنة 1975 أن صبيانا لا تتجاوز

أعمارهم اثنى عشر يوما يستطيعون تقليد الكبار بإخراج ألسنتهم. وأوضح (ميلتزوف) و(مور) أن الصبي إذا كانت في فمه رضاعة تمنعه من تقليد الكبار، فإنه يتذكر ما كان يريد أن يفعل، وحين تنزع الرضاعة من فمه، فإنه يخرج لسانه في الحال.

وقد أثارت تجارب (ميلتزوف) و(مور) كثيرا من الشكوك مما جعلها يعيدانها بإتقان أكثر سنة 1981، مزيلين كل غموض، ومستعملين أطفالا أصغر سنا. ويذكر (ملتزوف) أنهم أخذوا طفلا بعد ميلاده بخمس وأربعين دقيقة، والدم ما يزال عالقا بشعره، ويقول «غسلناه، واختبرناه، فوجدنا أنه حتى الحديثي الولادة يستطيعون تقليد الكبار».

وقد أثبتت هذه التجارب قدرة الطفل المبكرة جدا على ما يسميه علماء النفس «بالإدراك الشرطي المتبادل» (Intermodal Perception) ومعناه الجمع بين إدراك المخ لنشاطين مختلفين، وفي هذه الحالة : النظر، وحركة العضلات اللذان هما أول شكل للتفكير، وكما قال (كيسن) من جامعة (ييل) : «أثبتت السنوات الخمس عشرة إلى العشرين الماضية أن للطفل عقلا. وسيتم في السنوات القادمة معرفة كيف يعمل ذلك العقل».

وقد تابع (ملتزوف) استكشافه «للإدراك الشرطي المتبادل» بتجارب مختلفة على النظر واللمس. فأعطى رضاعات عادية لجماعة من الرضع الذين تبلغ أعمارهم شهرا واحدا، ورضاعات أخرى عليها نتوء لجماعة أخرى. وجعلهم ينظرون إلى أشكال الحلمتين، فكانت النتيجة أنهم ينظرون إلى الحلمات ذات النتوء التي لمسوها. «وبمساعدة أستاذة النطق (بتريشياكوهل) وسع تجاربه لتشمل اللغة فعرض الباحثان على الأطفال شريطين لوجوه تقول «آه» و«أي»، وبعد ذلك وضعا بين الصورتين مكبر صوت يستطيع اصدار كل من الصوتين وقد نظر الأطفال باستمرار إلى صورة الوجه الذي يناسب الصوت. ويعلق (ميلتزوف) قائلا : «ويعني ذلك أن الأطفال يستطيعون كشف العلاقة بين حركات الفم، والأصوات التي يسمعونها. فهم، أساسا، قراء شفاه».

وفي الوقت الذي يبدأ فيه الرضيع يكتسب هذه القدرة الأولية على التفكير فإنه يكتسب قدرة هامة على التعرف على الدرجات والطبقات. وكان الإعتقاد سائدا بأن هذه تتطلب اللغة - إذ كيف يمكن تمييز ما لا إسم له ؟ - ولكن يبدو أن الأطفال يستطيعون تنظيم المكررات بدون كلمة تذكر. وقد عرضت العالمة النفسانية (اليزابيت صيبلك)، من جامعة (بانسيلفانيا)، على أطفال أعمارهم أربعة أشهر شريطين تبدو فيها لعبتان تقفزان وتدوران فوق سطح بطرق مختلفة، يصاحب كلا منها صوت يلائمه.

وبعد ذلك اسمعتهم صوتا واحدا من الصوتين، فكان باستطاعة الأطفال أن يزاوجوا «الفيلم» بصوته الصحيح. ومن القدرة التمييزية العالية للطفل على تقرير ما يتمشى مع ماذا، استنبطت (صيبلك) أن الأطفال يولدون بقدرة غريزية على تقسيم تجاربهم إلى طبقات. وقالت «من الواضح، أنه لكي يمكنك فهم أي شيء يواجهك، لابد من أن تكون لك بعض التصورات عن العالم، وأملنا أن نتعلم شيئا عن تلك التصورات الأولى».

وثمة لغز، فالرضيع يبدي براعات، ويأتي بأعمال يكررها عدة مرات، تبدو لا أساس لها في تجربته السابقة. وهذه أمثلة على ذلك :

(برادلي فيج)، سنه 11 شهرا ونصف، يقعد على مائدة زجاج في مختبر دراسة الطفل بجامعة (كاليفورنيا بلوس انجلس)، تناديه أمه من جانب المائدة الآخر على بعد ستة أقدام. ومن ذلك الجانب يسقط الغطاء القماش تحت الزجاج فجأة إلى الأرض ليوهم الرضيع أنه سيسقط بضعة أقدام إلى الأرض إذا فعل ما تطلبه منه أمه. وفي شهره الثامن، وكذلك العاشر، يتجاهل (برادلي) الخطر الوهمي، ويحبو عبر المائدة. أما الآن، وفي شهره 11 ونصف، فإنه يرفض أن يتحرك، حتى وأمه تلوح له بلعبة لإغرائه. وتقول العالمة النفسانية (نانسي ريدر) : «نعرف أن هذه الاستجابة ليست مرتبطة بتجارب سابقة مرت به، ولكننا وجدنا أنها مرتبطة بالسن التي بدأ فيها الطفل يحبو. ونحن نحاول أن نعرف لماذا».

وفي (مركزها «رقارد» للدراسات الإدراكية)، ووجه أطفال لا تزيد أعمارهم عن أسبوعين بمكعبات (وأحيانا بظل مكعب فقط) أخذت تتحرك نحوهم ببطء. وحين بدا أنها ستضربهم أظهروا ما يسميه علماء النفس بـ «نمط قوي لرد فعل التفادي». فقد استداروا وتلووا، وحاولوا تجنب الضربة، رغم أنهم لا تجربة لهم تجعلهم يعتقدون أن الشيء المقترب منهم سيضربهم. وحين يقترب المكعب أو ظله من الطفل بزاوية

مائلة بحيث يبدو أنه سيخطئهم، يتابع الصغار حركته بأعينهم دون أن تبدو عليهم علائم القلق.

وتقول عالمة النفس (جين فلانرى جاكسون)، «مهارة الأطفال الفائقة في التنبؤ بمسار المكعب المتحرك مدهشة. وأكثر منها رغبتهم في تفادي أشياء في طريق الاصطدام بهم».

وفي جامعة (ادبنره) يجري (باور) وشركاؤه حوالي ألف تجربة كل سنة عن قدرات الطفل المتعددة. ومن ادعاءاتهم المدهشة أن الرضع يستطيعون معرفة جنس صغار آخرين بالنظر إليهم. وأنهم يفضلون النظر إلى من هم من جنسهم. وصور (باور) شريطا لطفلة وطفل يقومان بحركات متعددة، وبعد ذلك حذف من الفيلم كل علامات الجنس الواضحة. بل وألبس الواحد ملابس الآخر، بحيث صعب على بعض الكبار أن يميزوا بينهما. ولكن شيئا ما في حركة الصغيرين جعل جماعة من الأطفال أعمارهم ثلاثة عشر شهرا يميزون بين الولد والبنت. وما يزال (باور) يحاول أن يعرف كيف يفعلون ذلك.

وكيف يفعل الأطفال ما يفعلون يبقى شيئا بالغ التعقيد. ويعتقد بعض النظريين، مثل (طوماس ڤيرني) الطبيب النفساني الكندي الذي ألف كتاب (سر حياة الجنين)، أن الصبي يبدأ يتعلم أنماط السلوك وهو ما يزال في الرحم. وأغلب الخبراء، على أي حال، يفترضون أن «الجينات» (بذور الوراثة) تحمل معلومات كان يحتاجها الإنسان الأول لمقاومة الفناء. ويتضمن ما يدعى برد فعل (مورو (2)) اللا إرادي الذي يجعل المولود يمد يديه بحركة يائسة للإمساك بشيء ما كلما أحس بأنه سيسقط، يتضمن نوعا من الوجود شبيه بوجود القرود في فجر الزمان. يقول (لويس ليبسيت)، مدير (مركز دراسات الطفل بجامعة براون)، وأحد رواد البحث في الطفل : «الطفل البشري منسق تنسيقا جيدا ومهيئا للقيام بمهمة الطفولة التي هي : التغذية، والإبقاء على الاتصال بالآخرين، وحماية نفسه من المؤثرات المؤذية.

ومن أشد العناصر شذوذا في نمو الأطفال، هي أنهم يفقدون بسرعة المهارات التي ولدوا بها. فالطفل الحديث الولادة إذا أوقفته على مائدة مرفوعا من يديه فإنه يستطيع المشي تقريبا. وإذا أدخلته في جفنة ماء، فإنه يقوم بمحاولات مدهشة للسباحة. وهذه القدرات تتلاشى داخل شهور قليلة. ونفس الشيء يحدث للمسارات العقلية التي لا تستعمل. وقد أوضح العالمان النفسانيان (جانيت ويركر) من جامعة (دالهوزي بهاليفاكس)، و(ريتشارد تيز)، من جامعة (كولومبيا البريطانية أن الصبيان الذين تتراوح أعمارهم بين ستة وثمانية أشهر يستطيعون تمييز أصوات لا تستعمل في لغتهم الأصلية، ولكنهم يجدون صعوبة أكثر حين يصلون شهرهم الثاني عشر. فالأطفال اليابانيون، مثلا، ليست لهم مشكلة في نطق حرف (اللام) كما لآبائهم.

وأغلب الخبراء اليوم يعتقدون أن الطفل يولد بعدد من ردود الفعل التي يعوضها تدريجيا «السلوك اللحائي Cortical Benvior المفروض من لحاء مخه السريع النمو. ويعتقد (ليبسيت) من جامعة (براون) أن فترة «فوضى أو تشويش»، أثناء هذه الفترة الانتقالية، قد تكون عنصرا هاما في «وفيات المهد» التي تحدث بشكل غامض أثناء السنة الأولى. والصراع للهروب من الاختناق بقماش الفراش، المعروف بـ «رد فعل الانسداد التنفسي». Respiratory Occlusion Reflex يأتي آليا عند الميلاد، ولكن يجب تعلمه بعد ذلك. ويقول (ليبسيت) : «وتقع قمة التشويش بالضبط في الفترة التي يمكن أن تحدث فيها» وفاة المهد حيث لا يعرف الرضيع هل يستجيب أو يتعلم Reflective Or Cognitive ولنفرض أن طفلا وقع في وضع شاذ حيث يكون فقد رد الفعل الفريزي، ولم يكتسب بعد المعرفة السلوكية التي تأتي لتعويض رد الفعل الغريزي. «فماذا يحدث» ويأمل (ليبسيت) أن يصمم اختبارا خاصا للتعرف على أولئك الأطفال القلائل الذين قد يتعرضون للخطر.

وكل تجربة على أي نوع من المشاكل تدل على أن هناك وقتا «طبيعيا» يظهر فيه الطفل أنواع قدراته. فإذا لم يقعد داخل ستة أو سبعة أشهر، أو يقف بين تسعة أو عشرة، فعلى طبيب الأطفال أن يفحص أعصابه، وقد طبق تلامذة (ارنولد غيسل) بجامعة (ييل) هذه الطريقة على جميع مراحل الطفولة. وتقول آخر طبعة من كتاب (سلوك الطفل) (المعهد غيسل) : «إن الطفل يخرج من بيته هائما على وجهه، فيتيه

2) نسبة إلى المولد الالماني (ارنست مورو) (1874 ـ 1951).

في الرابعة من عمره، ويطالب بركوب دراجته في الشارع في السنة الثامنة» :

وجميع النصحاء ينصحون الآباء بألا يأخذوا هذه التقنيات مأخذ الجد الكبير. ويبدأ طبيب الأطفال (بيري بريزلتون) الذي أصدر حديثا الطبعة المنقحة لكتابه الرائج (الأطفال والأمهات) بالتصريح : «هناك من التنوعات الفردية في أنماط الأطفال الحديثي الولادة بقدر عدد الأطفال». ورغم ذلك فنمو الطفل أثناء السنة الأولى أبطأ كثيرا من نمو القرد أو حتى الفيل، ومع ذلك فهو من الروعة - من الاستلقــــاء على ظهره إلى أول حبو على الأرض، إلى الخطوات المضطربة الأولى حول مائدة المطبخ - لدرجة أن العلماء يثابرون على محاولة ضبط متى وكيف يتعلم كل إنجاز جديد.

ويبدو أن سن الشهرين، والثانية أشهر، ونهاية العام الأول هي فترات التغير الكبرى في نمو الدماغ، وفي اكتساب مهارات وإدراكات متنوعة، وفي الاختلاط بالآخرين. فعند بلوغه الشهرين، مثلا، يقضي الطفل وقتا أطول وهو مستيقظ، ويبتسم كثيرا، ويحملق بافتتان في اكتشافه الجديد : يده ! وعند بلوغه الشهر الثامن يكتسب الطفل الإحساس الهام بهويته الفردية المعزولة عن الآخرين، بل وحتى ما دعاه (بياجيت) بـ «دوام الشيء»، وهو إدراك أن شيئا ما إذا اختفى عن بصره ما يزال موجودا. ويبدأ الطفل في اكتساب الخوف من الغرباء ومن افتراقه عن والديه. وعند بلوغه العام، السن الذهبية، يبدأ الطفل يتكلم ويمشي ويعرف أن العالم كله ينتظره ليكتشفه. فأحيانا يتعلق الطفل بكرسي، ويلوح بملعقة في قبضته، ويلقي برأسه إلى الخلف، ويصيح في نشوة رائعة.

هذه المنجزات الجسدية والاجتماعية معروفة منذ القدم : فأية أم تستطيع أن تراها في طفلها. ولكن ما يبرزه العلماء هو أن النمو العقلي للصغار يمكن أن يكون مبكرا ومثيرا بنفس درجة نموه البدني. ويجري العالم النفساني، (روبيرت كوبر)، من جامعة (جنوب ولاية تكساس)، تجارب على صغار في شهرهم العاشر والثاني عشر لمعرفة قدرتهم على التعرف على الأرقام المختلفة. وقد وجد أنهم يستطيعون أن يصلوا إلى التعرف على الأرقام من واحد إلى أربعة «أما فوق ذلك فثمة خلاف» وبعرض مجموعات مختلفة من الأشياء على صغاره، يوضح (كوبر) أنهم يستطيعون معرفة الفرق بين رقمي «ثلاثة» و«خمسة»، ولكن الفرق بين «أربعة» و«خمسة» يحيرهم.

والفكرة القائلة بأن الأطفال الرضع يستطيعون التعلم، عرضت الآباء الطموحين للاغراء منذ قرون. ففي سنته الثالثة، تعلم (جان ستيوارت ميل) اللغة اليونانية، وكان (موزارت) يعزف على الهابسيكورد. والإثنان علمها والداهما الطموحات. واليوم، تستقبل بعض مدارس الحضانة الراقية (بنويورك) أطفالا في الثانية من عمرهم (يكلف ذلك آباءهم المتطلعين 1200 دولارا في السنة لقبولهم لفترتين صباحيتين في الأسبوع) وأكثر من هذا ان طلبات الإنخراط تفوق عدد الأماكن الفارغة بخمسة لواحد.

والتقليعة تنتشر فمؤسسة (جيمبوري)، التي بدأت تعمل منذ سبع سنوات (بسان ماطيو) (بكاليفورنيا) تملك الآن واحدا وستين فرعا في أربع عشرة ولاية تقدم اللعب التربوي لحوالي عشرة آلاف طفل. ويقول منشور من منشورات (جيمبوري) «إن تعلم القراءة يبدأ عند الولادة». ودروس الأربع دولارات في أغلبها بدنية، وتتراوح ما بين تمارين رياضية صغيرة للمبتدئين وحركات ملعبية لمن بلغوا سن الرابعة، وتقول مؤسسة (جيمبورى)، (جون بارتز) : «نحاول إيجاد بيئة» امتثال للأطفال لوضعهم في مواقف يستطيعون السيطرة عليها».

وفي الميدان التربوي المحض، هناك مؤسسة في (فيلادلفيا) تدعى (معهد الطفل الأفضل)، وهي تعطي دروسا تدريبية للأمهات لتأهيلهن «لمضاعفة ذكاء أطفالهن» وتدعي المدرسة، على وجه التحديد، أن آباء الأطفال يمكنهم أن يتعلموا في بحر أسبوع واحد من التدريب المركز (بأجر قدره 500 دولار) كيف يعلمون صغارهم السباحة، والقراءة، والحساب، والكلام بلغة أجنبية، والعزف على الكمان في الثانية من العمر. ويعتقد بعض النقاد أن كل هذا يجعل الأطفال يتعلمون أساسا بعض المهارات عن طريق الاستظهار، ومن الصعب الحصول على تقويم علمي لهذا المعهد الذي لا يزيد عمره عن خمس سنوات. وكثير من هذه المؤسسات التي تعنى بتعليم الصغار يشجعها الآباء المتطلعون إلى إعطاء أطفالهم

فرصا للسبق. وهناك تجارب مماثلة تثير اهتمام أولئك الذين يشتغلون بين الفقراء فقد طور الدكتور (سطارلنج)، مثلا، ونشر سلسلة من مائة لعبة تربوية في (مركز غراهام لنمو الطفل) بجامعة (شمال كارولينا). وقد تم اختبار هذه اللعب التي تتراوح بين مواضيع محددة مثل تطوير اللغة، وبين اهتمامات غامضة مثل تصور الذات، ثم تجريبها بنجاح على مدى السنوات الخمس الماضية ضمن برنامج ممول فيديراليا يدعى «مشروع العناية».

ويستعمل الباحثون اللعب في مراكز الرعاية اليومية وأثناء الزيارات الأسبوعية لمؤسسات الطفولة، ويقول هؤلاء الباحثون إن الصغار يحصلون على نتائج أعلى في اختبارات الذكاء، في السنة الأولى من العمر، من أطفال في جماعة المقارنة لم يمارسوا هذه الألعاب.

ومهما يكن، فالاندفاع صوب التعليم المبكر يعطي الصغار فرصة ثمينة لكسب الأصدقاء. ويقول العالم النفساني (كولوين تريڤارتين)، من (جامعة ادنبرة) «إن لهم حقا هذه القدرات الاجتماعية القطرية التي تطورت لدى الإنسان كما تطورت قدرات الزرافة بأكلها الأوراق العالية» :

ولكن، هل التعليم المبكر فعلا مرغوب فيه ؟ وهل اكتشاف أن الطفل الرضيع يستطيع امتصاص كمية كبيرة من المعلومات يتطلب منا حشوه كوزة (ستراسبورغ (3)) ؟ وقد كانت هناك أسباب اجتماعية لانطلاق (مشروع البدء المبكر) Head Start سنة 1960 لتوفير برامج ما قبل التمدرس للأطفال الفقراء. وأغلب علماء النفس القائمين بهذه الأبحاث الجديدة يعارضون بشدة أي نوع من التمدرس النظامي قبل سن الثالثة أو الرابعة، حتى ولو كان الطفل قادرا عليه. ويقول العالم النفساني، (تيفاني فيلد) من جامعة (ميامي) : «اننا نعرف أن الصغار يأتون إلى العالم بمهارات عالية أكثر مما كان يعتقد من قبل، ولكن لا أعتقد أن القراءة، والكتابة، والحساب ينبغي أن تكون ضمن برنامجهم. ويقول طبيب الأطفال النفساني، (روبيرت هرمون) مدير العيادة النفسانية للأطفال (بمدرسة الطب بجامعة (كولورادو) منذرا : «أعتقد أننا سنحرق قابلية الطفل للتعلم : ويقول العالم النفساني (كورد فيشر) من جامعة (دينفر) عن السنة الأولى للطفل : «لا تقلق على تعليمه بقدر ما تفعل على تهييء جو غني بالدعم العاطفي». وكما يبين تصريح (فيشر)، تؤكد أغلبية الأبحاث الجديدة الأهمية البالغة لعلاقة الطفل بأمه (أو أبيه، أو بما يسميه التحرريون اليوم» بمانح الرعاية.

فليس عليها أن تطعمه وتحبه فقط، ولكن أن تحدثه، وتلاعبه، وتريه ماذا يحدث في العالم. وقد اختبر (لويس) من جامعة (روتجرس) النمو العقلي في مائة رضيع في الشهر الثالث من أعمارهم، وسجل استجابة أمهاتهم لعلامات ضيقهم. ولم يكد يفاجأ حين وجد أن أولئك الذين كانوا يعاملون بعناية ودفء أكثر، قد تعلموا أكثر عند اختبارهم الثاني في نهاية سنتهم الأولى. ويعد هذا النوع من الغذاء جوهرا بالنسبة للنمو العاطفي والعقلي وفي الحقيقة، لا يمكن الفصل بين الاثنين. وتقول الطبيبة النفسانية (اليانور غالينسون) من (المركز الطبي لجبل سيناء بمانهاتن) : «الرضيع الذي لا يبتسم قد يعطينا إشارات أصدق من اختبارات المعرفة» :

وابتسامة الطفل، هي كذلك نوع من الحكم على رعاية أمه له. ويقول الدكتور (صبوك) Spock الذي علم جيلا كاملا من الأميريكيين، نوعا طوباويا من تنشئة الأطفال : «كل هذه المعلومات الجديدة حول تبكير الطفل بتمييز الأشياء ينبغي أن ترفع من قيمة الأمومة، وتعيد لها بعض الإعتبار. فقد نقص مبلغ الأهمية المعطاة للأمومة في مجتمعنا هذا الغريب المبالغ في العقلانية والعلمانية.

وحسب التقاليد المأثورة، فإن كل أم تعرف غريزيا كيف تربي أطفالها، ولكن مع الأسف، ذلك ليس صحيحا دائما. وبالفعل، فقد أنكرت (اليزابيت بادينتر) أستاذة الفلسفة الفرنسية، الغريزة بقوة في كتابها : «حب الأم : الأسطورة والحقيقة» وحتى إذا كان إرضاع الأم لصغيرها غريزة، فإنه يتطلب بعض التجربة كذلك، وإذا كانت القدرة ميزة تكتسب بالتعلم، فإن بعضهن أحيانا لا يتعلمها جيدا. وقد

3) يرغم الفلاحون الفرنسيون الوز على الأكل الزائد بمحاقن من خشب في منطقة (ستراسبورغ) لإفساد اكبادها وانتاج اكلة (الفواغرا) أي - الكبد الدسم - المقابلة لكافيار عندهم.

راقب الطبيب النفسي (دانييل ستيرن) من المركز الطبي لجامعة (كورنيل)، 100 أم يلاعبن أطفالهن البالغين ما بين 8 و12 شهرا من العمر، ليعرف كيف تتفاعل الأمهات مع أطفالهن يقول (ستيرن) : «كلما لاحظنا تعبيرا عاطفيا على وجه الطفل، ورأته أمه، ننظر كيف تستجيب له. ثم نسألها لماذا فعلت ذلك ؟ وبماذا ظنته يحس ؟ وماذا كانت تتوقع أن تحقق ؟ وهل كانت تعرف ما تفعل في ذلك الوقت بالذات ؟» فجاءت نتائجه الأولى كالآتي : حوالي ثلث الأمهات كن واعيات بما يسميه (ستيرن) بالتناغم مع أطفالهن، والثلث الثاني لم يكن واعيا بالمرة، والباقي كن غير واعيات به أساسا، ولكن استطعن تذكره حين دلهن عليه.

هذه الملاعبة العاطفية الهامة جدا، والتي غالبا ما تسمى «بالارتباط» هي خليط من الحب واللعب، ولكنها تعتبر الآن شيئا آخر، أي نوعا من الحوار بدون كلمات. فالطفل لا يفهم، فقط، ما تريد أن تقوله له أمه أو لا تقوله، ولكنه يحاول أن يقول لها أشياء، لو أنها، فقط، تنصت. ويقول الدكتور (بينيت ليڤنشال) من (مصحة الطفل النفسانية) بجامعة (شيكاغو) : «نحن نعرف أن الأطفال يبعثون رسائل في سن مبكرة. ففي سنتهم الأولى يكونون تلاميذ ماهرين. وهم كذلك أساتذة ماهرون، إذا وجدوا من يتفاعل معهم. وهناك أحيانا أطفال أكفاء مع والدين غير اكفاء.

كثير من علماء النفس اليوم يعتقدون أن الدراسات الجديدة تمكنهم من توقع مشاكل المستقبل حتى في أصغر الأطفال. يقول (ستانلي غرين سپان)، رئيس (وحدة البحث المستوصفية للطفل) بـ (المعهد الوطني للصحة العقلية) بـ (ادلغاي باري لاند) : «باستطاعتنا الآن أن نثبت بالوثائق أين يعجز طفل رضيع عن التقاط معلومات حسية. وباستطاعتنا أن نكتشف الشذوذ في المناطق العاطفية. وليس ثمة دليل على أن مشاكل الطفل العاطفية تصحح نفسها بنفسها. فالمحيط الذي ساهم في الضرر المبكر سيستمر في الإضرار، إذا لم يتدخل أحد».

وأحد أعراض المشاكل المبكرة، في نظر (غرينسپان)، هو تفادي الأم أو الطفل النظر إلى بعضها البعض. ويصور (غرينسپان) أشرطة ڤيديو لمثل هذه الحالات. فهذه (أماندا)، في الشهر الرابع من عمرها، تشيح بوجهها، وتظهر ما يسميه (غرينسپان) : «بالتفادي الإيجابي» ولا عجب. فأمها كانت تربيها وحدها وتعاني من نوبات من الكآبة العميقة. وقد قضى (غرينسپان) ومساعدوه أربعة أشهر يلعبون مع (اماندا)، ويثيرون اهتمامها. وبعد ثمانية أشهر، أظهر تسجيل الڤيديو (أماندا) وهي تعيد المرح إلى أمها. ويقول (غرينسپان)، بعض الارتياح، «إنها كونت وسائل للتغلب على المصاعب أقوى من وسائل أمها».

وحين يتكلم علماء النفس عن «المحيط»، فإن ذلك يعني، أساسا، البناء البسكولوجي للعائلة، ولكن المحيط الاجتماعي والاقتصادي ليس أقل أهمية بالنسبة لنمو الطفل. ففي الولايات المتحدة يعيش 13,5 مليون طفل تحت خط الفقر الرسمي وحوالي 7,5 ملايين طفل يعيشون حاليا على مساعدات الدولة، وأكثر من نصف مليون طفل يولدون كل عام لمراهقات أميريكيات. ومن الصعب قياس آثار حرمان هؤلاء الأطفال علميا، إلا أن الدكتور (جيرالد يانغ) من (المركز الطبي لمستشفى جبل سيناء بمانهاتن بنويورك) يقول بكل صراحة : « إذا أردت أن تخمن كيف سيكون الطفل في سنه السابعة، فانظر أولا إلى خلفيته الاجتماعية والاقتصادية». وهذا ليس أمرا يتعلق بالمصاعب الاقتصادية أو النقص الغذائي.

يقول (ليبسيت) من جامعة (براون) «إن المؤثر (الاجتصادى) أي الاجتماعي ـ الاقتصادي جهاز قوي للتنبؤ بالمهارة الفكرية في مستقبل الطفل بأي متغير لدينا، ولكنه لا يعمل في فراغ. إنه يعكس الطريقة التي يعيش بها الناس، وكيف يرتبط بعضهم ببعض، وكيف يتصرفون مع الأطفال».

وقد قام فريق من علماء النفس بجامعة (ويسكانسن) بتجربة إيضاحية هامة لهذه النظرية منذ عقد مضى. فقد فوجئوا بأن كثيرا من الأطفال المتخلفين عقليا من حي فقير في (ميلووكي) لهم أمهات متخلفات. فأخذوا 40 طفلا أمهاتهم حصلن على أقل من 75 نقطة في اختبار الذكاء، ووضعوا 20 منهم في مراكز خاصة للعناية النهارية وبدأ الأطفال من شهرهم الثالث يأخذون دروسا في اللغات والحساب وعدد من

أنواع التنشيط. وحين بلغوا سن التمدرس كان متوسط ذكائهم قد بلغ 100 درجة (ولم يكن واحد منهم متخلفا). أما العشرون الآخرون الذين لم يتلقوا أي عناية خاصة فكان معدل ذكائهم 865 درجة، و60 في المائة منهم كانوا متخلفين عقليا.

ومسألة تنشئة الطفل خارج البيت تحدث في جميع الطبقات. فهناك اليوم مليون ومائة ألف امرأة عاملة بأطفال تحت سن الثالثة. وقد أظهر مسح أن 70 بالمائة تقريبا يعدن إلى أعمالهن داخل أربعة أشهر من ولادتهن. وبشكل عام، يتلقى حوالي 8 ملايين طفل من الذين لم يصلوا سن التمدرس نوعا من العناية النهارية في دور حضانة خارجية. فهناك مليون طفل في مراكز العناية النهارية، و3,5 مليون في دور رعاية عائلية و3,5 ملايين آخرون في رعاية الأقارب والراعيات المأجورات. فإذا كانت الأم المرضعة من الأهمية بالنسبة لطفلها، كما يقول الأطباء النفسانيون، فإن البديل المأجور اختيار سقيم، إلا أن أغلب الباحثين النفسانيين يرفضون هذه النتيجة. فهم يقولون إن كل ما يحتاج إليه الطفل، في الحقيقة، هو شخص موجود دائما يبدي اهتماما حقيقيا به. ومن الواضح، أن كل شيء يعتمد على نوعية الرعاية النهارية والمنزلية، ففي حالة تجربة (ميلووكى) مع الذين يحتمل أن يصبحوا متخلفين، كانت الرعاية النهارية إنقاذا لهم. ولكن في أحد المراكز النموذجية الـ 788 للعناية النهارية بمقاطعة (بماريلاند) التي تتسع لـ 8.560 طفل فقط من الـ 65.000 طفل تحت 14 ممن تشتغل أمهاتهم.

أما مبلغ نفع الرعاية النهارية فيبقى موضوعا للتخمين. ويقول (بيرنيس وايسبورد)، مؤسس جماعة التركيز على العائلة التي تقدم الدعم والنصيحة للوالدين الجدد (بشيكاغو) : «إن أية مصلحة للعناية النهارية التي يزيد عدد أطفالها عن ثلاثة لكل بالغ (وهذا ينطبق على أغلبيتها) فهو غير كاف. فغالبا ما تكون أسئلة الوالدين هي : كم تبعد عن المنزل، وكم تكلف ؟» ومن جهة أخرى يقول (يوري برونفينبرينر) العالم النفساني بجامعة (كورنيل) : «ليست هناك أدلة قاطعة بأن الرعاية النهارية لها تأثير سلبي» :

ومهما كانت الصعوبات فأغلبية الآباء الساحقة تريد لأبنائها أفضل رعاية، لو أنهم فقط يعرفون ما هو ذاك الأفضل، لأنه غير واضح. وأغلب الخبراء يقولون : إن الحاجة عظيمة. يقول (بورتن وايت) مؤلف كتاب «سنوات الحياة الثلاث الأولى» : «ليس أكثر من طفل واحد من عشرة يبدأ البداية الجيدة التي في إمكانه». ويحث (كاغان) من (جامعة هارڤارد) الوالدين على توفير «محيط مغذ» ويصرح : «إن ذلك سهل. آه ما أسهله. لو كان لنا كثير من السحر».

وتأتي التغييرات المهمة ببطء لدرجة أنها تعتبر من المسلمات. فورق الأطفال كان من قبل أبيض، ولكنه اليوم يتفجر بالألوان. واللعب المتحركة فوق المهد التي كانت تعتبر شيئا من قبيل التأنق والغرور أصبحت اليوم قطعة أساسية من الأثاث تقريبا وحمالات الأطفال على الظهر التي كانت مقترنة بالهنديات يحملن بها صغارهن، أصبحت اليوم تباع في مكان كل، وليس كشيء مريح للأم بقدر ما هو فرصة للطفل للخروج من المنزل ورؤية العالم.

وإذن فالأشياء القديمة أصبحت تواتي العصر الحديث. وأكثر ما يوثقه الباحثون العصريون بعناية كبيرة هو ما يعرفه الأبناء دائما ـ سواء غريزيا، أو منطقيا، أو تعلموه من آبائهم ـ وهو أن الأطفال يحتاجون ويستجيبون للحب، والاهتمام، والتنشيط، والتعلم بهذا الترتيب تقريبا. ولا يوثق البحث أهمية هذه الاحتياجات فقط، بل كذلك الضرر الذي يمكن أن يحدث إذا أهملت هذه الاحتياجات. ومع ذلك، فقد يبالغ الناس حتى في اسباغ هذه النعم التي جاءت بها «الحنبلية» (4) الجديدة. فالعالمة النفسانية (روز كارون) من (مختبر أبحاث الطفل) من جامعة (جورج واشنطن) تحذر قائلة : «نحن نتعلم أن كل شيء سيكون له أثر على الطفل، ولكننا ما نزال نحتاج إلى معرفة ماذا يحدث بالضبط. فمن المحتمل أن تضعف كفاءة الطفل بسبب التنشيط الكثير المبكر».

ومرة صاح الشاعر الأميريكي (والت ويتان) «هل أناقض نفسي ؟ فليكن؛ إذن فأنا أناقض نفسي» فتنشئة الطفل عامرة بالمتناقضات واللا منطقيات. وتكاليف تربية

---

4) اخترت كلمة «الحنبلية» كترجمة لـ Orthodoxy وكلاهما لم يرد بالمعنى الديني.

طفل إلى أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره تقارب المائة ألف دولار بالولايات المتحدة، حسب بعض التقديرات، وهي كفيلة بردع أي مستثمر عاقل. وكذلك شبح عشرين سنة من القلق والانفعال. ولكن ولادة طفل تبقى، بالنسبة لأغلب الناس، عملا يتعلق بالإيمان. فهو يمثل الثقة بتحسن الأمور في المستقبل، ليس فقط بالنسبة إليهم، بل بالنسبة للعالم كذلك.

يشاطرهم في ذلك الإيمان الآلاف الذين يدرسون الطفل. يقول (لويس) من جامعة (روتغر) : «هل تستطيع صنع مجتمع بأطفال أصح ؟ الجواب هو نعم. «وفي لحظة الميلاد الأولى، حين يخرج إلى الوجود ذلك الرأي الأسود المبتل الصغير. فإن كل مولود يؤكد ذلك الإعتقاد. وحينئذ تنطلق أول صرخة.

أوطو فريدريك



●● صدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية كتاب " أبو علي القالي وأثره في الدراسات اللغوية والأدبية بالأندلس " للأستاذ عبد العلي الودغيري ويقع الكتاب في 530 صفحة من القطع الكبير ●●

شلال أوزود

للشاعر الأستاذ علال الخياري

«عبر مدينة أزيلال وروابيها الخصبة، تفضي الطريق يمينا إلى حيث شلال أوزود الجميل، وكأنه في تدفقه وهديره صوت الماضي يحكي أمجاد تلك الربوع، وإذا بي أمام لوحة غنية بالألوان تعجز عن وصفها ريشة الفنان، وتزيدني عشقاً وهياماً بجمال طبيعة بلادي وسحرها الخالد»

يـا بـلادي، يـا جنـة الأرض تيهي ... صـاغـك الله للجمال مثـالا

أنت خضر المروج، أنت ظـلال ... أنت أنـدى شـواطئـاً ورمـالا

عشبـك الأخضر النـدي بسـاط ... يـا لـه طـاب للنسيم مجـالا

أينما حـل زائر في بـلادي ... يبصر الفن والرؤى أشكالا

هـا هنـا تعرض الطبيعـة أحلى ... مـا لـديهـا جـداولا وظـلالا

☆ ☆ ☆

يـا بـلادي يـا ذات حسن بـديـع ... أنـا من ذاب في هـواك وغـالى

حلم وردي يـداعب روحي ... أينما مـال نـاظري، أين جـالا

وإذا بي أرى تهـــــاويــــل سحر   في الروابي تمثلت شــــــــلالا
يترامى في الصخر، رجــع صــــداه   صـوت مــاضينــا يلهم الأجيــالا

☆ ☆ ☆

في صبـــاح سكرت من خمرة العطر، وكان الضبـــاب يكســو التـــلالا
وإذا بـــالشعـــاع يخترق الجـــوّ، فتبـــدو المروج أصفى جمـــالا
ورشـــاش الشـــلال تلمــع في الضـــوء كحبـــات لـــؤلــؤ تتـــلالا
والربيـــع الجميـــل وشى الربى الخضر، فرقت أزاهرا وظـــلالا
في ظـلال الأشجار سرت مـع الـوا   دي أغني صبــابــة وانفعـــالا
وزهـــاني سحر الطبيعـــة أختـــا   ل يمينـــا وأستميـــل شمالا
وأنـــا ذاهــل الشعــور، وفكري   في ضــلال، هنـــا أحب الضـــلالا

☆ ☆ ☆

الرباط ـ علال الخياري



من مخطوطات خزانة القرويين:

كتاب الزهد والرقائق

تأليف: أبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك
عرض: الأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

لعل الثقافة العربية الإسلامية من أقدر الثقافات على مسايرة أحوال النفس البشرية في السراء والضراء، وعلى مراقبة سلوكها في الشدة والرخاء، وعلى تخطيط ما ينبغي أن تقوم على أساسه في المعاملات العامة ليبتعد الإنسان بالاطلاع عليها عن الدنايا، وليمارس كل ما يرفع من قيمته الإنسانية التي تجعله لا يحيا لنفسه فقط، ولكنه يحيا لنفسه وللناس.

ولقد عني أهل العلم والأدب والسياسة والأخلاق، بتتبع الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الغاية، فألفوا الكتب الهادفة، وجمعوا الحكم النافعة، وضربوا الأمثال المختلفة، وانتقوا من السير ما يصلح لتهذيب النفوس وترويضها على الخير، وعمدوا إلى المقارنات والموازنات، فأثرت الخزانة الإسلامية بما وضعوا، وافتخرت بما ألفوا، واحتفظ لنا التاريخ ببعض كتبهم التي ما زالت إلى الآن تساهم بدورها الخلاق، رغم مرور السنين والأعوام، وتوالي الدهور والقرون.

ومن بين هاته الكتب ما كان يتعلق بالزهد والرقائق، ويرتبط باستمالة النفس للخير عن طريق الدين، وعن طريق الاتعاظ باحداث الزمان، ليعرف الإنسان حقيقة نفسه، وأنه في هذه الدنيا عابر غير مقيم، أما الدار الآخرة فهي دار الشقاء أو دار النعيم.

ولم يكن الغرض من الزهد أن يصبح الفرد سلبيا في هذه الدنيا لا يعمل من أجل إصلاحها وتطويرها ونشر ما يرفع من قيمتها، بل الغرض منه إعداد الإنسان إعدادا كاملا لتحقيق العدالة عن طريق الحق والإحسان والالتزام بالمبادىء السامية التي تهدف إلى وضعه في مسار مضيء، وصراط مستقيم.

ولقد كانت كتب الزهد محببة لدى النفوس الطاهرة يتسابق الناس إلى انتساخها وحفظها وروايتها فيصطحبونها في أسفارهم، ويورثونها أبناءهم، ويحبسونها على الخزانات العامة، لتكون هداية للقراء وتربية للمطالعين والدارسين.

وفي خزانة القرويين عدد لا يستهان به إلا أن أقدمها هو كتاب الزهد والرقائق لعبد الله بن المبارك الذي يعد من أنفس الكتب في هذا الباب وهو كتاب مجزأ في الأصل على ستة عشر جزءا تتفاوت أوراقها عدا ولكنها جمعت في مجلد واحد ضمن مجموع يحمل رقم 1061.

إن المخطوطة التي تحتوي عليه قد كتبت بخط أندلسي جميل وقد أصيبت بتلاشي قوي فيما يتعلق بالأجزاء الثلاثة الأخيرة ومقياسها 23 × 18 ومسطرتها 18 وقد تعهدتها يد الإصلاح في كثير من أوراقها، وسفرت تسفيرا عاديا، وفي غلافها تذهيب بسيط، وليس عليها أي تحبيس، إلا أنها كانت في ملك من يسمى أحمد بن عمر العميري

حسب ما في ورقتها الأخيرة كما كانت في ملك من يسمى محمد الأمين الشهير بابن الخراط الحنفي فلقد اشتراها في ذي القعدة عام 1139 هـ حسب ما في واجهة الكتاب.

نسخت هذه المخطوطة سنة 465 هـ وقد كتبت في ورقتها الأولى أربعة أبيات لم استطع أن أميز البيت الأخير منها يقول ناظمها :

كتبت وقد الفيت لا شك أنني
ستبلى يدي يوما ويبقى كتابيا
وأعلم أن الله سائلها غدا
فياليت شعري ما يكون جوابيا
فإما نعيم في الخلود وراحة
وإما جحيم لا يطاق عذابيا

وفي الصفحة الأولى من هذا الكتاب إشعار بأنه منقول برواية أبي اسماعيل محمد بن اسماعيل الترمذي (1) عن نعيم بن حماد (2) عن ابن المبارك إلا أننا إذا تأملنا الأمر الواقع فإننا نجد أن هناك رواة سابقين لهؤلاء لم تشر إليهم الصفحة الأولى مع أن النزاهة العلمية تقتضي ذكرهم. وإن إطلالة عابرة على الكتاب تقرب لنا ذلك وأقصد بالتقريب عدم القدرة على الإلمام بكل ما يجب الإلمام به، لأن الراوي الأول الذي جمع الكتاب لم يذكر اسمه، ولم نعرف عنه لحد الآن شيئا إلا ما يتصل بربط روايته لهذا الكتاب بالمحدث القرطبي الشهير قاسم بن أصبغ (3) فهو قد روى عنه هذا الكتاب بواسطة أحمد بن عون الله (4) بالنسبة للجزء الرابع عشر وبواسطة أبي بكر محمد بن اسحق بن منذر بن السليم (5) بالنسبة لسائر الأجزاء.

وقد جرت عادة الراوي الذي وضع الكتاب أنه لا يذكر السلسلة كاملة إلا في أوائل الأجزاء فإذا تجاوز ذلك اقتصر على ذكر الترمذي، ونعيم بن حماد، ولعل ذلك هو الذي جعل الناسخ يقتصر في الواجهة على ذكر روايتيهما فقط دون غيرهما، مع أنه لو صح الاكتفاء بالاختصار والاقتصار، لكان ذكر قاسم بن أصبغ معهما واجبا، لأنه هو الرابط الأساسي بين هذا الكتاب وبين الأندلس، فلعله قد حمله معه فيما حمل حين عودته من الرحلة الشرقية التي عادت بالفضل الكبير على نشر الحديث بالأندلس والمغرب (6).

ومن الجدير بالذكر أن أول باب من كتابه، رغم أنه كتاب زهد ورقائق، قد خصه للترغيب في العمل وإلى الدعوة إلى المبادرة إليه واستشهد فيه بحديثين شريفين يعتبران من أنفس جوامع الكلم فقد قال رسول الله ﷺ في الحديث الأول : نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ، وأما في الحديث الثاني فقد قال : «اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك.

وكان في استشهاده يستعمل طريق السند شأنه في ذلك شأن المحدثين ويعتمد على العنعنة سواء فيما يتعلق بالأحاديث أو فيما يتعلق بالأخبار والسير المقتبسة من حياة الأنبياء والأمراء والصالحين.

ومن المعلوم أن كتاب الزهد هذا لم يكن غفلا عند المهتمين بتاريخ التدوين لأنه كتاب اشتهر بمنهاجه وبخطة مؤلفه المتصلة بتعداد الموضوعات الصالحة لهذا النوع من التذكير والتوجيه ولم يكن وحده الذي اشتغل بهذا الموضوع فقد اهتمت به جماعة من المؤلفين المشهورين ذكر صاحب كشف الظنون بالجزء الثاني من كتابه عددا منهم ونقل عن ابن تيمية ما يأتي (7) : ومن أجل ما صنف

---

1) هو محمد بن اسماعيل بن يوسف السلمي الترمذي نزيل بغداد المتوفى سنة 260 هجرية.
2) هو نعيم بن حماد بن معاوية المروزي سكن مصر وروى عنه كثير من المحدثين من بينهم الإمام البخاري وأبو اسماعيل الترمذي المذكور توفي سنة 227 هـ وقيل 28 أو 29.
3) هو قاسم بن أصبغ المعروف بالبياني رحل إلى المشرق سنة 274 هـ توفي سنة 340 وكان من ألمع الشخصيات التي نشرت الثقافة الإسلامية بالأندلس.
4) هو أحمد بن عون الله القرطبي ممن رحل إلى المشرق فاستفاد ثم رجع إلى الأندلس فروى كثيرا مما أخذ، توفي سنة 378 هـ.
5) أنظر ترجمته بكتاب بغية الوعاة للسيوطي صفحة 21.
6) أنظر الجزء الثاني من نفح الطيب تحقيق محيي الدين عبد الحميد صفحة 253 وكتاب تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضي الجزء الأول ص 406.
7) يوجد هذا النص أيضا بالفتاوي الكبرى لابن تيمية الجزء الحادي عشر ص 580.

في ذلك وأندره كتاب الزهد لعبد الله ابن المبارك وفيه أحاديث واهية وكذلك كتاب الزهد لهناد بن السري ولأسد ابن موسى وغيرهما وأجود ما صنف في ذلك الزهد للإمام أحمد لكنه مكتوب على الأسماء وزهد ابن المبارك على الأبواب وهذه الكتب يذكر فيها زهد الأنبياء والصحابة والتابعين...».

وإذا كان ابن تيمية يشير إلى أن بعض الأحاديث الموجودة في كتاب ابن المبارك واهية فإن هذه التوهية تحتاج إلى تحديد عملي من أصحاب التحقيق لئلا تتسرب الأوهام إلى كل ما أتى به خصوصا إذا علمنا أن أكثر الذين يتحدثون عن ابن المبارك ينعتونه بالصدق والنزاهة والحذق والفطنة مما يصعب معه الانسياق إلى حكم ابن تيمية اللهم إلا إذا راعينا أقوال الذين كانوا يرون أن ابن المبارك كان يكثر من الأخذ ويظنون أن هذا الإكثار قد يكون سببا في تسرب بعض الأحاديث الواهية إلى كتابه (8).

إن التساهل في الحكم ليس من طبيعة البحث العلمي ولهذا كان من الواجب التعرض إلى اتجاه آخر لا يجد في ابن المبارك إلا النزاهة والصدق والتحري، فهذا نعيم ابن حماد وهو الراوي الأول لكتاب الزهد يقول : «سمعت ابن مهدي يقول ما أعتد بشيء سمعته من حديث ابن لهيعة إلا سماع ابن المبارك ونفس القولة رويت عن ابن المديني عن ابن مهدي» (9).

وإذا كان هذا النص يدل على شيء فإنما يدل على الثقة التي أولاها بعض رجال الحديث لهذا الرجل الورع فهم يعتدون بروايته حتى عن الذين قد يتسرب الضعف إلى أقوالهم نظرا لنباهته ولدقة نقده، ولعدم انقياده إلى الأقوال دون ربطها بملابساتها التاريخية، ويؤيد ما قلناه ما روي عن اسحق بن ابراهيم أن الرشيد أخذ زنديقا فأراد أن يقتله فقال : أنى أنت من ألف حديث وضعتها فقال أين أنت يا عدو الله من أبي اسحق الفزاري وابن المبارك ينخلانها حرفا حرفا (10).

إن الثقة هي الصفة الغالبة على ابن المبارك رغم التوهية التي أشار إليها ابن تيمية، وإلا فكيف نعلل اعتماد عدد من الأئمة الصالحين وذوي الفضل والتحري في الرواية عنه أو عمن روي عنه، فقد روى عنه سفيان الثوري وهو من شيوخه وروى عنه معمر بن راشد وأبو اسحق الفزاري وابن راهويه ومحمد بن مقاتل المروزي وعبدان بن عثمان وحبان بن موسى. ومن المعلوم أن البخاري قد أخذ عن بعض هؤلاء وعن ابن المبارك نفسه، وما اعتاد البخاري على الروايات المسموعة عنه إلا دليل على ثقة أهل الحديث فيه وعلى عدم شكهم فيما يرويه رحمه الله.

وقد ذاعت كثير من الأحاديث التي رواها بنفسه عن عدد من الأئمة فهو قد روى عن الثوري وعن شعبة وعن الأوزاعي وعن مالك رضي الله عنه بل إن مالكا كان يراه جديرا بالاحترام والتقدير لما يتصف به من الحزم والهيبة وحسن الأخلاق، ولما يتحلى به من آداب العلم وتواضع العلماء، فقد ذكر يحيى بن يحيى الليثي المصمودي أن مالكا قد تزحزح في مجلسه احتراما لابن المبارك وأنه لم يتزحزح لأحد سواه وقد أثنى عليه ثناء جميلا وقال للحاضرين في مجلسه، هذا ابن المبادك فقيه خراسان تقديرا له وإعظاما (11).

لم يكتسب ابن المبارك شهرته عن طريق التحري العلمي فقط، وإنما اكتسبها أيضا عن طريق سلوكه الالتزامي الذي جعله يحرص على نفع الناس بعلمه وماله، فهو رجل حريص على أن تكون السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين وسيرة أعلام الإسلام من العلماء وغيرهم متجسدة في أعين الناس تسجل لهم في الكتب ليقتدوا بها ولتمارس أمامهم في السلوك البشري ليعلموا أنها ليست خيالا أو وهما وإنما هي حقيقة مشخصة يستطيع الناس تصورها والاقتداء بها، ولهذا نرى عددا من الذين يذكرونه يتعمدون ذكره في المواقف الأخلاقية المثالية ليكون هو وما يرويه مثالا عمليا لحقيقة المسلم المرغوب فيه.

---

8) فجر الإسلام لأحمد أمين ص 212.
9) ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ج 2 ص 64.
10) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني الجزء الأول ص 151.
11) تهذيب التهذيب ج 5 ص 386.

لقد تعرض لذكره ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار كما تعرض له الجاحظ في كتابه البيان والتبيين إلا أن طريقة ابن قتيبة كانت تسير وفق خطة المحدثين في حين أن الجاحظ كان يسير على نسق الأدباء الإخباريين.

كان ابن قتيبة يروي عنه بواسطة حسين بن حسن المروزي ومن جملة ما رواه حديث نبوي يعد من أهم الأحاديث الزجرية الدافعة إلى الأخذ بيد المنحرفين وإلى الحث على توجيههم التوجيه السديد، فإن المسلمين يمثلون وحدة متآزرة وإن أي خلل يصيب بعضهم فإن تبعاته تنصب على سائرهم ولهذا قال ابن قتيبة (12) : «حدثني حسين بن حسن المروزي قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال أخبرني الأجلح عن الشعبي قال : سمعت النعمان بن بشير يقول على المنبر : يأيها الناس خذوا على أيدي سفهائكم فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن قوما ركبوا البحر في سفينة واقتسموها فأصاب كل واحد منهم مكان فأخذ رجل منهم الفأس فنقر مكانه فقالوا ما تصنع ؟ فقال مكاني أصنع به ما شئت فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا وإن تركوه غرقوا وغرق».

وقد ورد هذا الحديث بألفاظ أخرى تؤدي نفس المعنى في كتاب البيان والتبين وهو مروي عن طريق ابن المبارك أيضا (13) وكان الجاحظ ممن يتعمد الإعجاب بهذا الرجل وينقل عنه من حين لآخر في كتابه فقد ذكر قول أحد أصحاب بن لهيعة حين قال : «ما رأيت أحسن أدبا من عبد الله بن المبارك والمعافي بن عمران» (14).

والواقع يجعلنا نشعر بإن اختيارات ابن المبارك كانت بعيدة الأثر في تهذيب النفوس، مصورة لأبعاد الزهد مرغبة في عدم الانسياق مع الرفاهية التي قد تميت القلب وقد تدفع الإنسان إلى المعاصي فقد نقل الجاحظ في الجزء الثالث من كتاب البيان والتبين صفحة 111 أن ابن المبارك قال : «كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح بن عبد الله الحكمي إن استطعت أن تدع مما أحل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين ما حرم الله عليك فافعل فإن من استوعب الحلال كله تاقت نفسه إلى الحرام.

وهذه الحكمة دفعتني كثيرا إلى التأمل في حقيقة الأحكام التي تعتري المأمورات والمنهيات فقد كنت أرى عددا من الناس يتساهلون في ارتكاب المكروهات واجتناب المندوبات فكنت لا أبالي بما يفعلون ما داموا لم يرتكبوا حراما ولم يهملوا واجبا فإذا بي بعد التأمل فيما نقله ابن المبارك من كلام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أصبحت أرى أن الانزلاق مع المباحات إلى أبعد الحدود قد يحبب اللذة حتى تصير مقربة إلى النفس مستهواة إليها فلا يستطيع الإنسان كبح نفسه وإكراهها على الطاعة ولهذا كانت تلك الأقسام الأصولية التي يتعرض إليها الفقهاء معينة على معرفة الحدود التي يقف دونها الإنسان ليلا يسقط صريع هواه.

والظاهر أن كثيرا من الأحاديث المنقولة في الترغيب والترهيب وأن كثيرا من الأخبار المتعلقة بذلك حينما تنسب إلى ابن المبارك تكون مأخوذة من كتاب الزهد والرقائق الذي قيض الله له أن يبقى موجودا بخزانة القرويين إلى الآن.

هذا وقد أخبرني الدكتور العراقي السيد عبد الله محمد الجيوري الأستاذ بكلية الأدب بمكناس أنه اطلع على نسخة مطبوعة من هذا الكتاب وقد أشار إليها في مراجع كتابه حول الإمام الأوزاعي وذكر أنها نشرت بالهند سنة 1966 م بعناية مجلس إحياء المعارف ولم تتح لي الفرصة للاطلاع عليها فأعرف على أي مخطوطة اعتمد ناشروها. ومع ذلك فما على الباحثين إلا أن يحرصوا على دراسة النسخة الموجودة بالقرويين ليقابلوها بغيرها وليخرجوها إخراجا علميا وليربطوا بينها وبين النسخة المطبوعة وليوازنوا بين أقوال الذين عدلوا ابن المبارك وبين أولئك الذين نسبوا إلى كتابه بعض الأحاديث الواهية فالتراث الإسلامي مازال في حاجة إلى الدراسة والنقد وما على المهتمين به إلا أن يشمروا عن سواعدهم ليحيوه وليجعلوه

12) عيون الأخبار الجزء الثاني صفحة 12
13) البيان والتبيين للجاحظ تحقيق السندوبي الجزء الثاني صفحة 20.
14) نفس المصدر الجزء الثاني صفحة 257.

مثار الدرس والتمحيص فهم بذلك سيساهمون في إحياء مجد غبر وفي إرجاع بصيص من النور الحضاري الذي ورثناه عن أجدادنا المسلمين في كل مكان أولئك الأجداد الذين لم تكن أهدافهم حينما ألفوا كتبهم أهدافا إقليمية وإنما كانت أهدافا إسلامية كبرى بل وإنسانية عامة. ويكفينا فخرا أن هذا الرجل الذي نتحدث عنه والذي ساهم بالتأليف في ميدان الحديث والتاريخ والفقه كان من مواليد مرو سنة ثمان وعشرة ومائة وقد توفي بهيت منصرفا من الغزو سنة إحدى وثمانين (15) ومائة فجمع في حياته بين الحرص على جمع العلم وعلى الالتزام بكل ما يمكنه أن يرفع من شأن الأمة الإسلامية عملا وجهادا، ولم يكن من وراء ذلك يطلب جاها أو مالا فهو الذي يقول : أفضل الزهد أخفاه، ولكنه وإن كان حريصا على الخمول فإن الله تبارك وتعالى أراد له الظهور في هذه الحياة بسبب مواقفه الأخلاقية وبسبب اجتهاده العلمي، فهو الذي يعد من الرواد السباقين إلى تدوين الحديث أثناء القرن الثاني الهجري بحيث يذكر مع الأوزاعي ومالك وحماد بن سلمة ومعمر وابن جريج، كل واحد من هؤلاء يمثل إقليما، فالأوزاعي بالشام، ومالك بالمدينة، وحماد بن سلمة بالبصرة، ومعمر باليمن، وابن جريج بمكة، وابن المبارك بخراسان.

إن ابن المبارك ملأ قلوب الناس بحبه وجعلهم ينظرون إليه بنظرة الإعجاب فهو العالم الزاهد الغازي في سبيل الله الذي يتصف بأسمى الصفات وأكرمها والذي قال فيه سفيان بن عيينة : «نظرت في أمر الصحابة فما رأيت لهم فضلا على ابن المبارك إلا بصحبتهم النبي ﷺ وغزوهم معه (16) وكأنه كان يعني بذلك أن الصفات التي كانت تتجلى في الصحابة قد تجلت فيه أيضا فهو قد كان حريصا على الصدق في الرواية وعلى الالتزام بمحاسن الأخلاق وعلى الاجتهاد في إعلاء كلمة الله بمشاركته في الغزو ففضلهم إنما يتجلى في كونهم قاموا بهذه الأعمال وهم في صحبة الرسول عليه السلام.

وعلى كل حال فإن الاطلاع على كتاب ألفه هذا الرجل سيكون متعة للنفس وطهارة للروح وحافزا على التأمل في الثقافة الإسلامية في عهدها الأول وستربطنا الروايات التي روى بها بالنشاط الفكري في المغرب والأندلس وبالالتحام الفكري الذي كان يصل المغرب بالمشرق، والمشرق بالمغرب، ذلك الالتحام الذي نرجو له الاستمرارية إلى الأبد وما ذلك على الله ببعيد.

فاس **محمد بن عبد العزيز الدباغ**

15) فهرست ابن النديم صفحة 319.
16) تهذيب التهذيب الجزء الخامس صفحة 385.

• مخطوطة نادرة

• • في الحديث الخاص الذي حرره الدكتور عبد الهادي التازي عن اهتمامات سمو الأمير مولاي عبد الله ـ رحمه الله ـ أنه إلى جانب هواياته الرياضية من ركوب الخيل والقنص بالصقر والكرة الخ... هناك جانب الاهتمام بالمخطوطات التراثية، وفي هذا الصدد ذكر د. التازي أن خزانة سمو الأمير تحتضن عددا من المخطوطات النادرة، منها وثيقة وحيدة في العالم، ويتعلق الأمر بعقد تملك من ستة أمتار وثلاثين سنتيمترا في الطول، على عرض أربعين سنتيما يحتوي على 48 ألف كلمة، ويرجع لتاريخ (1117 هـ ـ 1744 م) وهو يتعلق بالمبادرة الحاسمة التي قام بها السلطان مولاي إسماعيل لتطويق التجارة في العبيد تمهيدا للقضاء على الرق

مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي



● تأليف : الأستاذ عبد الهادي الحسيسن
● عرض وتقديم : الأستاذ محمد بركار

صدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وتحت إشراف اللجنة المشتركة لاحياء التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية بتاريخ : 1403 هـ ـ 1983 م كتاب : «مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي».

(554 ـ 595 هـ) ـ (1159 ـ 1198 م)

لمؤلفه : الأستاذ السيد عبد الهادي الحسين الأستاذ بكلية أصول الدين بتطوان.

والكتاب في أصله عبارة عن رسالة تقدم بها المؤلف لنيل دبلوم الدراسات العليا في العلوم الإسلامية من دار الحديث الحسنية بالرباط سنة 1980 م.

جاء في تصدير هذا الكتاب من طرف وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية : «والكتاب يعد بحق مظهرا من مظاهر النهضة الحديثية، عالج فيه مؤلفه بذكاء وروية وصدق، العصر الموحدي والأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية السائدة في هذا العصر...» ص : 7 من الكتاب.

وعن أهمية الكتاب في موضوعه ومضمونه جاء لمقدمه الدكتور السيد عبد الهادي التازي :

«إن الأستاذ الحسين درس في كتابه هذا أهم فترة من فترات تاريخ نهضة المغرب العلمية، وخصوصا الحديثية فأزاح عنها الغطاء وأعطاها ما تستحق من البحث والدراسة حسب الإمكان» ص : 10 من جـ : 1.

ثم يضيف بعد ذلك مبرزا لقيمة الكتاب العلمية والثقافية ومنوها بمجهودات الباحث :

«وإني إذ أهنىء الأستاذ الباحث عبد الهادي الحسين على ما بذله من المجهود العلمي وعلى ما قدمه للمكتبة المغربية من دراسته القيمة أتمنى أن يجد المهتمون بهذا الموضوع من تاريخ المغرب ما يساعدهم على استجلاء الحقيقة والوصول إلى الهدف المنشود والله ولي التوفيق» (جـ : 1 ص : 10).

والكتاب موضوع العرض يقع في جزأين : يتضمن الجزء الأول منهما :

تصديرا لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وتقديما للدكتور : عبد الهادي التازي ـ المشار اليهما سابقا ـ ومقدمة للمؤلف، ومدخلا تاريخيا للعصر الموحدي، فلمحة تاريخية عن الوضع السياسي والإجتماعي والثقافي خلال هذه الفترة. ثم يشتمل هذا الجزء بعد ذلك على بابين :

أولهما يتعلق بيعقوب المنصور الموحدي.
وثانيهما يتعلق بالحديث عن النهضة الحديثية في عصره.

في الباب الأول منهما تناول المؤلف في فصول ثلاثة على التوالي : حياة يعقوب المنصور الموحدي والجانب الثقافي لهذا الملك العظيم، والحركة العلمية في عهده، وموقفه من المهدوية والظاهرية وعلم الفروع وموقف فقهاء المالكية من ذلك.

وهكذا فإن الفصل الأول من الباب يتعلق بحياة يعقوب المنصور الموحدي ـ الذي قال عنه بأنه ولد بمراكش سنة 554 هـ ـ 1159 م وتوفي بها كذلك سنة 595 هـ ـ 1199 م. وبالجانب الثقافي لهذا الملك العظيم الذي كان ـ كما ينقل المؤلف ـ عالما متضلعا في اللغة، مشاركا في كثير من العلوم، يجيد حفظ القرآن، ويحفظ متون الأحاديث ويتقنها، وكان يتكلم في الفقه كلاما بليغا، وكان فقهاء وقته يرجعون إليه في الفتوى، وله فتاوى مجموعة... الخ. (جـ : 1 ص : 62).

ويتعلق الفصل الثاني بالحركة العلمية في عهد يعقوب المنصور الموحدي التي تجلت أساسا في :

علم القراءات، وعلم التفسير، والعلوم اللسانية : كاللغة والنحو والأدب والبيان والعروض، والعلوم الفكرية : كعلم الكلام والأصول والفقه والسيرة النبوية والتصوف والفلسفة والرياضيات والتنجيم والطب كما هو مبين بتفصيل في محله.

ولم يفت الباحث أن يشير في هذا الفصل إلى أكبر رجالات العلم والمعرفة في هذا العصر، وإلى أهم المؤلفات التي كانت معروفة خلال هذه الفترة في مختلف العلوم والفنون وكان لها الصدى العميق في نفوس العالمين والمتعلمين.

أما في الفصل الثالث فقد تعرض المؤلف فيه لموقف السلطان يعقوب المنصور الموحدي من المهدوية والظاهرية وعلم الفروع وموقف فقهاء المالكية من ذلك.

وهي مواقف كانت لها أهميتها من حيث آثارها البعيدة على الحركة العلمية والثقافية سواء خلال هذه الفترة أو فيما بعدها من تاريخ المغرب الثقافي والحضاري بصفة عامة.

فعن موقفه من المهدوية التي أقامها المهدي ابن تومرت على : عصمة الإمام، وعلمه بالغيب، يقول المؤلف : «استمر الأمر على ذلك - أي على تعظيم المهدي ابن تومرت ووصفه بالعصمة - إلى زمن الخليفة يعقوب المنصور الذي لا يرى رأي الموحدين في عصمة ابن تومرت، ولم يكن من المومنين بإمامته، وكان يستخف بعقول من يقول بها» (جـ : 1 ص : 169).

ولكنه بالرغم من ذلك فإن خلافته - كما كان الشأن عند سلفه - كانت تنضوي تحت لواء «الدعوة المهدوية»، على أن ذلك لم يكن منه سوى مجرد مراسيم وشكليات يقصد بها جمع كلمة الموحدين تحت شعار موحد لتدعيم أركان الدولة وحمايتها من أخطار الفتنة والتفرقة (جـ : 1، ص : 170).

وبقي الأمر على حاله إلى زمن ولده ادريس المأمون الذي أجهز على العقيدة المهدوية بصفة نهائية ووضع حدا لها حيث كتب إلى الناس قائلا : «... فتلك بدعة قد أزلناها وأسقطنا اسمه - أي المهدي بن تومرت - ولم تثبت له عصمة فلذلك أزلنا عنه رسمه فيمحى ويسقط ولا يثبت.. الخ»، ثم يشير إلى أن أباه يعقوب المنصور كان ذلك عزمه فيقول : «وقد كان سيدنا المنصور هم أن يصدع بما الآن صدعنا، وأن يرفع عن الأمة الحزن الذي رفعنا، فلم يساعده لذلك أمله، ولا أجله لزواله أجله.. الخ»، (جـ : 2، ص : 172). إلا أن المؤلف يحاول في آخر المطاف بعد اثباته لتبرأ بعض خلفاء الموحدين من هذه العقيدة وبعد مناقشته لمهدوية ابن تومرت أشيعية هي أم غير شيعية ؟ أن يجعل منها دعوة سنية محضة لا يرى فيها أدنى شائبة لا من الشيعة ولا من غيرها من الفرق الأخرى اعتمادا على دعاء كان يدعو به ابن تومرت - كما نقله عن ابن القطان - وما المهدوية في نظره سوى وسيلة اعتمدها المهدي ابن تومرت لتحقيق هدفه السياسي الذي كان يطمح إليه» (جـ : 1، ص : 175).

أما عن موقفه من الظاهرية فقال عنه المؤلف بعد استقصاء كل الآراء في الموضوع ومناقشتها مناقشة علمية دقيقة ومركزة : «ولهذا يتبين لي - حسبما وصل إليه بحثي - أن يعقوب المنصور الموحدي لم يكن ظاهريا داوديا، ولا ظاهريا حزميا، وإنما كان ظاهريا في شكل آخر يعمل بظاهر كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام. فهو يجتهد لنفسه كباقي المجتهدين لأن مادة الاجتهاد موجودة بين يديه، كتاب الله وهاته المصنفات الحديثة المتعددة بهذا أمر العلماء أن يرجعوا إليها ويستنبطوا منها شأنهم في ذلك شأن باقي العلماء المجتهدين ويكفيهم ما كفاهم» (جـ : 1، ص : 199). ثم يعمم ذلك بالنسبة للموحدين كلهم فيقول :

«إن دعوة الموحدين وفي مقدمتهم الخليفة يعقوب المنصور كانت للاجتهاد المطلق ونبذ التقليد واستنكاره والرجوع إلى مصادر التشريع الإسلامي..الخ» (جـ : 1 ص : 200).

ويمكنني بهذه المناسبة أن أتساءل : هلا اعتبرنا دعوة يعقوب المنصور الموحدي هذه دعوة إصلاحية سلفية سابقة في إبانها للدعوة الإصلاحية التي جاءت فيما بعد على يد كل من الإمام الشيخ ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، ثم من بعدهما على يد محمد بن عبد الوهاب في الحجاز، وفي عصر النهضة على يد كل من : جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضى... وغيرهم من المصلحين والسلفيين سواء في المشرق أو في المغرب الذين نادوا بالرجوع إلى الإسلام في ينابيعه الأولى أي إلى الكتاب والسنة ؟؟.

وكما كانت مواقف المنصور الموحدي من المهدوية والظاهرية واضحة، كان موقفه أيضا من علوم الفروع وفقهاء المالكية واضحا كذلك. ويحدثنا المؤلف عن هذا الموقف فيقول :

«لقد كان للمنصور موقف خاص من الناحية الدينية يمكن أن يوصف بأنه ثورة على المذهب المالكي في الدولة الموحدية، فهو أولا قد طارد علم الفروع، وأمر بإحراق كتب المذهب في سائر البلاد، - وإن كانت عملية الإحراق قد بدأت ببلاد الغرب الإسلامي قبل هذا التاريخ بقرون كما في الصفحة 206 - كما أمر الناس أيضا بترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض فيه، والعمل بظاهر القرآن والسنة. غير أن المذهب المالكي كان متغلغلا في المجتمع المغربي وله جذور عميقة في نفوس المغاربة، فلم يكن من السهل أن يتخلى أصحابه عن مذهبهم أمام هذه التهديدات وأنواع المحن» (جـ : 1 ص : 209).

وعن رد فقهاء المالكية وموقفهم من ثورة هذا الملك ضدهم وضد المالكية في فروعها الفقهية يقول المؤلف : «إن الفقهاء المالكية لم ينهزموا أمام تحديات المنصور الموحدي رغم ما أصابهم من أنواع العذاب من أجل التخلي عن مذهبهم المالكي، فلم يضعفوا ولم يستسلموا بل بقوا صامدين متجلدين إلى أن انتصروا أخيرا النصر النهائي في عهد المرينيين ومن بعدهم إلى الآن. فانمحت دعوة المنصور وتغلب مذهب مالك آخر الأمر وكتب النصر له ولأصحابه، وأضحى هو المذهب السائد الرسمي للمغرب إلى يومنا هذا» (جـ : 1 ص : 210).

وتجدر الإشارة إلى أن موقف يعقوب المنصور كان ضد المالكية كمذهب لا ضد مالك. وفي الباب الثاني المتعلق بالنهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي تعرض فيه المؤلف في فصلين : إلى دخول الحديث إلى المغرب والأندلس، وإلى الكتب الحديثية التي كانت تدرس زمن المنصور الموحدي وإلى مراتب أهل الحديث، وإلى مؤسسي مدرسة الحديث بالغرب الإسلامي في الفصل الأول.

فذكر من المحدثين والفقهاء في هذا الفصل : محمد بن وضاح (202 - 277 هـ / 817 - 890 م) العالم المحدث الذي كان أول من أدخل علم الحديث بمعناه المتعارف عليه لدى علماء الحديث إلى بلاد الأندلس فكان يجتمع عليه الناس لسماع الحديث ويتكلم على الأسانيد» (جـ : 1 ص : 232).

والمحدث الكبير بقي بن مخلد القرطبي (201 - 276 هـ / 816 - 889 م).

وقاسم بن أصبغ البياني القرطبي (244 - 340 هـ / 858 - 952 م). وتلميذه خالد بن سعيد القرطبي (ت سنة 352 هـ / 963 م)، الذي كان إماما في الحديث حافظا له بصيرا بعلله عالما بطرقه مقدما فيه على أهل وقته.

وأحمد بن سعيد بن حزم الصدفي من أهل قرطبة (284 - 350 هـ / 897 - 961 م) وأبا عمر الطلمنكي (340 - 429 هـ / 951 - 1037 م) ويونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث (ت سنة 429 هـ / 1037 م) وهذان الأخيران - كما يقول المؤلف - هما استاذا الجيل كله جيل : ابن حزم الظاهري، وأبي الوليد الباجي، وعلي الجياني وأبي عبد الله محمد بن عتاب وغيرهم الذين سيسيرون بالدراسة الحديثية إلى الأمام على الطريقة التي خطط معالمها محمد بن وضاح وبقي بن مخلد (جـ : 1 ص : 241) وبعد أولئك نقف على علماء ومحدثين آخرين أمثال : أبي عمر يوسف بن عبد البر (368 - 463 هـ / 978 - 1071 م) صاحب التآليف العديدة والتصانيف المفيدة يكفي أن يكون «التمهيد» واحدا منها للدلالة على عظمة الرجل وعلو كعبه في ميدان العلم والمعرفة، وخاصة في الحديث رواية ودراية، وفي الفقه. وأبي الوليد سليمان الباجي (403 - 474 هـ / 1012 - 1081 م) والحافظ أبي علي الحسين بن محمد الغساني الجياني (427 - 498 هـ)، والحافظ أبي علي حسين الصدفي المحدث الشهير (454 / 514 هـ / 1062 - 1120 م)، ثم ميمون اللمتوني (ت 530 هـ/1135 م)، وداود بن عمر اللمتوني والقاضي أبي بكر ابن العربي المعافري (468 - 543 هـ / 1083 - 1149 م)... إلى غيرهم من العلماء والمحدثين.

وبعد ذلك تعرض المؤلف في هذا الفصل أيضا لذكر اهتمام المرابطين بالحديث النبوي الشريف محاورا صاحب المعجب عبد الواحد المراكشي في زعمه بأن المرابطين كانوا لا يهتمون بالحديث النبوي الشريف اهتمامهم بعلم الفروع. ومما نقله المؤلف في هذا الصدد قول صاحب المعجب : «ولم

يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك. فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ. فلم يكن من مشاهير ذلك الزمان من يعتني بهما كل الاعتناء» (جـ : 1 ص : 260).

ثم يرد المؤلف على هــــذا الـزعم في نظره قائلا :

«الواقع أنه ظهر في هذا العهد (المرابطي) من أعلام المحدثين جمهرة كبيرة بلغ بعضهم في ميدانه أرفع مكانة وأعظم تقدير حتى ظهر اعتناء بالحديث النبوي الشريف تمشيا مع الروح الإصلاحية ومكرمة للسنة النبوية ونشرا للتعاليم الإسلامية مما قامت عليه دولتهم بتوجيه من مؤسسها عبد الله بن ياسين الذي طبع رجالاتها بالطابع النير وجعل منهم أبطال الجهاد ورواة الحديث في آن واحد، الأمر الذي جعل قـاداتهـا يعتنـون برجـال الحـديث ويروون عنهم ويسمعون منهم ويستجيزونهم، مما يدل دلالة واضحة على ما طبعوا عليه من ولع بالحديث رغبة أكيدة منهم في الحصول على السند العالي والأخذ عن كبار المحدثين» (جـ : 1، ص : 260).

وفي الفصل الثاني تعرض المؤلف لأهم الكتب التي كـانت تـدرس زمن الخليفـة يعقوب المنصور الموحدي... فذكر من بينها : كتاب صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وموطأ الإمام مـالـك الـذي أولاه الموحدون اهتماما كبيرا كما أولاه المؤلف أيضا نفس الاهتمـام عندمـا تعرض لـذكره وذكر أول من أدخله إلى بلاد الغرب الإسلامي، ثم كتاب سنن أبي داود، وسنن النسـائي، وموطـأ المهـدي بن تومرت، وكتـاب الترغيب في الصلاة ليعقوب المنصور الموحدي.

ثم خلص بعد ذلك للحديث عن أمر يعقوب المنصور بقراءة البسملة في الصلاة على خلاف مـا عليه المـالكية وذلك من باب فتح بـاب الاجتهاد للعلماء في هذا العصر ـ كما هو رأي المؤلف ـ جاء له في هذا المجـال : «وبمـا أن يعقوب المنصور الموحدي فتح باب الاجتهاد للعلماء بعدما كان مغلقا فيما مضى فكل عالم مقتـدر لـه الحق أن يجتهـد في كل المسـائل العلمية حسب علمه ومقدرته، فهاهي البسملة يتعرض لها الشيخ السهيلي في «روض الأنف» ويرجح في شأنها بعض المـذاهب على المـذاهب الأخرى. وذلك لأن الدولة المنصورية الموحدية أعطت حرية القول للعلماء فلا يتقيدون بأي مذهب من المذاهب بمـا فيه المـذهب المـالكي كمـا كـان الشأن من قبل. ومعلوم أن المالكية لا يقرأون البسملة مع الفـاتحة في الصلاة سواء في السر أو الجهر بل يكرهون قراءتهـا، أي أنهم لا يقـولـون بقراءتهـا... (جـ : 1 ص : 300).

وعن إقبال العلماء على كتب الحديث في هذا العصر دراسـة وشرحـا وتحليلا يقول : «أقبل العلماء على هاته الكتب الحديثية شرحـا وتحليلا فـانتشرت بين الناس وأصبح القضاة والمفتون يفتون ويحكمون بها تنفيذا لأمر الخليفة يعقوب المنصور الموحدي الـذي جعل مذهب المحدثين هو مذهب الـدولـة الموحدية الرسمي» (جـ : 1 ص : 301).

أمـا الجزء الثـاني من الكتـاب وهو يتـألف من فصلين : الثالث والرابع كانا في الحقيقة عبارة عن تتمة للباب الثاني من الكتاب قبل أن يقسمه مؤلفه إلى جزأين.

في هذين الفصلين : الثالث والرابع يتناول في أولهمـا المؤلف أعلام الحـديث في عهـد يعقـوب المنصور الموحدي فيذكر منهم :

1 ـ العلماء المدعوين لنشر الحديث بمراكش : كأبي عبد الله محمد ابن ابراهيم بن خلف المعروف بـابن الفخـار المـالقي (511 ـ 590 هـ / 1117 ـ 1193 م)، وأبي محمد عبد اللـه الحجري (505 ـ 591 هـ / 1111 ـ 1194 م)، وأبي العباس أحمد بن سلمة الأنصاري المعروف بابن الصقيل العدل الإمام في الحديث كما يقول فيه ابن القطان وقد توفي سنة (598 هـ/ 1201 م)، وأبي الفضل محمد بن علي بن طاهر المعروف بابن محشوة البجائي نسبة إلى مدينة بجاية بـالجزائر (540 ـ 598 هـ / 1145 ـ 1201 م)، والقـاضي أبي مروان محمـد بن أحمـد اللخمي البـاجي (560 ـ 635 هـ / 1164 ـ 1282 م)، وأبي جعفر أحمد بن عتيق الذهبي البلنسي (554 ـ 601 هـ / 1159 ـ 1204 م).

مع ذكر مـا كـان للمنصور الموحدي من فضل في تشييد معهد للحديث بمراكش (بيت الطلبة).

2 ـ الأطباء والصيادلة المحدثين :

كـالطبيب أبي بكر محمد بن عبد الملك ابن زهر الحفيد (507 ـ 595 هـ)، وأبي الوليد محمد ابن أحمـد بن رشـد الحفيـد الفيلسـوف (520 هـ ـ 1126 م/595 هـ ـ 1198 م)، وأبي العبـاس أحمـد النباتي الاشبيلي المعروف بـابن الرومية وبالعشاب 561 هـ ـ 1165 م/637 هـ ـ 1239 م)، وأبي علي حسن بن أحمد البكري الانبوني الذي كـان يعرف «بالزرقالة»، وأبي جعفر بن حسن القضاعي..الخ.

ومنهم كذلـك : محمد بن بكر الفهري البلنسي (ت سنة 618 هـ 1221 م)، ومحمـد بن علي القرشي الـزهري الاشبيلي (ت 623 هـ ـ 1226 م)... وغيرهم كثير.

3 ـ العلماء المحدثين الذين عرفوا بالحديث ولم يصلنا تراثهم منهم :

أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة الخـزرجي الأنصـاري القرطبي (519 ـ 582 هـ/1125 ـ 1180 م) وأبو القاسم عبد الرحمان بن محمـد بن عبـد اللـه الأنصـاري (504 ـ 584 هـ/1110 ـ 1188 م) كـان يعرف بـابن حبيش، وأبـو الحسن علي بن أحمـد بن كـوثر المحـاربي الغرناطي ولد سنـة 529 هـ وتوفي سنـة 589 هـ، وأبـو بكر يحيى بن خلف بن فرج بن صـاف المعروف بـابن المواق (ت 599 هـ/ 1202 م) وأبـو محمـد عبـد الجليـل الأوسي الأنصـاري القصري (ت 608 هـ/1211 م) وذكر أن له تآليف منها ما هو موجودا بالخزانة الملكية بالرباط رغم تصنيفه في هذه الفئة (جـ : 2 ص : 35)، وأبو عبد الله محمد بن عبـد اللـه بن طـاهر الحسيني الصقلي الفـاسي (ت 609 هـ/ 1212 م)، وأبو عمر أحمد بن هارون بن عات النفزي من أهل شاطبة (542 ـ 608 هـ/1147 ـ 1212 م) وأبو عبد الله محمد التجيبي المرسي (540 ـ 610 هـ/ 1145 ـ 1213 م) وأبـو محمـد عبـد اللـه بن الحسن بن أحمد بن عبد الله الأنصاري المعروف بابن القرطبي (556 هـ/1160 م ـ 1214 م)، وأبـو محمـد عبد الله بن حوط الله الأنصاري الحارثي (549 ـ 612 هـ/1154 ـ 1215 م)، وأبو محمد عبد الواحد بن ابراهيم بن مفرج الغافقي المعروف بـالملاحي (549 ـ 619 هـ/1154 ـ 1322 م) من أهل غرنـاطـة، وأبـو سليمان داود بن سليمان بن حوط اللـه الأنصـاري الحـــارثي (552 ـ 621 هـ/1157 ـ 1224 م)، وأبـو القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمان بن بقي بن مخلـد القرطبي (537 ـ 625 هـ/1142 ـ 1227 م)، وأبـو الحسن علي بن أحمـــد بن الحسن بن ابراهيم الحرالي المراكشي (ت 637 هـ 1239 م) العـــالم الزاهد، وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن خلف بن صاف المعروف بابن المواق من أهل مراكش المولد سنـة 583 هـ 1187 م، ومحمـــد بن سعيـد الطراز الأنصـاري الغرنـاطي من أهـل غرنـاطـة (588 ـ 645 هـ/ 1192 ـ 1246 م)، وأبو اسحاق ابراهيم ابن محمد بن أحمد بن هارون المرادي الفاسي الحافظ المعروف بابن الكماد (ت سنة 663 هـ/1264 م).

4 ـ العلمـاء المحـدثين الـذين وصلت إلينـا آثارهم : منهم : أبو زيد عبد الرحمان بن عبد الله الخثعمي السهيلي الإمام (508 هـ ـ 581 أو 583 هـ) صـاحب تـأليف «الروض الأنف». والسهيلي هـذا محدث حافظ، عالم بالتفسير والأخبار والأنساب، فقيه أصولي مجتهد... الخ). (جـ : 2 ص : 60)، وأبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمان الأزدي الاشبيلي المعروف بـــابن الخراط (510 ـ 582 هـ/1116 ـ 1186 م) من أهم كتبه «الأحكام الشرعية»، وأبو بكر محمـد بن عبـد اللـه بن يحيى بن الجـد الفهري الاشبيلي الحافظ (496 ـ 586 هـ/1102 ـ 1190 م)، وأبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الفاسي المعروف بابن القطان (562 ـ 628 هـ/1166 ـ 1230 م) قيل عنه بأنه كان «من أبصر الناس بصناعة الحديث وعلومه، وأحفظهم لرجاله، وأشدهم عناية بـالرواية وكـان بصيرا بطرق الحديث، عاكفا على خدمته، ناقدا مميزا صحيحه من سقيمه، مثابرا على التلبس بـالعلم وتقييـده، ذا حـظ وفير من معرفـة الأدب نثره وشعره» (جـ : 2 ص : 93)، وأبو الخطاب

عمر بن الحسن بن علي الكلبي المحدث الحافظ اللغوي الأديب المعروف بـابن دحية الكلبي (ت 633 هـ 1135 م) وأبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي البلنسي (565 ـ 634 هـ/ 1169 ـ 1236 م)...

وفي الفصل الرابع يحمل المؤلف حديثه عن أثر النهضة الحديثية بعد يعقوب المنصور الموحدي فيقول : «وباختفاء يعقوب المنصور الموحدي من الميدان السياسي سنة 595هـ ـ 1198 م. أضحت الحركة الحديثية تتعثر في طريقها، وصارت تلك الجذوة الوضاءة تخفت شيئا فشيئا. وبزوال الدولة الموحدية وانقراضها على يد المرينيين توقفت النهضة الحديثية المباركة، ورجع العمل المباشر بحديث رسول الله ﷺ، وضرب على يد العلماء المحدثين، وأصبح المغرب يرجع إلى الوراء بعدما تقدم إلى الأمام وتنفس الصعداء من الجحود، ولما تولى يعقوب المريني (ت 685 هـ) مملكة المغرب طلب منه أهل المغرب الرجوع في القضاء إلى مذهب مالك فأمر قضاة المغرب بذلك وترك العمل بالأحاديث» (جـ 2 ص : 133) ورغم ذلك ـ كما يضيف المؤلف ـ «لم يغمط علم الحديث رواية ودراية في هاته الفترة، بل بقي آثار تلك النهضة الحديثية الموحدية تتجلى آثارها في بعض العلماء» (جـ : 2 ص : 134)، وذكر من بينهم :

أبا فارس عبد العزيز الجزيري السبتي، وابن الشاط السبتي، وابن عبد الملك المراكشي وابن رشيد السبتي، وأبا محمد الكرطوسي، ويحيى السراج وعبد المهيمن الحضرمي السبتي.

بعد ذلك يتساءل المؤلف في آخر صفحات الكتاب : هل تحققت دعوة يعقوب المنصور الموحدي إلى العمل بالحديث النبوي الشريف ؟ وما هي الآثار التي تركتها هاته الدعوة في الوسط العلمي آنذاك في المغرب الإسلامي ؟».

فأجاب بأن «هذه الدعوة لم يستجب لها أغلبية الفقهاء المالكية بل قوبلت من جلهم بالرفض والتمرد مما جعل يعقوب المنصور يعاقب المخالفين منهم أحيانا بالتهديد، ومرة بالتعزير، وتارة بالسجن، والإحراق أخيرا لكتب المذهب المالكي في الساحات العمومية حتى لا يبقى العمل جاريا على مقتضاها».

«فدعوته ـ كما يضيف المؤلف ـ مع الأسف ـ لم يستمر بها العمل زمنا طويلا ولم تنجح وذلك لعدة أسباب» (جـ : 2 ص : 142).

ذكر المؤلف منها :

1 إن دعوة الموحدين لمذهبهم كانت تحت الضغط والإكراه وكان تخلي المالكية عن مذهبهم إلزاميا لا عن الاختيار وكل ما كان من هذا القبيل يسرع إليه الزوال.

2 تشبث الموحدين بعصمة المهدي ابن تومرت وبإمامته التي كان لها أثرها السيء بالنسبة لجل علماء المغرب السنيين الذين اعتبروها بدعة من البدع الضالة، حتى أن يعقوب المنصور نفسه تشكك فيها فيما بعد وكان يقول : أين الإمام، أين الإمام ؟ تهكما وأجهز عليها بعد ذلك ولده المأمون ـ كما تقدم ـ فتنفس فقهاء المالكية بذلك الصعداء.

3 موت يعقوب المنصور الذي خلف فراغا كبيرا في الدولة حيث كان يخشاه فقهاء المالكية ويهابون شخصيته القوية. وبموته بدأت تتقلص دعوته إلى العمل بالسنة شيئا فشيئا، وبدأ الفقهاء يترددون نشاطهم وينشرون مذهبهم المالكي من جديد.

4 وقعة العقاب المشؤومة (609 هـ / 1212 م) التي كان لها الأثر السيء على الدولة الموحدية والمغرب على السواء الذي صار كل شيء ينهار فيه بعد هذه الوقعة الأليمة.

5 ضعف الدولة الموحدية أخيرا والقضاء عليها نهائيا من طرف خصومها المرينيين.

6 إحياء الدولة المرينية للمذهب المالكي من جديد ورد الاعتبار إلى كتب الفروع وإلى الفقهاء المالكية كما كان الشأن من قبل في عهد المرابطين.

7 تشييد المدارس العلمية والزوايا والرباطات في مختلف جهات المغرب لنشر العلم والثقافة وكان أهم ما يدرس في هذه المؤسسات الفقه المالكي.

8 ثم إن السبب القوي في فشل دعوة يعقوب المنصور الموحدي ـ كما يرى ذلك المؤلف ـ يرجع أولا وأخيرا إلى ما كان للمذهب المالكي من جذور عريقة وعميقة في المجتمع المغربي منذ زمن بعيد من عهد صاحبه الإمام مالك أواسط القرن الثاني الهجري حيث ألفت فيه المؤلفات الكثيرة لعدد من الفقهاء والعلماء المالكية. وأن النشاط الدائب والإنتاج الوفير لمؤلفات هائلة كانت في ميادين شتى ولكنها جميعا كانت في ظل المذهب المالكي. (جـ : 2 ص : 144).

فهاته الأسباب كلها وغيرها كان لها الأثر القوي في شل حركة يعقوب المنصور الموحدي التي عمل من أجلها مدة حياته (جـ : 2 ص : 144).

وباقي الصفحات في الكتاب هي خاصة بالفهارس فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات، ثم فهرس للآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وفهرس للأبيات الشعرية. وفهارس أخرى للأعلام والكتب والشعوب والقبائل والطوائف والبلدان والأماكن... والكتاب ـ بعد هذا العرض المقتضب ـ يعتبر بحق من أهم ما كتب في الموضوع، فهو فريد من نوعه في هذا الباب، وجديد في مضمونه وجوهره، جدير بالاهتمام والدراسة لا يستغنى عنه باحث مطلع ولا مؤرخ كبير. ولا يجوز أن يغفله فقيه متضلع أو محدث بارع. وهو ضالة المتعلم الهادف لأنه كتاب جمع بين التاريخ والفقه والحديث والأدب والأخبار.. زاخر بالمعلومات وغني بالمواد. ولو استغله صاحبه ـ كما يفعل بعض المتمرسين بالتأليف ـ لكان حجمه أكبر مما هو عليه الآن.

محمد بركاز



أوّليات

للأستاذ محمّد العرائشي

أوائل علي

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، هو رابع الخلفاء الراشدين (1)، يجتمع نسبه بالنبي ﷺ في عبد المطلب الجد الأدنى، وينتسب إلى هاشم، فيقال : القرشي الهاشمي. فهو أقرب الخلفاء إلى النبي ﷺ لأنه ابن عمه لأبويه، وصهره على ابنته فاطمة الزهراء وأبو السبطين : الحسن والحسين.

وأمه فاطمة بنت أسد بن هشام بن عبد مناف (2).

آخى النبي ﷺ بينه وبين نفسه، وكان صاحب رايته في أيام البأس وقال له حين استخلفه على المدينة يوم سار إلى غزوة تبوك (3) «أنت لي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» (4) وروى عن النبي ﷺ 856 حديثا.

وورد في فضله أيضا، ما رواه مسلم في صحيحه (5) عن سعد بن أبي وقاص قال : ولما نزلت هذه الآية : «قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم» (6) دعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة، وحسنا وحسينا فقال : «اللهم هؤلاء أهلي».

وفي صحيح البخاري (7) وقال عمر : توفي رسول الله - ﷺ - وهو عنه راض.

وقال عبد الله بن عباس في شأنه : كان والله علم الهدى وكهف التقى. صاحب القبلتين فهل يوازيه أحد ؟ وأبو السبطين، فهل يقاربه بشر ؟ وزوج خير النسوان، فهل يفوقه قاطن بلد، للأسود قتال، وللحروب ختال.

1) ولد بمكة المكرمة سنة (23) ق.م وبويع بالخلافة في المسجد النبوي بعد مقتل عثمان في شهر ذى الحجة سنة (35 هـ) واستشهد بعد يومين من مؤامرة 17 رمضان سنة (40) هـ بمسجد الكوفة على يد عبد الرحمان بن مجلم المرادي الحميري ولـه من العمر 63 سنة وصلى عليه ابنه الحسن وكانت مدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر.

2) من السابقات إلى الإسلام، كانت للنبي بمنزلة الأم، ترعاه وتكلؤه، روي عن أنس ان النبي ﷺ قال في شأنها : «لم نلق بعد أبي طالب أبر بي منها»، وهاجرت معه ﷺ إلى المدينة ولما توفيت كفنها في قميصه وصلى عليها وقال كما روى عن أنس : «ما عوفي من ضغطة القبر إلا فاطمة بنت أسد».

3) آخر غزواته ﷺ وقعت في السنة التاسعة من الهجرة.

4) إشارة إلى قوله تعالى : «وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين» الأعراف : 142. والحديث ساقه البخاري في كتاب المغازى «باب غزوة تبوك» برواية سعد بن أبي وقاص.

5) فضائل علي بن أبي طالب.

6) آل عمران : 62.

7) باب مناقب علي بن أبي طالب.

هو أول مولود ولد في بيت الله الحرام

اتفق أكثر المؤرخين : كالحاكم النسابوري في «المستدرك على الصحيحين» والمسعودي في «مروج الذهب» وابن الصباغ المالكي في «الفصول المهمة» على أن عليا رضي الله عنه ولد بمكة في بيت الله الحرام، ولم يولد قبله ولا بعده في بيت الله الحرام مولود سواه.

قال بعضهم : كانت بداية علي حسنة، ونهايته حسنة، فقد ولد في المسجد، واغتيل في المسجد.

وأول هاشمي ولد بين هاشميين

فجده من قبل أبيه وكذلك جده من قبل أمه يجتمعان في هاشم بن عبد مناف. ومن المعلوم أن بيت الهاشميين كان مشتهرا بالمروءة والشجاعة والنبل.

وتعتبر أمه :

أول هاشمية ولدت خليفة هاشميا

ذكر الزبير بن بكار : أن فاطمة بنت أسد، هي أول هاشمية ولدت خليفة.

وأول من أسلم

في صحيح مسلم : اتفق الجمهور على أنه ـ علي ـ أول من أسلم من الصبيان، واستدل بحديث أول من يرد على الحوض الآتي.

وروى أحمد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كان علي رضي الله عنه أول من أسلم من الناس بعد خديجة.

وكان سنه يوم أسلم ثلاث عشرة سنة على ما صححه ابن عمر. فقد روى ابن عبد البر في «الاستيعاب» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أسلم علي بن أبي طالب وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة ثم قال : قال ابن عمر : وهذا أصح ما قيل في ذلك (8).

أول من صلى

روى الترمذي في صحيحه، أول من صلى علي رضي الله عنه.

وذكر ابن السمان في الموافقة، أن أول من صلى القبلة علي بن أبي طالب، ولم يعرف عنه أنه عبد صنما.

وأول عربي وعجمي صلى مع النبي ﷺ

أخرج أبو عمر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لعلي أربع خصال ليست لأحد سواه، هو أول عربي وعجمي صلى مع النبي ﷺ وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف، وهو الذي صبر معه يوم فر عنه غيره، وهو الذي غسله وأدخله قبره.

وأول من يرد على الحوض

روي عن سلمان مرفوعا أن النبي ﷺ قال : «أول هذه الأمة ورودا على الحوض. أولها إسلاما : علي بن أبي طالب». ذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب».

وأول من يقرع باب الجنة

روي عن علي رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ياعلي، إنك أول من يقرع باب الجنة فتدخلها بغير حساب بعدي». خرجه علي بن موسى الرضى في مسنده.

وأول من يدعى به يوم القيامة

روى الإمام أحمد في المناقب من حديث طويل أن النبي ﷺ قال لعلي : ألا واني أخبرك ياعلي أن أمتى أول الأمم يحاسبون يوم القيامة، ثم أبشر، أول من يدعي بك لقرابتك مني، فيدفع إليك لوائي، وهو لواء الحمد، تسير به بين السماطين (9) آدم وجميع خلق الله تعالى يستظلون بظل لوائي يوم القيامة.

---

8) هامش الاصابة. ج. 3.

9) السماطان من الناس والنخل : الجانبان. يقال مشي بين السماطين أي بين الجانبين.

وأول من يجثو للخصومة

روي عن علي أنه قال : أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الرحمان يوم القيامة. ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة.

وأول فدائي في الإسلام (10)

لما عزم النبي ﷺ على الهجرة إلى المدينة المنورة، أسر إلى ابن عمه علي أن ينام على فراشه، ويتسجى برده الأخضر، ويتخلف بعده بمكة، حتى يرد الودائع التي كانت عنده ﷺ إلى أصحابها.

وكانت قريش قد أعدت عصابة من الرجال، ليلة هجرته ﷺ لقتله، وأوفدتهم لمحاصرة داره، وفعل علي ما أمره به الرسول والحصار مضروب على بيته ﷺ ولم يصب علي بسوء. ثم قام بعد هجرته ﷺ بمكة ثلاث ليال بأيامها، حتى رد الودائع إلى أهلها والتحق بالرسول ﷺ إلى المدينة.

وكان رضي الله عنه أول المبارزين يوم بدر، وأول الفاتحين يوم خيبر، وأول السابقين يوم الفتح.

وأول نسائه فاطمة الزهراء

أول زوجة لعلي هي فاطمة الزهراء، سيدة نساء العالمين زوجه إياها ﷺ بعد الهجرة بخمسة أشهر، وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وبنى بها بعد أن عاد من غزوة بدر (11) ولم يتزوج غيرها في حياتها، وأنجبت منه الحسن والحسين ومحسن، وأم كلثوم الكبرى، وزينب الكبرى.

وقد انحصرت فيها وفي زوجها علي، نسبة كل منتسب إلى رسول الله ﷺ.

توفيت في السنة 11 هـ بعد وفاته - ﷺ - بستة أشهر ولم تبلغ الثلاثين لأنها ولدت سنة 18.ق. الهجرة.

وزوجه فاطمة هي أول أهل البيت لحوقا به ﷺ

ففي الصحيح أن النبي ﷺ أسر لفاطمة : «أن جبريل كان يعارضني بالقرآن في كل سنة مرة، وأنه عارضني العام مرتين، وما أراه الا قد حضر أجلي، وانك أول أهل البيت لحوقا بي ونعم السلف أنا لك، فبكت، فقال : ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين ؟ فضحكت».

وأول زوجة له بعد فاطمة

هي أم البنين فاطمة بنت حرام الوحيدية

وأولاده منها : العباس وجعفر، وعبد الله، وعثمان.

أول من كني أبا تراب

كان علي يكنى بأبي الحسن، وأبي الريحانتين، وأبي تراب، وكانت هذه الأخيرة أحب الكنى إليه، لأن النبي ﷺ كناه بها.

روى البخاري في صحيحه (12) عن سهل بن سعد قال : إن كانت أحب أسماء علي رضي الله عن إليه لأبو تراب (13)، وإن كان ليفرح أن يدعى بها، وما سماه أبو تراب إلا النبي ﷺ. غاضب يوما فاطمة فخرج فاضطجع إلى الجدار إلى المسجد (14)، فجاءه النبي ﷺ يتبعه، فقال : هو ذا مضطجع في الجدار، فجاءه النبي ﷺ وامتلأ ظهره ترابا، فجعل النبي ﷺ يمسح التراب عن ظهره ويقول : اجلس يا أبا تراب (15).

أول من بايعه :

لما اجتمعت كلمة الصحابة وغيرهم على مبايعة علي، خرج إلى المسجد وصعد المنبر، فكان أول من صعد إليه وبايعه : طلحة بن عبيد الله من عثمان القرشي التيمي (16)

---

10) سبقت الاشارة إلى هذه الأولية في الحلقة (2) في سلسلة الأوليات.

11) ذكر ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير، أن صداق فاطمة وغيرها من بنات الرسول خمسمائة درهم، أي نحو اثني عشر أوقية ونصف.

12) كتاب الأدب. باب التكني بأبي تراب.

13) ذكر القسطلاني في شرحه على الصحيح (ج. 9. ص 116. ط 7. الاميرية) أن إن مخففة من الثقيلة «وكان زائدة» وأحب اسم ان واللام في لابو للتأكيد وأطلق الاسم على الكنية.

14) في رواية إلى الجدار في المسجد. والواو في وامتلأ للحال.

15) في الحديث كما في المصدر أعلاه استجاب الرفق بالاصهار، وترك معاقبتهم ابقاء لعودتهم وقد سبقت الاشارة إلى هذه الأولية في الحلقة (4) من سلسلة الأوليات في معرض الكلام على أنه ﷺ هو أول من كنى عليا بأبي تراب.

16) طلحة هذا هو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى. وأول قتيل في وقعة الجمل. أخرج البخاري في صحيحه من طريق قيس ابن أبي حازم قال : «رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها النبي ﷺ يوم أحد.

تم بايعه الزبير وبقية الصحابة ويقول الكوفيون : إن أول من بايعه بالمدينة هو مالك الأشتر.

وقد اختص رضي الله عنه من بين الخلفاء بلقب الإمام.

أول أعماله بالمدينة

بعد أن تمت له البيعة، باشر أول أعماله من المدينة التي اتخذها عاصمة له. حيث اختار العمال للأقاليم، فأرسل إلى البصرة عثمان بن حنيف (17) وإلى الشام أخاه سهل بن حنيف (18) وأرسل إلى مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي (19) وذلك بعد أن عزل من بقي من ولاة الأقاليم من أقارب عثمان وأعوانه، إلا معاوية ابن أبي سفيان، فانه رفض أوامر العزل، بعدما رفض الاعتراف بعلي خليفة جديدا.

أول خطبة له بعدما استخلف

إن الله أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر، فخذوا نهج الخير تهتدوا، واصدفوا عن سمة الشر تقصدوا (19) الفرائض الفرائض أدوها إلى الله تؤدكم إلى الجنة إن الله حرم حراما غير مجهول، وأحل حلالا غير مدخول (20) وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها (21) فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب... الخ (22).

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتابه «تاريخ الأمم والملوك» (23) أن الخطبة المذكورة هي أول خطبة لعلي بعدما استخلف وذلك في معرض أحداث سنة 35.

أول خطبة له بالمدينة

بعد أن حمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ قال : أيها الناس، كتاب الله وسنة نبيكم (24)، لا يدعى مدع إلا على نفسه شغل من الجنة والنار أمامه، ساع نجا وطالب يرجو، ومقصر في النار، ثلاثة واثنان : ملك طار بجناحيه، ونبي أخذ الله بيديه لا سادس (25) هلك من اقتحم، وردي من هوى... الخ (26).

هو أول من نظم الشرطة

أول من أدخل نظام العسس في الليل، عمر رضي الله عنه أما نظام الشرطة فأول من أحدثه علي، وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة، وكان يختار رئيسها من علية القوم، ومن أهل العصبية والقوة (27).

والشرطة كما في شرح المواهب للزرقاني : عند قول الشهاب القسطلاني في المواهب : «كان قيس بن سعد بن عبادة بين يديه - ﷺ - بمنزلة صاحب الشرطة» بضم المعجمة والراء وقد تفتح الراء. الواحدة شرطي. وهم أعوان الولاة، سموا بذلك، لأنهم الأشداء الأقوياء من الجند، قيل : لأنهم نخبة الجند، وشرطة كل شيء خياره، وقيل لأن لهم علامات يعرفون بها.

وأول من اتخذ بيتا لقصص المظلومين

ورد في صبح الأعشى (28) أن عليا هو أول من اتخذ بيتا ترمى فيه قصص أهل الظلامات، «وهو المسمى عند العثمانيين دفتر خانة»، وبقي حتى كتب له شتمه في رقعة وطرحت في البيت فتركه، ثم اتخذه المهدي بعده (29) ثم ترك بعد ذلك.

---

17) انصاري أوسي، شهد أحدا والمشاهد بعدها.

18) شهد بدرا والمشاهد كلها مع النبي ﷺ وتوفي بالكوفة سنة (38 هـ)
(19) أحد دهاة العرب وكرمائهم، وكان يحمل راية الأنصار مع النبي ﷺ توفي سنة (59 هـ).

19) تستقيموا.

20) معيب.

21) معاقد الحقوق : موضعها من الذمم.

22) انظر التتمة ب. ج. 2 من نهج البلاغة ص. 97 شرح الشيخ محمد عبده وتحقيق محمد محيي الدين.

23) ج. 5 ص. 157 ط. الحسينية المصرية.

24) المراد : الزموا العمل بما فيهما.

25) قسم المكلفين خمسة أقسام، ثلاثة منهم : ساع مجتهد، وطالب راج، ومقصر هالك. والثنان معصومان : الملك الطائر بجناحيه، والنبي الذي أخذه الله بيده. ولا سادس لهم.

26) وردت هذه الخطبة في البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. وفي نهج البلاغة، وفي عيون الاخبار، لابن قتيبة : أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري وفي العقد الفريد لأبي عمرو أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي باختلاف في بعض الكلمات وزيادات أو نقص في بعضها.

27) أسنى المطالب في مناقب علي بن أبي طالب لابن الجزري.

28) ج. 1 ط الاميرية. 1913.

29) أحد خلفاء بني العباس. كان قد اتخذ بيتا على الطريق له شباك من حديد تطرح فيه القصص، وكان يدخله وحده، فيأخذ تلك القصص فينظر فيها ويرتبها حسب الأسبقية.

وأول من بنى السجن في الإسلام

وكـان الخلفـاء قبلـه يسجنون في الكهـوف تحت الأرض.

وأول من فرق بين الخصوم

كان علي مبرزا في القضاء، وكـان عمر بن الخطـاب يقول في شأنه اقضانا علي، ويقوقول إذا استعظم مسألة من مسـائل القضاء : «قضية ولا أب حسن لها».

وكان أول فتحه لخيبر قتله لمرحب

ورد في صحيح مسلم ما ملخصه :

لما أعطى النبي ﷺ لعلي الرايـة يوم خيبر، وقـال : «لأعطين الرايـة رجـلا يحب اللـه ورسـولـه، أو يحبـه اللـه ورسـولـه» خرج علي وأصحابه. ولمـا قـدموا خيبر، خرج ملكهم مرحب يخطر (30) بسيفه ويقول :

قد علمت خيبر (31) اني مرحب

شـاكي السلاح (32) بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فقال علي :

أنا الذي سمتني أمي حيـدرة (33)

كليث غـابـات كريـه المنظرة

أو فيهم بالصاع كيل المندره (34)

قـال بعض شراح الحـديث (35) : ورد أن النبي ﷺ أرسـل أبا بكر باللواء (36) فرجع ولم يفتح حصنهم لمناعتـه وقوتـه، وكـان يسمى القموص، فلما كـان الغـد أرسـل عمر، فذهب فرجع ولم يفتح الحصن، وقتـل محمود بن مسلمـة، فقـال ﷺ لأدفعن لوائي غدا إلى رجـل يفتـح اللـه عليـه، فأرسل إلى علي وبصق في عينيه (37) ودعا لـه، ففتح اللـه عليه.

30) يرفعه مرة ويضعه مرة أخرى.

31) جاء في معجم البلدان أن خيبر تقع على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام. ومن أسماء حصونها القموص.

32) قوية.

33) الحيدرة والحيدر : الأسد، وكانت أمه فاطمة لما ولدته سمته أسدا كاسم أبيها لأن أباه كان غائبا، ولما حضر سماه عليا.

34) كيل واسع. والمراد اقتل الاعداء قتلا ذريعا.

وكان أول الفتح قتله لمرحب ملكهم

أول معركة قادها بنفسه

هي معركـة الجمل. «نسبـة إلى جمل كـانت تمتطيـه عـائشـة زوج النبي ﷺ واسمـه «عسكر» وقـد وقعت هـذه المعركـــة التي انتصر فيهـــا على خصـومــــه بـــالبصرة سنة : 36 هـ / 656 م والتي أصبحت الكوفة بعدها عـاصمة الخلافة الإسلامية.

أول قتيل فيها

هو طلحة بن عبيد الله. أتاه سهم غرب (38) فـأصـاب ركبته فكان إذا أمسكوه فتر الدم، وإذا تركوه انفجر، فقـال لهم : اتركوه فإنما هو سهم أرسله الله.

أول ما تكلمت به الخوارج يوم الجمل

قالوا : ما أحل لنا دمـائهم وحرم علينـا أموالهم، فقـال علي : هي السنة في أهل القبلة، قالوا ما نـدري مـا هـذا ؟ الخ.

وهو أول خليفة جعل الكوفة مقر خلافته

دخل الكوفـة يـوم الإثنين لاثني عشر ليلـة خلت من رجب سنة 36 هـ بعد ستة شهور من قتل عثمان، فكان أول خليفة دخل الكوفـة وجعلهـا مقر خلافتـه، وأصبحت تـدعى عاصمة الخلافة الإسـلامية.

وهو أول من وضع علم النحو

ذكر السيوطي في أوائله : أن سعيد بن سـالم البـاهلي قال : حدثني أبي عن جدي عن أبي الأسود الدؤلي قال :

دخلت على أمير المومنين علي بن أبي طالب، فرأيته مطرقا مفكرا، فقلت : فيم تفكر يـا أمير المومنين ؟ قـال : إني سمعت ببلـدكم هـذا لحنـا، فـأردت أن أضع كتـابـا في

35) صاحب كتاب التاج، الجامع للأصول في أحاديث الرسول : منصور علي ناصف.

36) روى الترمذي والنسائي باسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كانت راية النبي ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض.

37) لما طلبه النبي ﷺ ليعطيه الراية في غزوة خيبر قال له الصحابة : يشتكي عينيه قال ﷺ فأرسلو إليه فائتوني به فلما جاء يصف عينيه، ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية.

38) لا يدري راميه.

أصول العربية، ثم أتيته بعد ثلاث، فألقى إلي صحيفة فيها : بسم الله الرحمان الرحيم. الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم مبني على المسمى، والفعل مبني على معنى ليس باسم ولا فعل، ثم قال لي : تتبعه وزد فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود، أن الأشياء ثلاثة : ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر، قال أبو الأسود، فجمعت منه أشياء عرضتها عليه الخ. وذكر الشيخ أبو محمد عبد القادر الفاسي في فهرسته، عندما رفع اسناده في علم النحو إلى أبي الأسود عن علي كرم الله وجهه، أن واضع علم النحو هو علي كما أخرجه الزجاجي في أماليه والبيهقي في شعب الإيمان، وأبو الفرج في الأغاني من طرق متعددة.

وأشار لهذا ابن شعبان في الفتيه بقوله :

أول من أفادنا النحو علي
سببه خلف حكاه الدؤلي
عن بنته التي نوت تعجبا
فاستفهمت برفع فعله أبا
فقال قولي : ما اشتد الحرا
بالنصب في الدال الثقيل والرا
فاستنكرت مقاله إياها
واستفهمت عن أصله أباها

وفي الجرعة الصافية والنفحة الكافية للشيخ المختار أحمد الكنتي : أن الإمام عليا هو الذي استنبط علم النحو (39).

وهو أول من نطق بالتصحيف

التصحيف هو أن تأتي بلفظ واحد تحتمل قراءته بوجهين من ألطفه قول علي : كل عنب الكرم - بسكون الراء - تعطيه فان - عنب - يصحف بعيب والكرم «بسكون الراء» يصحف بالكرم «بفتح الراء».

وتعطيه يصحف بتغطيه فيقال : كل عيب الكرم يغطيه.

وأول من تكلم بعلم التصحيف علي بن أبي طالب

ومن كلامه في ذلك : خراب أهل البصرة بالريح «والراء والحاء المهملتين بينهما ياء» قال الحافظ الذهبي : ما علم بتصحيف هذه الكلمة إلا بعد المائتين من الهجرة يعني خراب البصرة بالزنج «بالزاي والنون والجيم».

وفي اتحاف الرواة بمسلسل القضاة للشهاب أحمد الشلبي أول من تكلم في التصحيفات اللودعية علي، فقال : كل عنب الكرم الخ (40).

وأول من تكلم في علوم التصوف

قال ابن ليون التجيبي في الإنالة العلمية :

أول من تكلم في علوم التصوف علي، ثم قال : ونقل ابن الحاج في حواشيه على الدر الثمين عن التسترى في رسالته العلمية، أن الحسن البصرى قال : أول من تكلم في التصوف والفقر علي قال : يعنى ابن الحاج : ومن ثم جعله الوالد في نظمه للحكم واضعا لعلم التصوف فقال :

ولـه علي واضـع
هـو ذو العلم وذو الحكم (41)

وقال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة :

إن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون، وعنده يقفون.

وأول من قضى في الخنثى في الإسلام

ذكر أبو عبد الله محمد الخرشي في شرحه على مختصر الشيخ خليل عند قول المتن في آخر باب الفرائض «فإن بال من واحد أو كان أكثر أو أسبق، أو نبتت له لحية أو ثدي، أو حصل حيض أو مني فلا اشكال» ما يأتي :

خاتمة : أول من حكم في الخنثى عامر بن الظرب (42) ثم حكم به في الإسلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أي أول من قضى به في الإسلام فلا ينافى ما ورد أنه عليه الصلاة والسلام، سئل عن مولود له قبل وذكر من أين يورث فقال عليه السلام من حيث يبول».

39) ج. 2 من التراتيب الإدارية لمحمد عبد الحي الكتاني من ص 272 إلى ص 275 ط. الاهلية بالرباط، وكفاية الطالب لمناقب علي بن أبي طالب للشيخ عبد القادر الشنقيطي.

40) المصدر ما قبل الأخير.

41) ج. 2 من التراتيب الإدارية ط. 1 ص. 270.

42) المراد في الجاهلية. والظرب كما في الصحاح بفتح الظاء المعجمة وكسر الراء المهملة هو عامر بن الظرب اليشكري آخر حكام العرب. وأول من قرعت له العصا وضرب به المثل.

والحديث أخرجه البيهقي من طريق يعقوب بن ابراهيم القاضي عن الكلبي، وله شاهد عن علي موقوفا (43). ذكر هذا الحافظ السيوطي في تعقبه على موضوعات ابن الجوزي.

وأول من أخفي قبره

دفن، علي رضي الله عنه بظهر النجف (44)، قرب الكوفة مقر خلافته، بالمشهد الذي يزار، وبقي قبره مستورا إلى أن أظهره هارون الرشيد، فبنى عليه قبة فأخذ الناس في زيارته، والدفن لموتاهم حوله. قاله النسابة الشهير ابن عنبة أحمد بن علي الحسني المتوفى سنة 828 هـ (45).

وذكر صاحب محاضرة الاوائل نقلا عن الدميري ان الصحيح هو ما ذكره من أنه دفن بظهر النجف، وأيد ذلك بعضهم (46) بقوله : فإن الذي دل على قبره هم أبناؤه، وأهل البيت أدرى بما فيه.

وقد تعرض أبو القاسم الزياني في كتابه الترجمانة (47) أثناء ذكره لمآثر العراق لوصف مشهد الامام علي حيث قال في ذلك ما ملخصه :

وعلى مشهد الامام علي مدينة عظيمة عامرة الأسواق، وأهلها كلهم روافض وعلى تربته قبة عظيمة مفروشة بأنواع البسط، وستور من ديباج، وقنادل ذهب، لايقاد الشمع، وخزائن معمورة بما يأتي من جميع الندور من كل بلد.

وبين هذا المشهد وقصر الخورنق الذي كان لملوك الحيرة مرحلة. وبينه وبين واسط مرحلة. وأسفل منه مدينة الحلة، وبينها وبين بغداد قرية يقال لها : بوص، بها كان مولد ابراهيم عليه السلام.

وقال عنه ابن عنبة السابق الذكر وفي زمن السلطان عضد الدولة «فناخسرو» ابن بويه الديلمي عمره عمارة عظيمة، ولم تزل عمارته باقية إلى سنة 753 هـ حيث احترقت العمارة. وجددت عمارة المشهد على ما هي عليه الآن.

وهو أول من قال

«جعلت فداك» حين دعا عمرو بن ود العامري جيش المسلمين إلى المبارزة. فقد خرج عمرو بن ود في وقعة الخنادق مقنعا في الحديد، ينادي جيش المسلمين، من يبارز ؟ فصاح علي «جعلت فداك يا رسول الله، لتأذن لي»، فقال له النبي شفقة عليه : إنه عمرو، وبعدما كرر النداء، ألح علي في مبارزته، فأذن له النبي ﷺ فانطلق فرحا بهذا الاذن الكريم، فما هي إلا ساعة زمنية حتى سقط عمرو صريعا وعلي يجأر بالتكبير.

مكناس **محمد العرائشي**

---

43) أي على الصحابي وليس مرفوعا للنبي ﷺ.

44) ورد في معجم البلدان ما يأتي :
النجف بالتحريك يقع بظهر الكوفة، وبالقرب منه قبر أمير المومنين علي بن أبي طالب وقد ذكرته الشعراء في أشعارها فأكثرت من ذلك قول علي بن محمد العلوي المعروف بالحماني الكوفي :

فيا أسفى على النجف المعرى
وأودية منورة الأقاحي
وما بسط الخورنق من رياض
مفجرة بأفنية فساح

45) في كتابه عمدة الطالب في انساب ال أبي طالب.

46) محمد الحسن الطلقاني في احدى تعاليقه على كتاب عمدة الطالب السابق الذكر.

47) ص 184. 85. ط. فضالة «المحمدية».

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تضع برنامجا موسعا للتوعية الدينية

محاضرات شهرية يلقيها كبار العلماء في مختلف المدن المغربية

في إطار خطة التوعية الإسلامية التي اعتمدتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، تنفيذا لتعليمات جلالة الملك الحسن الثاني في شأن النهوض بمستوى الدعوة الإسلامية، تقرر أن تنظم الوزارة سلسلة من المحاضرات الدينية ذات المستوى العلمي الرفيع يلقيها نخبة من العلماء والمفكرين مرة كل شهر في إحدى المدن المغربية بصورة منتظمة.

وكان السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري قد دشن هذا البرنامج بمحاضرة قيمة ألقاها بمدينة الدار البيضاء بمناسبة عيد العرش السعيد حول موضوع (رعاية الدولة العلوية الشريفة للعلوم والآداب). أعقبتها محاضرة ثانية للأستاذ الشيخ محمد المكي الناصري رئيس المجلس العلمي بالعدوتين في موضوع (وسطية الإسلام) ألقاها في مستهل هذا الشهر بمدينة الحسيمة.

وكان السيد الوزير قد انتقل إلى مدينة الحسيمة حيث أشرف على نشاط الوزارة وعقد عدة جلسات عمل مع العلماء والوعاظ والمرشدين ورجال السلطات المحلية والمنتخبين.

وخلال اجتماع السيد الوزير بالسادة العلماء والوعاظ بإقليم الحسيمة ألقى كلمة توجيهية جاء فيها على الخصوص :

«وقد اغتنمت هذه المناسبة للاجتماع بكم شخصيا، رغم علمي بأنه عقدت اجتماعات أخرى لدراسة ما جاء في الخطاب الملكي، ولكني حرصت على أن أؤكد لكم ما جاء في تلك الاجتماعات التي من شأنها أن تنير أمامكم سبل العمل الجدي والنافع».

وذكر الحاضرين بفقرات من الخطاب الملكي السامي في هذا الموضوع الحيوي وقال :

«الحل ليس في أن تدخل مع المنحرفين والمخربين في صراع، وإنما يكمن في جدلنا معهم بالتي هي أحسن رغبة في رجوعهم إلى اتباع السنة النبوية، والعودة إلى هذا المنبع هي الرجوع إلى القرآن الكريم والسيرة المحمدية».

ثم أعطى السيد الوزير توجيهات عامة وأمثلة متعددة ونماذج للأسلوب الذي ينبغي سلوكه في ميدان الدعوة، منها :

يخاطب العلماء - أمناؤه، بحيث إذا أديتم هذه المهمة ترضون ضمائركم وأمتكم وربكم وأمير المومنين الذي يرعى قافلتكم.

وفقنا الله وإياكم، وسدد خطانا وخطاكم في ظل مولانا أمير المومنين جلالة الحسن الثاني نصره الله، والسلام عليكم ورحمة الله».

ثم تناول الكلمة السيد رئيس المجلس العلمي بالناضور الأستاذ المقدم بوزيان وقال :



السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية يلقي محاضرة قيمة بمدينة الدار البيضاء.

«تبسيط لغة خطبة الجمعة وشرحها - إن اقتضى الحال - باللغة الدارجة، واتخاذ الجمل القصيرة والمركزة، وعدم التطويل في الخطبة والصلاة رفقا بالمصلين الذين يوجد من بينهم المرضى والشيوخ ومن لهم مصالح مستعجلة».

وأشار في النهاية إلى الاهتمام الكبير الذي يوليه جلالة أمير المومنين للأمن الروحي، وأنتم -

«باسمكم جميعا نرحب بالسيد الوزير ونهنئه من جديد بالحظوة الكبيرة التي خصه بها أمير المومنين جلالة الحسن الثاني أيده الله.

وها هو يوجه إلينا توجيهاته المنطلقة من قلبه، وما علينا إلا أن ننطلق من جديد في ضوء هذه التوصيات، وإنا لنؤكد لمعالي السيد الوزير أن علماء الناضور والحسيمة سائرون في هذا الاتجاه وسيطبقون كل ما جاء في توجيهاتكم النيرة.



العلماء وجمهور غفير من المثقفين يتتبعون محاضرة للسيد الوزير حول موضوع : (عناية الدولة العلوية الشريفة بالعلوم والآداب).

وإنا لنشكر السيد العامل الذي لا يبخل علينا بشيء في ميدان الشؤون الإسلامية ويقدم في هذا السبيل خدمات جلى.

وإنا لنطلب من السيد الوزير نيابة عن كافة العلماء في إبلاغ تعلقنا بالعرش العلوي الشريف وولائنا لجلالة ملكنا العظيم.»

وفي نطاق العناية التي توليها حكومة صاحب الجلالة بأقاليم شمال المملكة، واستمرارا لهذا العمل الإسلامي التوجيهي الهام تقرر أن يشمل نشاط الوزارة هذه المرة مدينة الناظور وذلك يوم الجمعة 25 ماي.

ويمتاز برنامج التوعية المخصص لمدينة الناظور بعقد لقاء بين المجلس العلمي لمدينة العيون والأقاليم الصحراوية المسترجعة وبين المجلس العلمي الإقليمي بالناظور، وذلك في إطار ربط الصلة بين علماء الصحراء المغربية وإخوانهم وزملائهم علماء شمال المملكة لتقوية أواصر التعاون والتنسيق وتبادل الخبرات والمعلومات بين الطرفين دعما للدعوة الإسلامية وتطويرا لها.

وسينتقل السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية إلى مدينة الناظور للإشراف في عين المكان على هذه الأنشطة التي تشمل المحاضرة الشهرية التي سيلقيها الأستاذ ـ حمداتي ماء العينين عضو الديوان الملكي وعضو المجلس العلمي الإقليمي بالعيون حول موضوع : (الإسلام هو الحل الأمثل لمشكلات العصر) إضافة إلى جلسات العمل التي سيعقدها السيد الوزير مع السادة العلماء والوعاظ والمرشدين وأطر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية العاملة هناك.

كما سيجتمع السيد الوزير بالمناسبة بالسلطات المحلية والمنتخبين لدراسة المسائل المتعلقة بجانب الأوقاف والشؤون الإسلامية بإقليم الناظور.

خطب منبرية من نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية



● في إطار خطة التوعية الإسلامية المبنية على أساس إعادة النظر في مستوى خطبة الجمعة تمهيدا للرفع من مستواها ومردودها العلمي والتوجيهي، نشرت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الجزء الأول من (الخطب المنبرية) ويتضمن 15 خطبة في موضوعات مختلفة تتصل بحياة المواطنين اليومية. وقد اعتمد في في إعداد هذه الخطب اليسر والبساطة مع مراعاة المعالجة العلمية والفقهية للموضوعات المطروحة.

وتعميما للفائدة، قامت الوزارة بتوزيع عشرة آلاف نسخة من هذه الخطب على مختلف مساجد المغرب في البوادي والمدن ● ●

المنهج العلمي الرياضي في دراسة القرآن الكريم





● ● صدر للأستاذ إدريس الخرشاف، مدرس الرياضيات بكلية العلوم بالرباط الجزءان، الأول والثاني من (سلسلة المنهج العلمي الرياضي في دراسة القرآن الكريم).

الأول عن سورة (يس) والثاني عن (ليلة القدر) ● ●

المملكة المغربية

وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية

تنظم



من 2 شعبان إلى 9 شعبان 1404
4 مايو إلى 11 مايو 1984

بمركب الصناعة التقليدية شارع مولاي علي الشريف

بمدينة الرشيدية

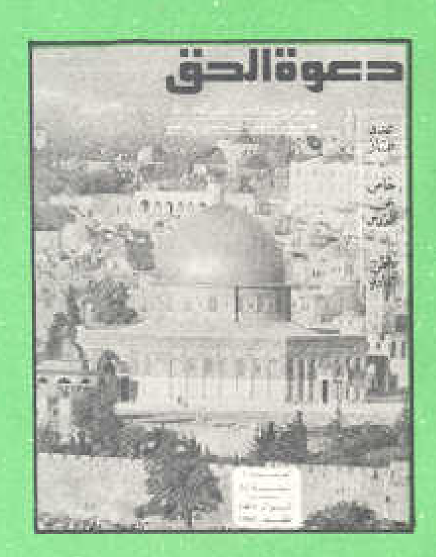
• تخفيض خاص في أسعار المطبوعات المعروضة بنسبة 50 ٪

مطبعة فضاله . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3



















صدر العدد الأول في يوليوز سنة 1957